دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

# الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

## الجزء العاشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

# الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

## الجزء العاشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

# فهرس الجزء العاشر

## تفسير سورة الحجر

صفحة


تفسير قوله تعالى: «آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» ... ... ... ... ... ... ... ١
تفسير قوله تعالى: «رُبَمَا يَوَدّ الذين كفروا ...» الآية. الكلام على «رُبَمَا» ١
تفسير قوله تعالى: «ذَرْهُم يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأمل ...» فيه مسألتان:
بيان أن الآية منسوخة بالسيف. النهى عن طول الأمل والحرص على الدنيا. ٢
تفسير قوله تعالى: «وما أهلكنا من قَرْيَة ...» الآيات ... ... ... ... ... ... ٣
تفسير قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر ...» الآيات. بيان أن الله تعالى حفظ
القرآن من أن يزاد فيه أو ينقص منه، فلم يزل محفوظا إلى اليوم ... ... ... ٥
تفسير قوله تعالى: «ولقد أرسلنا من قبلك ...». الآية. ماجاء فى معنى «الشِّيَع». ٦
تفسير قوله تعالى: «كذلك نَسْلُكُه فى قلوب ...» الآيات. اختلاف العلماء
فى عود الضمير، هل هو عائد على القرآن، أو على الضلال والشرك والاستهزاء. ٧
تفسير قوله تعالى: «ولو فَتَحْنا عليهم بابا من السماء ...» الآيات. الكلام فى عود
الضمير فى قوله «عليهم» و«فظلوا». مافى معنى قوله «سُكِّرَتْ» من أقوال. ٨
تفسير قوله تعالى: «ولقد جعلنا فى السماء بُرُوجًا ...» الآيات. الدليل على كمال
قدرة الله تعالى. بيان أسماء هذه البروج، وأنه يستدل بها على الطرقات
والأوقات والخِصْب والجَدْب. بيان أن الشياطين كانت لا تحجب عن السماء،
وأنهم كانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ويزيدون عليها إلى مبعث
النبي عليه السلام. رَمْيهم بالشهب عند استراق السمع. اختلف فى الشهاب
هل يقتل أم لا. وهل كان رَمْىٌ بالشهب قبل المبعث ... ... ... ... ... ... ٩
تفسير قوله تعالى: «والأرض مددناها وأَلْقَيْنا فيها رَوَاسِيَ» الآيات ... ... ... ١٢
تفسير قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لواقح ...» الآية. فيه خمس مسائل: الكلام
على الرياح. قول العلماء فى لقاح القمح، وإبار النخل. إجماعهم أن البستان

صفحة

إذا انشق طلع إناثه فأخر إباره وقد أبر غيره أن حكمه حكم ما أبر . وأن الثمر المؤبر لا يدخل مع الأصول فى البيع إلا بالشرط . النهى عن بيع الملاقح، وهل هى الفحول من الإبل، أو الإناث التى فى بطونها أولادُها ... ... ... ... ... ١٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين » فيه ثلاث مسائل : بيان مافى الآية من التأويلات . الدليل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة، وعلى فضل الصف الأوّل فيها، وكذا فضل الصف الأوّل فى القتال ١٩

تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صَلْصال ... » الآيات . الكلام على المادة التى خلق منها آدم عليه السلام، والمادة التى خلق منها الجان ... ... ٢١

تفسير قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا ... » الآيات . أقوال العلماء فى الروح، وأن سجود الملائكة لآدم كان سجود تحية لا سجود عبادة ... ... ٢٤

تفسير قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون إلا إبليسَ ... » الآيات . الكلام على الاستثناء فى هذه الآية . الفرق بين الشياطين والجن . اختلف الفقهاء فى جواز الاستثناء من الجنس غير الجنس . امتناع إبليس من السجود . الدليل على جواز استثناء القليل من الكثير والعكس . أبواب جهنم وتخصيص كل طائفة بباب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٥

تفسير قوله تعالى : « إن المتقين فى جنات وعيون ... » بيان المراد بالعيون ... ... ٣٢

تفسير قوله تعالى : « ونَزَعْنَا ما فى صدورهم من غِلّ ... » كيف ينزع الغِلّ من قلوب المتقين، وهل هو فى الدنيا أم فى الآخرة . ماقيل فى السُّرُر ... ... ... ... ... ٣٣

تفسير قوله تعالى : « نَبِّئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم » . بيان سبب نزول الآية... ٣٤

تفسير قوله تعالى : « ونَبِّئْهم عن ضيف إبراهيم ... » الآيات . تبشير الملائكة لإبراهيم بإسحاق عليهما السلام وتعجّبه من ذلك . بيان أوجه القراءات فى قوله « تُبَشِّرون » وقوله « من القانطين » . أقوال العلماء فى الاستثناء الواقع فى هذه الآيات ، وإجماعهم على أن الاستثناء من النّفى إثبات ، ومن الإثبات نفى ... ٣٤

تفسير قوله تعالى : « فلما جاء آلَ لوطٍ المرسلون ... » الآيات . قدوم الملائكة إلى لوط عليه السلام، وقصة لوط مع قومه لما أرادوا الفاحشة منهم ... ... ٣٨

صفحة


تفسير قوله تعـالى : « لَعَمْرُكَ إنهم لفى سَكْرَتِهم يَعْمَهُون » فيـه ثلاث مسائل : إجماع المفسرين على أن هذا قسم من الله تعالى بحياة محمد عليه السلام تشريفا له . بيان أن القسم بقولك «لعمرى ولعمرك» ونحوه جاء فى أشعار العرب، والكثير من العلماء على كراهيته . مذهب مالك فيمن قال : لعمرك، والتين والزيتون، ونحو هذا، أن اليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق ... ... ... ... ... ٣٩

تفسير قوله تعالى : « فأخذتهم الصَّيْحة مُشْرِقين » الآيات ... ... ... ... ... ... ٤٢

تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآياتٍ للمُتَوَسِّمِين » فيه مسألتان : ما جاء فى التوسُّم والفِراسـة . هل يحكم بالفِراسة فى الأحكام ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٢

تفسير قوله تعالى : « وإنها لبسبيل مُقيم ... » الآيات . بيان معنى « الأَيْكة » . ٤٥

تفســير قوله تعالى : « ولقـد كذّب أصحابُ الحِجْـر المرسلين » . ما جاء فى معانى « الحجر » والمراد به هنا . استنبط العلماء من هذه الآية ثمـان مسائل : كراهة دخول مساكن الذين ظلموا أنفسهم . ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم. أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن من بئر ثمود الإبل . فى أمره عليه السلام بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمـل الرجل النجاسـة الى كلابه ليأكلوها . الدليل على التبرك بآثار الأنبيـاء والصالحين . ما جاء من النهى عن الصـلاة فى بعض المواضـع . جواز التيمم على مقبرة المشركين اذا كان الموضع طاهرا نظيفا . البستان الذى يلقى فيه النتن والعذرة ليكرم لا يصلى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات ... ... ... ... ... ... ... ٤٥

تفسير قوله تعالى : « وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ... » الآيات . قيـل : إن المراد بالآيات الناقة، بيان ما كان فيها من آيات ... ... ... ... ... ... ... ٥٣

تفسير قوله تعالى : « ولقـد آتيناك سَبْعًا من المَثَـانِي والقرآنَ العظيم » . اختلف العلماء فى السبع المثانى ، هل هى الفاتحة أم غيرها ... ... ... ... ... ... ... ٥٤

تفسير قوله تعالى : « لا تَمُدَّنّ عينيك الى ما متّعنا به أزواجا منهم ... » الآية . سبب نزول الآية . الزجر عن التشوف الى متاع الدنيا على الدوام ... ... ... ... ... ... ٥٦

تفسير قوله تعالى : «وقل إنى أنا النذير المبين. كما أنزلنا على المُقْتَسِمين...» الآيات . اختلف فى « المقتسمين » على أقوال سبعة . ما جاء فى قوله «عِضِين» ... ... ٥٧

صفحة


تفسير قوله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين ... » الآية تدل على محاسبة الجميع وسؤالهم كافرهم ومؤمنهم ؛ إلا من دخل الجنة بغير حساب . سؤال الكافر ومحاسبته ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٩

تفسير قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ... » الآيات . بيان المراد من قوله « فاصدع » . ذكر الخمسة الذين كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب هلاكهم ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٦١

تفسير قوله تعالى : « فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » المراد بالتسبيح هنا الصلاة . الجمهور من العلماء على أن هذه الآية ليست محل سجود ... ... ... ٦٣

تفسير قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » معنى « اليقين » . الفرق بين الرجل يقول لامرأته : أنت طالق أبدا ، أو يقول : طلقتها حياتها... ... ٦٤


## سورة النحل


تفسير قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ... » بيان المراد فى قوله «أمر الله» ٦٥

تفسير قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره ... » الآية . أوجه القراءات فى قوله « ينزل » . اختلاف العلماء فى معنى الروح فى هذه الآية ... ... ... ٦٧

تفسير قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق ... » الآيات . بيان أدلة التوحيد ، الاستدلال بخلق الإنسان وأحواله على وجود الله تعالى ... ... ... ٦٨

تفسير قوله تعالى : «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ...» الآية . فيه ثلاث مسائل : الكلام على الأنعام . معنى الدفء . فى الآية دليل على لباس الصوف ... ... ٦٨

تفسير قوله تعالى : « ولكم فيها جمال ... » الآية . ما فى الأنعام والدواب من الجمال ٧٠

تفسير قوله تعالى : « وتحمل أثقالكم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : المراد من شق الأنفس ، ومعنى الشق . جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها على قدر ما تحتمله ٧١

تفسير قوله تعالى : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها ...» الآية . فيه ثمان مسائل : ما ملكه الإنسان من الحيوان جاز له تسخيره وكراؤه ، وأن الكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم . الإجماع على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما اشترط أو أخف منه فتلفت أن لا ضمان عليه .

صفحة

اختلافهم فى الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم الى موضع مسمًّى، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع الى المكان المأذون له فى المصير اليه . اختلافهم فى جواز أكل لحوم الخيل . بيان أن البغال تلحق بالحمير فى الحرمة . الدليل على أن الخيل لا زكاة فيها . قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإبل عزٌّ لأهلها والغنم بركة والخيل معقود فى نواصيها الخير" . الكلام على قوله « و يخلق ما لا تعلمون » ٧٣

تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قَصْدُ السبيل ... » الآية . بيان المراد بقصد السبيل ٨١

تفسير قوله تعالى : «هو الذى أنزل من السماء ماء لكم ...» الآيات . معنى السوم . فى هذه الآيات دليل على قدرة الله ووحدانيته ... ... ... ... ... ... ... ... ٨٢

تفسير قوله تعالى : «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طَرِيًّا ...» الاية . فيه تسع مسائل : الكلام على تسخير البحر، اختلاف العلماء فى السمك هل يسمى لحما . بيان أن اللحوم أصناف مختلفة لا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا . المشهور أن الجراد يجوز بيع بعضه ببعض متفاضلا . اختلف فيمن حلف ألا يأكل لحما . المراد بحلية البحر . لا حُرمة على الرجال والنساء فيما يخرج من البحر . الكلام على لبس الذهب والحرير للرجال، والتختُّم بخاتم الفضة والتحلّى به . من حلف ألا يلبس حليا فلبس لؤلؤا لم يحنث . معنى المَخْر ... ... ... ٨٥

تفسير قوله تعالى : « وألْقَى فى الأرض رواسِىَ أن تَمِيد بكم ... » الآية . فى الآية دليل على استعمال الأسباب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٠

تفسير قوله تعالى : « وعلاماتٍ و بالنَّجْم هم يهتدون » بيان أن العلامات هى معالم الطرق بالنهار . اختلاف فى النجوم الذى يقع بها الاهتداء . حكم استقبال القبلة ٩١

تفسير قوله تعالى : « أفمن يَخْلُق كمن لا يخلق ... » الآيات . بيان أن الله تعالى هو الأحق بالعبادة لأنه هو الخالق للأشياء . بيان أن الآيات تبكيت للكفار ٩٣

تفسير قوله تعالى : « إلهكم إله واحد ... » الآيات . بيان أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم لا تقبل الوعظ . بيان أن الكبر فِسْق وهو أصل العصيان ... ٩٤

تفسير قوله تعالى : « و إذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ... » الآية . دعوى المشركين أن ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو من الأباطيل والتُّرهات ٩٥

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ... » الآية . بيان أن دعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٦

تفسير قوله تعالى : « قد مَكَرَ الذين من قبلهم... » الآية . بيان قصة النمرود بن كنعان وبنائه الصرح وكيف سقط عليهم ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٧

تفسير قوله تعالى : « ثم يوم القيامة يخزيهم ... » الآيات . بيان ما يلقاه المشركون يوم القيامة من الهوان ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٨

تفسير قوله تعالى : « وقيل للذين اتَّقَوْا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ... » الآيات ... ١٠٠

تفسير قوله تعالى : «وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم لا يبعث الله من يموت...»الآيات . الكلام على إنكار الكفار للبعث ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . فى الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله تعالى مريد لجميع الحوادث خيرها وشرها... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٠٦

تفسير قوله تعالى : «والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظُلِموا...» الآيات . اختلاف العلماء فى سبب نزول هذه الآيات . واختلافهم أيضا فى الحسنة المرادة فى الآية ١٠٦

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نُوحى إليهم ... » الآيات . الرد على مشركى مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن الرسول عليه السلام مبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه . الكلام على وعيد المشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام ، ومعنى أخذهم على تَخَوُّف... ... ... ١٠٨

تفسير قوله تعالى : « ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض ... » الآيات . بيان أن كل ما فى السموات والأرض يسجد لله تعالى ... ... ... ... ... ... ١١٢

تفسير قوله تعالى : « وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين ... » الآيات . النهى عن اتخاذ آلهة غير الله . بيان أن الطاعة لا تكون إلا لله ... ... ... ... ... ... ... ١١٣

تفسير قوله تعالى : « ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ... » الآيات . ذكر قبائح المشركين من جعلهم لآلهتهم نصيبا من أموالهم يتقربون بها إليهم ، ومن زعمهم أن الملائكة بنات الله... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١١٥

صفحة


تفسير قوله تعالى : « وإذا بُشّر أحدُهم بالأنثى ظلّ وجهه مُسْوَدًّا ... » الآيات .
بيان بغض العرب فى الجاهلية للبنات، وما كانوا يفعلونه من دفن البنت حية .
بيان أن البنات بليّة، وأن فى الصبر عليهن والإحسان اليهن ما يقى من النار ... ١١٦

تفسير قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله النّاس بظلمهم ... » الآيات . بيان أن الله
تعالى لو آخذ الخلق بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة من نبيّ ولا غيره... ... ١١٩

تفسير قوله تعالى : « تاللهِ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ... » الآيات . تسلية النبيّ
صلى الله عليه وسلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم ... ... ... ١٢١

تفسير قوله تعالى : « وإن لكم فى الأنعام لَعِبْرةً ... » الآية . فيه عشر مسائل :
بيان المراد بالأنعام وما فيها من العبرة . الاختلاف فى الضمير من قوله « مما
فى بطونه » على ماذا يعود . استنبط بعض العلماء من عود هذا الضمير أن لبن
الفحل يفيد التحريم . الكلام على تحويل اللبن من الدم . الدليل على أن المَنِيّ
ليس بنجس . الدليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، وأن لبن الميتة
لايجوز الانتفاع به، وعلى استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها... ... ... ١٢٢

تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب ... » الآية . فيه مسألتان : بيان
أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر . بيان معنى السكر . أقوال من ذهب من
العلماء إلى جواز شرب ما دون السكر من النبيذ... ... ... ... ... ... ... ... ١٢٧

تفسير قوله تعالى : « وأوْحَى ربُّك إلى النحل ... » الآية . فيه ثلاث مسائل :
بيان أن الوحى قد يكون بمعنى الإلهام . لم سمى النحل نحلا . الكلام على بيوت
النحل ، وأن الله تعالى ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدّسة ... ... ... ... ... ... ١٣٣

تفسير قوله تعالى : « ثم كُلِى من كلّ الثمرات ... » الآية . فيه تسع مسائل : الجمهور
من الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل . اختلف فى الضمير من قوله
« فيه شفاء للناس » هل هو راجع للعسل أو القرآن . الرد على من زعم أن هذه
الآية يراد بها أهل البيت . اختلف فى شفاء العسل للناس هل يقتضى العموم فى كل
علة وفى كل إنسان أم على الخصوص . الدليل على جواز التعالج بشرب الدواء
وغيره ، والرد على الصوفية الذين لايجوّزون المداواة . الاختلاف فى زكاة العسل ١٣٤

صفحة

تفسير قوله تعالى : « واللهُ خلقكم ثم يتوفّاكم ... » الآية . بيان الاحتجاج على منكرى البعث بحالة الإنسان وتطوراته ... ... ... ... ... ... ... ... .. ١٤٠

تفسير قوله تعالى : «واللهُ فضّل بعضكم على بعض فى الرزق ...»الاية . بيان أن هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لعبدة الأصنام ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٤١

تفسير قوله تعالى : « واللهُ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ... » الآية . فيه خمس مسائل : بيان أن الولد يتبع أمّه فى الرق والحرية . معنى الحَفَدة . ما جاء فى خدمة الزوجة فى بيت زوجها ، وأن الرجل يخدم زوجته فيما خف من الخدمة ويُعينها ، وعليه أن ينفق على خادمة واحدة ، وقيل على قدر الثروة والمنزلة ١٤٢

تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا ... » الاية . بيان أن الله تعالى ضرب هذه الآية مثلا يبيّن ضلالة المشركين ، وأنه لا تساوى بينه وبين الأصنام . ذكر ما جاء فى نقصان رتبة العبد عن الحُرّ فى المالكية وأنه لا يَمْلك . بيان أن طلاق العبد بيد سيده . بيان أن الرزق ما وقع الاغتذاء به ... ... ... ١٤٦

تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا رجلَيْن أحدُهما أَبْكَمُ ... » الآية . اختلاف فى الأبكم والذى يأمر بالعدل ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٤٩

تفسير قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة ... » الآيات . معنى إتيان الساعة كلمح البصر ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٠

تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سَكَنًا ... » الآية . فيه عشر مسائل : تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت . جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار . بيان أن صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به ، واختلف فى القرن والسن والعظم ، وطهارة جلد الميتة إذا دبغ . الكلام على جلد الخنزير والكلب وما لا يؤكل لحمه . اختلف فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٢

تفسير قوله تعالى : « والله جعل لكم مما خلق ظِلَالًا ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الله تعالى جعل للناس فى الجبال مأوى يتحصنون به ويعتزلون عن الخلق فيه . الدليل على اتخاذ العباد عُدّةَ الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء... ... ١٥٩

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فإن تولّوْا فانما عليك البلاغ ... » الآيات . بيان أن إعراض المشركين عن الإسلام لم يكن لعدم معرفتهم نعمة الله بل كانوا يعرفونها ثم ينكرونها ، وفى معرفتهم وانكارهم ثمانية أقوال ... ... ... ... ... ... ... ١٦١

تفسير قوله تعالى : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ... » الآيات . بيان أن المشركين يتبعون يوم القيامة أصنامهم التى عبدوها ، وستنطق تلك الآلهة بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة . زيادة العذاب على المشركين يوم القيامة ١٦٣

تفسير قوله تعالى : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم ... » الاية. بيان أن لكل أمة شهيدا عليها يوم القيامة وان لم يكن نبيًّا ... ... ... ... ... ... ... ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ...» الآية . فيه ست مسائل : هذه الآية هى أجمع آية فى القرآن لخير يُمتثل ولشر يُجتنب . الاختلاف فى تأويل العدل والاحسان . إعطاء ذى القربى . معنى الفحشاء والمنكر والبَغْى... ... ... ١٦٥

تفسير قوله تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أنه يجب الوفاء بجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة فيما يوافق الدِّين . اختلف فى سبب نزول هذه الآية . الكلام على حِلْف الفضول . النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، وما معنى التوكيد ١٦٩

تفسير قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضتْ غزْلها ... » الآية . المقصود من الآية النهى عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم ... ... ... ... ١٧١

تفسير قوله تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلًا بينكم ... » الآية . النهى عن عَقْد الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد ... .. ... ... ... ... ... ... ... ١٧٢

تفسير قوله تعالى : « ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ... » الآيات . التحذير عن الرُّشَا وأخذ الأموال على نقض العهد ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧٣

تفسير قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ... » الآية . ذكر أقوال العلماء فى معنى الحياة الطيبة... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧٤

تفسير قوله تعالى : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... » الآية . بيان أن الاستعاذة تكون قبل قراءة القرآن لا بعده ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧٤

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ... » الايات . بيان أن الشيطان لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين ، إنما سلطانه على الكافرين ... ... ١٧٥

تفسير قوله تعالى : « و إذا بَدّلنا آيةً مكان آية والله أعلم بما ينزل ... » الآيات . الكلام على أن الله تعالى شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض ... ... ... ... ١٧٦

تفسير قوله تعالى : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بَشَرٌ ... » الآيات . بيان دعوى المشركين أن النبيّ صلوات الله عليه إنما يعلمه بشر ، اختلاف العلماء فى اسمه . الكلام على العجمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٧٧

تفسير قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه ... » الآية . فيه إحدى وعشرون مسألة : بيان أن من ارتد بعد إيمانه فعليه غضب . من هم المرتدون . الكلام على من أكرهه المشركون على الكفر . سمح الله تعالى بالكفر به عند الإكراه . حكم من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل . بيان أن الرخصة إنما جاءت فى القول دون الفعل . إجماع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الاقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره . اختلافهم فى الإكراه على الزنى . الكلام على طلاق المكره وعتاقه و بيعه ونكاحه . هل تحدّ المرأة إذا ٱستُكرهت على الزنى . اختلافهم فى وجوب الصداق للمستكرهة . إذا أكره الانسان على إسلام أهله لما لا يحل أسلمها ولم يقتل نفسه دونها . الكلام على يمين المكره . إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجرى على لسانه إلا مجرى المعاريض . أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل انه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة ، واختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحل له . واختلفوا أيضا فى حدّ الإكراه ... ... ... ... ... ... ... ١٨٠

تفسير قوله : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ... » الآية ... ... ... ١٩٢

تفسير قوله تعالى : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ... » الآية . الكلام على مخاصمة الروح للجسد يوم القيامة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٩٣

تفسير قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ... » الآية . بيان أن هذه الآية متصلة بذكر المشركين فى الايات السابقة ، وهى ضرب مَثَل لهم ١٩٣

صفحة

تفسير قوله تعالى : «فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ... » الايات ... ... ... ... ١٩٥

تفسير قوله تعالى : « ولا تقولوا لما تَصِف ألسنتكم الْكَذِبَ ... » الآيات . فيه مسألتان : الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا مافى بطون الأنعام وإن كانت ميتة . التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ... ... ... ١٩٥

تفســير قوله تعالى : « وعلى الذين هادوا حرّمنا ما قصصنا عليك من قبل ... » بيّن الله تعالى أن الأنعام والحرث حلال لهذه الأمة أما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء ١٩٧

تفسير قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتا لله حَنِيفًا ... » الايات . بيـان أن الرسول عليه السلام دعا مشركى العرب إلى ملة إبراهيم ... ... ... ... ... ... ١٩٧

تفســير قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن آتبع ملة إبراهيم حنيفا ... » أمر الله نبيه عليـه السلام باتبـاع ملة إبراهيم فى عقائد الشرع دون الفرع . جواز اتبـاع الأفضل للفضول... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٩٨

تفسير قوله تعالى : « انما جُعِل السبت على الذين آختلفوا فيـه ... » جُعِـل السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمال بسبب اختلافهم فى تعظيم يوم الجمعة ، كيفية ماوقع لهم من الاختلاف . بيان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق ، وحذّر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود ... ... ... ١٩٩

تفســير قوله تعالى : « اُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ... » الكلام على أن هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمْرُ النبيّ عليـه السلام أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين ... ... ... ... ... ... ... ٢٠٠

تفســير قوله تعالى : « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ... » الآية : فيـه أربع مسائل : الآية نزلت فى شأن التمثيل بحمزة عمّ النبيّ عليه السلام يوم أُحُد . وقيل نزلت فيمن أصيب بظلامة ألّا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه إلى غيره . اختلف فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه . جواز التماثل فى القصاص ... ... ٢٠٠

تفســير قوله تعالى : « واصبروما صبرك إلا بالله ... » الايات ... ... ... ... ... ٢٠٢

صفحة

## سورة الإسراء


تفسير قوله تعالى : « سبحان الذى أسْرَى بعبده ليلا ...» الآية . فيه ثمان مسائل : الكلام على معنى « سبحان » و « أسرى » . تشريف النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعبودية . أقوال العلماء فى حديث الإسراء . اختلافهم فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة ، وهل كان إسراء بالروح أو الجسد . معنى بركة المسجد الأقصى . بيان ماراه النبيّ صلى الله عليه وسلم من الآيات ليلة مَسْراه ... ... ... ... ٢٠٤

تفسير قوله تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هُدًى ... » الآيات ... ... ... ٢١٢

تفسير قوله تعالى : « فاذا جاء وَعْد أولاهما ...» الآيات . أقوال العلماء فى الإفساد الذى وقع من بنى إسرائيل وعقابهم عليه . ردّ الكَرّة لبنى إسرائيل على أعدائهم . قتل يحيي بن زكريا عليهما السلام وما وقع بسبب القتل لبنى إسرائيل ... ... ٢١٥

تفسير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يَهْدِى للتى هى أقْوم ... » الايات . بيان أن القرآن يهدى لأقوم الطرق وهو الإيمان والتوحيد ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « ويَدْعُ الإنسان بالشّر دعاءه بالخير ... » الآية . النهى عن دعاء الرجل على نفسه وولده . بيان أن طَبْع الإنسان العجلة ، فيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . بيان أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل دعاءه على من لا يستحق من المؤمنين رحمةً وكفارة له ... ... ... ... ... ... ٢٢٥

تفسير قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين ... » الآية . جعل الله الليل والنهار علامتين على وحدانيته وكمال قدرته . الكلام على الآيتين ، وعلى محو آية الليل . الحكمة فى جعل آية النهار مبصرة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٢٧

تفسير قوله تعالى : « وكلَّ إنسان ألزمناه طائرَه فى عنقه ... » الآيات . أقوال العلماء فى معنى طائر الإنسان ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٢٩

تفسير قوله تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ... » الآية . بيان أن كل مكلف ملزم بعمله ، ولا تؤخذ نفس بإثم أخرى . أقوال العلماء فى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . الكلام على قوله « وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا » هل هذا فى حكم الدنيا وأن الله لايهلك أمة بعذاب إلا بعد الإنذار ، أو هو عام فى الدنيا والآخرة . الدليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ... ... ... ٢٣٠

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أن الذنوب سبب فى هلاك الأمم ، وأن المعاصى إذا ظهرت ولم تغيَّر كانت سببا فى هلاك الجميع . معنى « أمَرْنا » ... ... ... ... ٢٣٢

تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العاجلة ... » الآيات . الكلام على صفة المنافق الذى يلبس الإسلام والطاعة لينال عاجل الدنيا . بيان أن من عمل للآخرة وأخلص فى عمله قبل منه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٣٥

تفسير قوله تعالى : « كُلًّا نُمِدّ هؤلاء وهولاء ... » الآيات . بيان أن الله تعالى يرزق المؤمنين والكافرين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « وقَضَى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ... » الآيات . فيه ست عشرة مسألة . بيان أن القضاء يستعمل فى اللغة على وجوه . جعل الله تعالى برّ الوالدين مقرونا بعبادته وتوحيده ، وأن من البرّ بهما ألا يتعرض الانسان لسبّهما ولا يعقّهما . بيان أن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما . قول العلماء فى أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع . لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين . النهى عن الخروج للجهاد بغير إذن الأبوين اذا لم يتعين الجهاد . اختلفوا فى الوالدين المشركين هل يخرج باذنهما اذا كان الجهاد من فروض الكفاية . من تمام بر الوالدين صلة أهل ودّهما . ألزم الله مراعاة أحوالهما فى حالة الكبر أكثر مما ألزمه من قبل ، وألا يقل لهما ما يكون فيه أدنى تبَرُّم وأن يجعل نفسه مع أبويه فى خير ذلة . ما فى قوله «أُفّ» من اللغات . الخطاب فى هذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته . الكلام على الترحم والاستغفار للأبوين ٢٣٦

تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بما فى نفوسكم ... » الآية ... ... ... ... ... ٢٤٦

تفسير قوله تعالى : « وآتِ ذا القُرْبَى حقَّه والمسكين... » الآيات . الأمر بإيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل . النهى عن التبذير فى الأموال . بيان حدّ التبذير ٢٤٧

تفسير قوله تعالى : « وإمّا تُعْرِضنّ عنهم ٱبتغاءَ رحمةٍ من ربك ... » الآية ... ... ٢٤٨

تفسير قوله تعالى : «ولا تجعل يدك مغلولةً الى عنقك ...» الآية . فيه أربع مسائل : بيان أن هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لايقدر من قلبه على إخراج شىء من ماله .

صفحة

النهى عن الإفراط فى الإنفاق . بيان أن هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، علمه الله كيفية الانفاق وأمره بالاقتصاد ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٤٩

تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خَشْيَةَ إملاق ... » الآية . الكلام على معنى الإملاق والخِطْء... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٥٢

تفسير قوله تعالى : « ولا تقربوا الزنى ... » الآية . تحريم الزنى وأنه من الكبائر ... ٢٥٣

تفسير قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ... » الآيات . بيان أنه تعالى قد جعل لولىّ المقتول ظلما سلطانا . اختلف العلماء فى الوَلِىّ وفى معنى سلطانا . فى قوله « فلا يسرف فى القتل » ثلاثة أقوال ... ... ... ... ... ... ٢٥٤

تفسير قوله تعالى : «وأَوْفُوا الكيل إذا كِلْتم ...» الآية . الأمر بإيفاء الكيل والعدل فى الميزان . بيان أن هذه الآية تقتضى أن الكيل على البائع ... ... ... ... ... ٢٥٦

تفسير قوله تعالى : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ... » الآية . فيه ست مسائل : النهى عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك . بيان أن هذه الآية تضمنت الحكم بالقافة أسامة بن زيد والقَدْح فى نسبه وحكم مُجَزِّز القائف فيه . استدل جمهور العلماء بسرور النبيّ صلى الله عليه وسلم بقول مُجَزِّز على الرجوع الى القافة عند التنازع فى الولد . اختلف الآخذون بأقوال القافة؛ هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء . وهل يكتفى بقول واحد من القافة أو لا بد من اثنين لأنها شهادة . بيان أن الله سبحانه يسأل كل عضو من أعضاء الانسان عما اكتسب . وقيل : يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده... ٢٥٧

تفسير قوله تعالى : « ولا تَمْشِ فى الأرض مَرَحًا ... » الآيات . فيه خمس مسائل : بيان أن الله تعالى نهى عن الخيلاء وأمر بالتواضع . إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تَرَفُّعًا دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية . المراد بخرق الأرض نَقْبُها لا قطعها بالمسافة . استدل العلماء بهذه الآية على ذَمّ الرقص وتعاطيه ... ٢٦٠

تفسير قوله تعالى : « ذلك مما أوحَى إليك ربّك ... » الاية . بيان أن الإشارة إلى هذه الاداب والقصص والأحكام التى تضمنتها الآيات المتقدمة . الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد كل من سمع الآية من البشر... ... ... ... ٢٦٤

صفحة

تفسير قوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين ... » الآية . الرد على القائلين بأن الملائكة بنات الله ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٦٤
تفسير قوله تعالى : «ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذّكروا ... » الآية . لم يجعل الله القرآن نوعا واحدا ، بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٦٤
تفسير قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ... » الآيات . الرد على عُبّاد الأصنام فى اعتقادهم أن الأصنام تقربهم الى الله زُلفى ... ... ... ... ... ... ... ٢٦٥
تفسير قوله تعالى : « تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ... » الآية . كل شيء من الجماد وغيره يسبح لله . اختلف فى هذا التسبيح هل هو تسبيح الدلالة أو تسبيح الحقيقة . الكلام على غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور . ٢٦٦
تفسير قوله تعالى : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ القرآن ، فحجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن ، وكانوا يمرون به ولا يرونه ... ... ... ٢٦٩
تفسير قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به ... » الآية . ادّعاء المشركين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ساحر ومجنون ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٧٢
تفسير قوله تعالى : «وقالوا أئذا كنا عظاما ورُفاتا ...» الآية . جحد المشركين للبعث وإنكاره ٢٧٣
تفسير قوله تعالى : « قل كونوا حجارة أو حديدا ... » الآيات . الرد على المشركين فى إنكارهم البعث . معنى النّغض . الدعاء الى المحشر وخروج أهل القبور . ٢٧٤
تفسير قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ... » الآية . اختلاف العلماء فى سبب نزول الآية . بيان نزغ الشيطان وإغوائه للإنسان ... ... ... ٢٧٦
تفسير قوله تعالى : « ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم ... » الآيات . اختلف فى هذا الخطاب هل هو للشركين أو للؤمنين . محاجة اليهود فى إنكارهم القرآن . الزبور كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ، بل مجرّد تمجيد ودعاء ... ... ... ٢٧٨
تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ... » الآية . بيان أن من عبدهم المشركون يطلبون من الله القربى ويتضرعون اليه فى طلب الجنة . ٢٧٩

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وإن من قرية إلا نحن مُهْلِكُوها ... » الاية. اذا ظهر الزنى والربا فى قرية أذن الله فى هلاكهم ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ... » الآية . الحكمة فى عدم إجابة المشركين الى ما اقترحوه من الآيات . وما هى « الآيات » ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « واذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ... » الآية . معنى هذه الإحاطة . أقوال العلماء فى الرؤيا التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت فتنة للناس . الكلام على الشجرة الملعونة . بيان خبر ابن إسحاق عن مَسْرَى الرسول صلوات الله عليه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨١

تفسير قوله تعالى : «وإذ قلنا للملائكة آسجدوا لادم ...» الآيات . قصة إبليس حين عصى وأبى السجود . وعيد إبليس ومن تبعه ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٦

تفسير قوله تعالى : « وآسْتَفْزِزْ من آستطعتَ منهم بصوتك ... » الآية . فيه ست مسائل : بيان أن الأمر أمر تعجيز . وان المراد بصوت إبليس كل داع يدعو الى معصية الله تعالى . معنى استفزازه للعباد ومشاركته فى الأموال والأولاد . الدليل على تحريم المزامير والغناء واللهو... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « ربكم الذى يُزْجِى لكم الفلك فى البحر » الآية . بيان أن الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « وإذا مسّكم الضرّ فى البحر ... » الآية . بيان أن الآية تحقير لمن يدعى إلٰها من دون الله ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « فأمنتم أن يَخْسِف بكم ... » الآيات . بيان معنى الخَسْف والحاصب والقاصف ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩١

تفسير قوله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم .. » الآية . ذكر ما آمتن الله تعالى به على بنى آدم . تفضيل الملائكة على الإنس والجن . الكلام على تناول الطيبات من الرزق ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٣

تفسير قوله تعالى : «يوم ندعوا كلّ أناس بإمامهم...» . المعنى المراد من إمام كل أُمّة. ٢٩٦

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الاخرة أعمى ... » ... ... ... ٢٩٨

تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك ... » الآية . ٢٩٩

تفسير قوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم ... » بيان أن هذا تعريف للامة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شيء من أحكام لدين .

الكلام على أنه كلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم ... ... ٣٠٠

تفسير قوله تعالى : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ... » الآية . بيان أن الآية نزلت فى أهل مكة لما هموا بإخراج الرسول عليه السلام من المدينة . ٣٠١

تفسير قوله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس ... » الاية . فيه سبع مسائل : أمر الله نبيه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وأن هذه الاية إشارة إلى الصلوات المفروضة . معنى الدلوك ومعنى الغسق . اختلف فى آخر وقت المغرب . المراد بقرآن الفجر صلاة الصبح . اختلاف العلماء فى القراءة فى الصلاة .

فضل التبكير بصلاة الصبح ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٠٢

تفسير قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ... » الآية . فيه ست مسائل : معنى التهجد . تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمته . اختلافهم فى المقام المحمود . الكلام على شفاعات النبي عليه السلام . القول فى كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٠٧

تفسير قوله تعالى : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق ... » الآية . معنى الإدخال والإخراج فى هذه الآية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣١٢

تفسير قوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل ... » الآية . فيه ثلاث مسائل : بيان أنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما وقد كسرها النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة عام الفتح . فى الآية دليل على كسر نصب المشركين وكسر آلة الباطل ومالا يصلح إلا لمعصية الله تعالى، كالطنابير والعيدان والمزامير ... ٣١٣

تفسير قوله تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ... » الآية . فيه سبع مسائل : القول فى كون القرآن شفاء . ما جاء فى التداوى بالقرآن . اختلف العلماء فى النشرة ، وهى أن تكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم تغسله بالماء

صفحة

وتمسح به المريض أو تسقيه . تعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق
المرضى على وجه التبرك بها . ما جعله الله تعالى من الرحمة في القرآن وفضل تلاوته . ٣١٥
تفسير قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعْرض ونأى بجانبه ... » الآية . ٣٢١
تفسير قوله تعالى : « قل كُلٌّ يعمل على شاكلته ... » الآية . الكلام على أن كل
واحد يعمل على ما يشا كل أصله وأخلاقه التي ألفها ... ... ... ... ... ... ٣٢١
تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ... » الآية . سؤال اليهود للنبي صلى الله
عليه وسلم عن الروح ، الاختلاف فيه . معنى قوله «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» . ٣٢٣
تفسير قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك ... » الآيات . بيان
أن أول ما يفقد من أمر الدين الأمانة ، وآخر ما يفقد الصلاة ، وأن القرآن
يسرى في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب وتصبح الناس كالبهائم . ٣٢٥
تفسير قوله تعالى : «قل لئن آجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ...»
الآية . الرّد على الكفار في قولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ... ... ... ... ... ... ٣٢٦
تفسير قوله تعالى : « ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن ... » الآية . بيان أن الله
تعالى وجه القول في القرآن بكل مَثَل يجب به الاعتبار من الآيات والعبر والأوامر
والنواهي وأقاصيص الأولين ، وقد تبيّن الحق للمشركين فأبَوْا إلا الكفر ... ... ٣٢٧
تفسير قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... »
الايات . بيان أن الآية نزلت في رؤساء قريش وبيان ما آقترحوه على النبيّ
عليه السلام ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٢٧
تفسير قوله تعالى : « وما مَنَع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى ... » الآيات .
الكلام على معاندة المشركين وقولهم : إن الله أجلّ من أن يكون رسوله من
البشر . بيان الحكمة في عدم إرسال الملائكة رسلا ... ... ... ... ... ... ... ٣٣٢
تفسير قوله تعالى : « ومن يَهْد الله فهو المُهْتَدى » الايات . الكلام على حشر
الكفار يوم القيامة ، والرد عليهم في إنكارهم البعث ... ... ... ... ... ... ٣٣٣
تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آياتٍ بيّنات ... » الآيات . اختلاف
العلماء في تعيين التسع آيات التي أوتيها موسى عليه السلام . قصة موسى مع
فرعون . الكلام على معنى « مثبورا » ... ... ... ... ... ... ... ٣٣٥

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وقرآنا فَرَقناه لتقرأه على الناس على مُكث ... » الآية . اختلف العلماء فى المدّة التى نزل فيها القرآن . واختلافهم فى معنى « على مُكْث » ... ٣٣٩

تفسير قوله تعالى : « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ... » الآية . قول العلماء فى المعنى المراد من قوله « إن الذين أوتوا العلم من قبله » ... ... ... ... ... ... ... ٣٤٠

تفسير قوله تعالى : « ويقولون سبحانَ رَبّنا ... » الآية . فى الاية دليل على جواز التسبيح فى السجود ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « ويَخِرّون للأذقان يَبْكُون ... » الآية . فيه أربع مسائل : شأن العالم أن يخشع عند استماع القرآن ويخضع له . جواز البكاء فى الصلاة من خوف الله تعالى أو على معصيته فى دين الله . اختلف فى الأنين فى الصلاة ... ٣٤١

تفسير قوله تعالى : « قل آدعوا الله أو آدعوا الرحمن ... » الآية . سبب نزول هذه الاية . معنى قوله « ولا تجهر بصلاتك ولا تُخافِت بها » . المراد بالصلاة هنا القراءة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٤٢

تفسير قوله تعالى : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ... » الآية . الرد على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم : عزير وعيسى والملائكة ذرّية الله سبحانه . بيان فضل هذه الآية وأنها خاتمة التوراة ... ... ... ... ... ... ... ٣٤٤

## سورة الكهف

الكلام على فضائل سورة الكهف ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ... » الآيات . خبر قريش وأحبار اليهود مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسؤاله عن حديث الفِتْية، وعن نبإ رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ماهى . قوله عليه السلام لهم « أخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله، وتأخر الوحى عنه ... ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « وينذر الذين قالوا آتخذ الله ولدا ... » الآيات . بيان أن اليهود والنصارى وقريشا نسبوا لله ماليس لهم به من علم . نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الحزن على من كفر ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٥٣

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها ... » الايات . فيه مسألتان :
بيان ما جعله الله تعالى على الأرض من الزينة، وأقوال العلماء فى الزينة المرادة . جعل الله الدنيا مستطابة فى ذوقها، وابتلى الله بها عباده لينظر أيهم أحسن عملا . بيان أن حسن العمل أخذَ بحقّ و إنفاقٌ فى حق مع الإيمان وأداء الفرائض واجتناب المحارم . أقوال العلماء فى الزهد ... ... ... ... ... ... ٣٥٣

تفسير قوله تعالى : «أم حَسِبْتَ أن أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عَجَبًا ... »
الآية خطاب للنبيّ عليه السلام، و بيان أن ما عظمه عليك السائلون من الكفرة عن الفِتْية وعن ذى القَرْنين وعن الروح ليس بأعجب من آيات الله ، بل خَلْقُ السموات والأرض، أو شأنك فى الإسراء أعجب من خبرهم . معنى الكهف والرقيم ٣٥٦

تفسير قوله تعالى : « إذ أوَى الفِتْيَةُ إلى الكهف ... » الآيات . حديث الفتية وفى أى زمن كانوا . بيان أن الآية صريحة فى الفرار بالدِّين وهجرة الأهل والأوطان والأموال خوف الفتنة . الكلام على العزلة . إلقاء النوم على الفتية و بعثهم . الاختلاف فى الحزبين . بيان أنهم كانوا شبابا وأحداثا حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة . قول أهل اللغة فى الفتوة ... ... .. ... ... ... ... ٣٥٨

تفسير قوله تعالى : «ورَبَطْنا على قلوبهم إذ قاموا ...» الآية . إيمان الفِتْية بالله تعالى، وماحباهم به من عزم وقوة صبر . بيان أن الصوفية تعلّقت فى أفعالها بهذه الآية والرد عليهم . تنديد الفتية بأهل عصرهم فى عبادتهم الأصنام تقليدا من غير حجة... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٦٥

تفسير قوله تعالى : « و إذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ... » الآية ... ... ... ... ٣٦٧

تفسير قوله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ... » الآيات .
بيان أن الله تعالى حفظ أصحاب الكهف عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان بهم، والتأذّى بحر أو برد . تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الأرض لحومهم . الكلام على كلبهم والاختلاف فى اسمه، وهل كان كلبا حقيقة أم أحدهم . اقتناء الكلاب والقول فيه . من أحب أهل الخير نال من بركتهم . معنى الوصيد .
بيان أنه لا يجسر أحد على الدنوّ من أصحاب الكهف ... ... ... ... ٣٦٨

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ... » الايات . بيــان أن الله تعالى أيقظ أصحاب الكهف من نومهم على ما كانوا عليه من هيأتهم فى ثيابهم وأحوالهم . بَعَثَ أصحاب الكهف أحدَهم ليأتى لهم بالطعام . فى هذه البعثة دليل على الوكالة وصحتها ، وهى جائزة فى كل حق تجوز النيابة فيه . بيان أن الاية تضمنت جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم ، جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا . ٣٧٤

تفســير قوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهـم ليعلموا أن وعد الله حق ... » الآية . اختلاف أهل بلدة الفتية فى الحشر و بعث الأجساد من القبور . بيان أن إيقاظهم كان دليلا على أن القيامة حق والبعث حق . الكلام على أنهم لما ماتوا ميتة الحق اختلف فيما يبنى عليهم ليكون مَعْلَمًا لهم . النهى عن اتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها . القول فى تجصيص القبور والكتابة عليها وارتفاعها والنهى عنه . الكلام على الدفن فى التابوت واللَّحْد ... ... ... ... ... ... ... ٣٧٨

تفسير قوله تعالى : « ســيقولون ثلاثة رابعهـم كلبهم ... » الآية . الكلام على عدة أصحاب الكهف والاختلاف فيه . كلام النحو يين على واو العطف هنا . فى الاية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شيء من العلم ... ... ... ٣٨٢

تفسير قوله تعالى : « ولا تقولنّ لشئ إنى فاعل ذلك غدا ... » الايات . معاتبـة النبيّ صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار : غدا أخبركم ، ولم يقل إن شاء الله . الكلام على الاستثناء فى هذه الآية . اختلف فى الذكر المأمور به ... ... ... ٣٨٤

تفسير قوله تعالى : « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين ... » الآيات . بيان مدة لبث أصحاب الكهف فى كهفهم . هـل ماتوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ... ٣٨٦

تفسير قوله تعالى : « واتل ما أُوحِى إليك ... » الآية . تمـام قصة أصحاب الكهف ٣٨٩

تفسير قوله تعالى : « واصْـبِرْ نفسَك مع الذين يدْعون ربهم ... » الآية . ما اقترحه بعض المؤلفة قلوبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من إبعاد فقراء المسلمين من مجلسه وتقريب صناديد أهل مكة . نهيه عن إطاعتهم ... ... ... ... ... ٣٩٠

تفسير قوله تعالى : « وقل الحـق من ربكم فمن شاء فليؤمن ... » الآية . بيان أن هذا ليس بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، و إنمـا هو وعيد لمن غفل قلبه عن ذكر الله . بيان ما أعده الله للظالمين من العذاب والهوان . معنى السُّرادِق ٣٩٢

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع ... » الآيات .
بيان ما أعده الله للؤمنين من النعيم والثواب . الكلام على لبس أهل الجنة ... ٣٩٥
تفسير قوله تعالى : « وآضرب لهم مثلاً رجلين ... » الآيات . بيان أن هـذا مثل
لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف من مجالسة المؤمنين . الاختلاف فى اسم هذين الرجلين
وتعيينهما . قصة الرجلين وما كان من شأنهما . كلام النحاة فى لفظ كلتا وكلا ٣٩٨
تفسير قوله تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ... » الآيات . بيان
أن هـذا توبيخ ووصية من الأخ المؤمن للكافر وردّ عليـه . بيـان أنه ينبغى
لكل من دخل منزله أن يقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . فضل « لاحول
ولا قوة إلا بالله » . الكلام على المعنى اللغوى لمفردات هـذه الآيات ... ... ٤٠٦
تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن الله تعالى
شبه حالة الدنيا بالمـاء الذى ينزل من السماء فلا يستقر فى موضع ... ... ... ٤١٢
تفسير قوله تعالى : « المـال والبنون زينة الحياة الدنيا ... » الآية . بيان أن ما كان
من زينـة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى . الكلام على معنى « الباقيات
الصالحـات » ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٤١٣
تفسير قوله تعـالى : « و يوم نسير الجبال ... » الآية ... ... ... ... ... ... ٤١٦
تفسير قوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفًّا ... » الاية . بيان أن هذا خطاب
لمنكرى البعث . كيفيـة العرض يوم القيامة ... ... ... ... ... ... ... ٤١٧
تفسير قوله تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين ... » الآية . الكلام على الآخرة . ٤١٨
تفسير قوله تعالى : « و إذ قلنا للملائكة اسجدوا ... » الآية . توبيخ الكفرة على اتخاذهم
إبليس وذريته أولياء . الكلام على ذريته . بيان أسمائهم وأعمالهم ... ... ٤١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

تقدّم معناه [(١)] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ (٢)

«رُبّ» لا تدخل على الفعل، فاذا لحقتها «ما» هيأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون «ما» نكرة بمعنى شيء، و«يودّ» صفة له ؛ أى رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « ربما » مخفف الباء . الباقون مشدّدة، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبَما ضربةٍ بسيف صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء [(٢)]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رَبَّما ورَبما، ورُبَّتَما ورُبَتَما، بتخفيف الباء وتشديدها أيضا [(٣)] . وأصلها أن تستعمل فى القليل وقد تستعمل فى الكثير؛ أى يودّ الكفار فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع ج ٨ ص ٣٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . وبصرى : بلدة قرب الشام، هى كرسى حوران، كان يقوم فيها سوق للجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح اضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدّد من الأمكنة ؛ أى بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسينى فى حماسته : «دون بصرى» ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العينى : بمعنى عند» . راجع الخزانة فى الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة . (٣) قال ابن هشام فى المغنى : «وفى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث، ساكنة أو محركة، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا ربّما أهدت لك العـين نظرةً * قُصاراك منها أنها عنك لا تُجـدى[(١)]

وقال بعضهـم : هى للتقليل فى هـذا الموضع ؛ لأنهـم قالوا ذلك فى بعض المواضع لا فى كلها؛ لشَغْلهم بالعذاب، والله أعلم . وقال : « رُبَمَا يَوَدُّ » وهى إنما تكون لما وقع؛ لانه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان . وخرّج الطبرانىّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم و إيمانكم نفعكم فلا يبقى موحِّد إلا أخرجه الله من النار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — رُبَمَا يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة ومأواهم فى النار تمنّوا أنهم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هذا التمنى إنما هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبيّن لهم الهدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعالى : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ذَرْهُم يَأْكُلوا وَيَتَمَتَّعوا﴾ تهديد لهم . ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ أى يشغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أى شغله . ولَهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى . ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانية — فى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " . وطولُ الأمل داء

(١) أى لا تغنى؛ يقال : ما يجدى عنك هذا؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى؛ بالزاى؛ وهى بمعنى لا تغنى . ولم نوفق لمعرفة قائل البيت .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولانجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل" . ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يأهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويبنون مشيّدا ويأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بُورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

يا ذا المؤمل آمالا وإن بَعُدت * منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنّى تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما * أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٤)

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ (٥)

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه ، ولا تتقدّم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

---

(١) آية ٣٤ سورة الأعراف .

قوله تعـالى : وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليـه وسلم على جهـة الاستهزاء ، ثم طلبوا منـه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و﴿ لَوْ مَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهـلا . وقال الفراء : الميم فى « لوما » بدل من اللام فى لولا . ومثله استولى على الشيء واستومى عليـه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خِلّ وخِلْمى ؛ أى صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائى : لولا ولوما سواء فى الخبر والاستفهام . قال ٱبن مُقْبِل :

لَوْمَا الحيـاء ولوما الدِّين عبتـكما * ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِى

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعـدّون عَقْر النِّيب أفضلَ مَجْدِكم * بنى ضَوْطَرَى لولا الكَمِىَّ المُقَنّعا (١)

أى هلا تعدون الكمِىَّ المقنعا .

قوله تعـالى : مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائى ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بِالحق ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّلُ الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّلُ الملائكةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقـد شدّد التاء البَزِّى ، واختـاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ والرُّوحُ » (٢) . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أى لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لمـا أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب (بكسر النون) : جمع ناب ، وهى الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذى لا غناء عنده ؛ وهى كلمة ذم وسب . والكمى : الشجاع المتكمى فى سلاحه ؛ لأنه كمّى نفسه أى سترها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظَرُوا . وأصل « إذًا » إذْ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنَانىّ : حفظه الله من أن تزيد فيه الشـياطين باطلا أوتنقُص منه حقا؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال فى غيره : « بما آستُحْفِظُوا »(١) ، فوَكَل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشـيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبى الحسن على بن خلف بن معزوز الكومى التِّلِمْسـانى قال : قرئ على الشيخة العـالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبى نصر أحمـد بن الفرج الدِّينَوَرىّ وذلك بمنزلها بدار السلام فى آخر جمادى الآخرة من سـنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طِرَاد بن محمد الزّينبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة، أخبرنا علىّ بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد آبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز آبن جريج المعروف بالطُّومَارِىّ حدّثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر ، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلمـا تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى ؟ قال نعم . قال له : أسلِم حتى أفعلَ بك وأصنع ، ووعده . فقال : دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلما ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المـأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت ترانى حسن الخط ،

(١) فى قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور...» آية ٤٤ سورة المائدة، وراجع جـ ٦ ص ١٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

فعمَدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُرِيت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البِيعة فاشتُرِيت مني ، وعمَدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسـخ وزدت فيهـا ونقصت ، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها ، فلمـا أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هـذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سببَ إسلامي . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنةَ فلقيت سفيان بن عُيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « بِمَـا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ »(١) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : « وإنا له لحافظون » أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « واللهُ يَعْصِمُكَ مِن النَّاسِ »(٢) . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجمـلة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنمـا هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسـلا ، فحذف . والشِّيَع جمـع شيعة وهي الأُمّة ، أي في أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : في فرقهم . والشِّيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأن الشِّيَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا »(٣) . وأصله مأخوذ من الشِّياع وهـو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشِّيَع هنا القرى .

---

(١) آية ٤٤ سورة المائدة . (٢) آية ٦٧ سورة المائدة . (٣) راجع جـ ٧ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

تسلية للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والسَّلْك : إدخال الشيء فى الشيء كادخال الخيط فى المخْيَط . يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكًا وسُلوكا ، وأسلكه إسلاكا . وسَلَك الطريق سُلوكا وسَلْكًا وأسلكه دخله ، والشيءُ فى غيره مثله ، والشيءَ كذلك والرُّمْح ، والخيط فى الجوهر ؛ كلُّه فَعَل وأفعل . وقال عَدِىّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصيب (١) *

والسِّلك (بالكسر) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال (٢) الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذى عليه أكثر أهل التفسير ، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضـا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى مضت سـنة الله بإهلاك الكفار ، فمـا أقرب هؤلاء من الهـلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهـم يقتدون بأولئك .

---

(١) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :

* وكنتُ لِزازَ خصمك لم أُعَرِّد *

(٢) فى الأصول : «وقرأ» .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقال : ظَلّ يفعل كذا، أى يفعله بالنهار . والمصدر الظُّلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أى صعِد . والمعارج المصاعد . أى لو صعِدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره . وقيل : الضمير فى «عليهم» للشركين . وفى «فظَلّوا» للملائكة، تذهب وتجيء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا فى السماء تصعَد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحِرت . الكلبي : أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضا عَمِيت . قتادة : أخذت . وقال المُؤَرِّج : دِيرَ بنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُوَيْبِر : خُدِعت . وقال أبو عمرو ابن العلاء : « سكرت » غُشّيت وغُطّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الحرور تَسْكُرُ

وقال مجاهد : « سكرت » حبست . ومنه قول أوس بن حَجَر :

فصرّت على ليلة ساهرهْ * فليست بطَلْقٍ[(1)] ولا سَاكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت . قال ابن عَزيز : «سُكِّرت أبصارنا» سُدّت أبصارنا؛ هو من قولك : سَكَرت النهَر إذا سددته . ويقال : هو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها مايلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كَثير «سَكِرت» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابي : سُكِرت ملئت[(2)] . قال المهدَوِيّ : والتخفيف والتشديد

---

(١) فى اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين؛ ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (٢) عبارة ابن الأعرابي كما فى نسخ الأصل : « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ، ولعله تكرير من النساخ مع تحريف .

فى «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمِع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سكِرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، و بالتشديد أُخذت، ذكرهما المـاوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهـد والحسن «سُكِرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِـرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمَادِير(١) حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سَكَرت» أخذه من سـكور الريح . قال النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة . والأصل فيهـا ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمـه الله تعالى، قال : هـو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن؛ أى غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشى السكرانَ ماغطى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لمـا ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيتـه . والبروج : القصور والمنـازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها. وأسماء هذه البروج : الحَمَل، والثّوْر، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَـدْى، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، و يستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجَدْب . وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجا، كلّ برج مِيلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هـذا المعنى فى النسـاء(٢) . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وآرتفاعها . وقيـل : الكواكب العظام؛ قاله أبو صالح،

---

(١) السمادير : ضعف البصر . وقيل : هو الشيء الذى يتراءى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .
(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

يعنى السبعة السيارة[١] . وقال قوم : «بروجا» ؛ أى قصورا وبيوتا فيها الحَرَس، خلقها الله فى السماء . فالله أعلم . ﴿ وزيناها ﴾ يعنى السماء، كما قال فى سورة المُلْك : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح»[٢] . ﴿ للناظرين ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

قوله تعالى : وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرمى بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرد . وقد تقدّم[٣] . وقال الكسائى : كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبى أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة، فيزيدون عليها تسعا فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل؛ فاذا رأوا شيئا مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به؛ فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها؛ فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِىَ بشهاب[٤]؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع، أى الخطفة اليسيرة، فهو استثناء منقطع . وقيل، هو متصل، أى إلا ممن استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا؛ لقوله : «إنهم عن السمع لمعزولون»[٥] . وإذا استمع الشياطين

---

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدى — : القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشترى، زحل .
(٢) آية ٥ . (٣) راجع ج ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) فى سورة الصافات فى قوله تعالى : «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ...» آية ٦ وما بعدها . وفى سورة الجن فى قوله تعالى : «وأنا لمسنا السماء ...» آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شئ ليس بوحى فإنهم يقـذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبِلهم[١]؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه . شِهاب : كوكب مضيء . وكذلك شِهاب ثاقب . وقوله : «بِشِهابٍ قَبَسٍ»[٢] بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عَزيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إِثْر عِفْـرِيَةٍ[٣] * مسوَّمٌ فى ســواد الليل مُنْقَضِب

وسمى الكوكب شهابا لبريقـه ، يشبه النار . وقيـل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهـل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعـد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المـارد منها فيعلو، فَيُرْمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ماشاء الله فيلتهب ، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقوهم بكل ماجاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ »[٤] إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبِل ولا يقتـل . وقال الحسن وطائفة : يَقتل ؛ فعلى هـذا القول فى قتلهم بالشهب قبـل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبـل إلقائهم ما اسـترقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكَهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعـد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لا نقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره المـاوردى .

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء . (٢) آية ٧ سورة النمل . (٣) أى إثر شيطان، ومسوّم : معلم . ومنقضب : منقض من مكانه . (٤) فى قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده» آية ٢٦ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتى بيانه فى «الصافات» (١) . واختلف هـل كان رمىٌ بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث . وسيأتى بيان هذه المسألة فى سورة «الجن» إن شاء الله تعالى . وفى «الصافات» أيضا . قال الزجاج : والرمى بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسّيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان فى قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرْمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشِّهاب فى اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل ، فأتوا عبد يا ليل بن عمرو الثقفى فقالوا : إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا فى النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التى تُعرف فهى عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهى من حَدَث . فنظروا فاذا هى نجوم لا تُعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ هـذا من نعمه أيضا ، ومما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء؛ كما قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » (٢) أى

(١) فى قوله تعالى : « لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى ... » آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ »[١] . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقدّم[٢] . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثابتة لئلا تحرك بأهلها . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى مقدّر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . و إنما قال «موزون» لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة * عنـدى لكل مُخاصِم ميزانُه

وقال قتادة : موزون يعنى مقسـوم . وقال مجاهد : موزون معـدود . و يقال : هذا كلام موزون؛ أى منظوم غير منتثر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا »[٣] . والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد . وقيل : ﴿ أنبتنا فيها ﴾ أى فى الجبال ﴿ من كل شيء موزون ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزِّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا . رُوى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار مما يكال و يوزن . وقيـل : ما يوزن فيه الأثمـان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلّفنى مَعيشـــةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالمرقّق والصِّناب[٤]

والأصلُ مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء) . وقد تقدّم فى الأعراف[٥] . وقيل : إنها الملابس؛ قاله الحسن . وقيـل : إنهـا التصرف فى أسـباب الرزق مدة الحياة . قال المـاوردى : وهو الظاهر . ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »[٦] ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غُلِّب من يعقل . أى

---

(١) آية ٤٨ سورة الذاريات . (٢) فى قوله تعالى : «وهو الذى مدّ الأرض ...» آية ٣ سورة الرعد . راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب : الخردل المضروب بالزبيب، يؤتدم به . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معايش وعبيــدا و إماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ«من» على هــذا التأويل فى موضع نصب ؛ قال معناه مجاهــد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور « وَمَنْ لستم له بِرازِقِين» قال : الوحش . فـ«من» على هذا تكون لمـا لا يعقل ؛ مثــل « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ »(١) الآية . وهى فى محـل خفض عطفا على الكاف والميم فى قوله : « لكم » . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عنـدهم عطف الظاهر على المضـمر إلا باعادة حرف الجر؛ مثـل مررت به و بزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا فى الشعر . كما قال :

فاليـوم قرّبت تهجـونا وتشـــتمنا * فآذهب فمـا بك والأيامِ من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وسورة «النساء» .

قوله تعـالى : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِنـدَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْـــلُومٍ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُـهُ﴾ أى و إن من شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعنى المطر المنزل من السماء،لأن به نبات كل شىء. قال الحسن: المطر خزائن كل شىء. وقيل : الخزائن المفاتيح، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق؛ قاله الكلبى. والمعنى واحد . ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال : « وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشاءُ»(٢) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيُمْطَر قوم ويحرم آخرون، وربمـا كان المطر فى البحار والقِفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستر فيه الإنسان ما له . والخِزانة أيضا مصـدر خَزَن يَخْزُن . وما كان فى خِزانة الإنسان كان مُعَـدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) آية ٢٧ سورة الشورى .

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيرى . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش مثال كل شيء خلقه الله فى البر والبحر . وهو تأويل قوله تعـالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » . والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »(١) وقوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »(٢) . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

قوله تعـالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ قراءة العامة « الرياح » بالجمع . وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد . كما يقال : جاءت الريح من كل جانب . كما يقال : أرضٌ سَبَاسِبُ(٣) وثوبٌ أخْلاق . وكذلك تفعل العرب فى كل شيء اتسـع . وأما وجه قـراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ « لواقح » وهى جمـع . ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل المـاء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحا لأنها تحمـل السحاب؛ أى تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه(٤) فتستدرّه ، أى تنزله؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا »(٥) أى حملت . وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها . وقيل : لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلقح إلا وهى فى نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخـير . وقيل : ذوات لَقْح، وكل ذلك صحيح؛ أى منها ما يُلقح الشجر؛ كقولهم : عيشـة راضية؛ أى فيها رضًـا، وليل نائم؛ أى فيه نوم . ومنها ما تأتى بالسحاب . يقال : لَقِحت النـاقة ( بالكسر ) لَقَحا ولَقَاحا ( بالفتح ) فهى لاقح . وألقحها الفحل أى ألقى إليهـا

(١) آية ٦ سورة الزمر . (٢) آية ٢٥ سورة الحديد . (٣) السبسب : الأرض المستوية البعيدة .
(٤) مرَت الريح السحاب : اذا أنزلت منه المطر . (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف .

الماء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لواقح ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر . وحكى المهدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمع مُلقِحة ومُلقِح، ثم حذفت زوائده . وقيل : هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللّقاح على النسب . ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل، وللشّمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسل الله المبشرة فتقم الأرض قَمّا (1)، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملاقح التى تحمل الندى فتمجّه فى السحاب، فإذا اجتمع فيه صار مطرا . وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهى الريح اللواقح التى ذكرها الله فى كتابه وفيها منافع للناس " . وروى عنه عليه السلام أنه قال : " ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدِقة " . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصَّبا تهيّجه، والدَّبور تُلقحه، والجنوب تُدِرّه، والشمال تفرّقه .

الثانيـة — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقِح » فلقاح القمح عندى أن يحبب ويُسَنْبِل، ولا أدرى ما ييبَس فى أكمامه، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربى : إنما عوّل مالك فى هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمى باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث " نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد " . قال ابن عبد البر : الإبّار عند أهل العلم فى النخل التلقيح، وهو أن يؤخذ شىء من طلع [ ذكور ] النخل فيُدْخَل بين ظهرانى طلع الإناث .

---

(1) قم البيت : كنسه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها. والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكّر من الثمار التذكير، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسقط ما يسقط. وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض؛ قاله مالك. وقد روى عنه أن إباره أن يحبّب. ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله، أن حكمه حكم ما أبر؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحبّ. فإن أبر بعض الحائط كان مالم يؤبر تبعا له. كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه.

الثالثـــة — روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من ابتاع نخلا بعـد أن تؤبر فثمرتها للذى باعها إلا أن يَشـترط المبتاع. ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع". قال علماؤنا: إنمـا لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصـول فى البيع إلا بالشرط؛ لأنه عين موجودة يحاط بهـا أمن سقوطها غالبا. بخلاف التى لم تؤبر؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لها وجود، فلم يجز للبائع اشـتراطها ولا استثناؤها؛ لأنها كالجنين. وهذا هو المشهور من مذهب مالك. وقيل: يجوز استثناؤها؛ وهو قول الشافعى.

الرابعـــة — لو اشتُرِى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طِيبها على مشهور قول مالك، ويرى لهـا حكم التبعيـة وإن أفردت بالعقد. وعنـه فى رواية: لا يجوز. وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث. وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها.

الخامســـة — ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح؛ والملاقح الفحول من الإبل، الواحد مُلقح. والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادُها، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف). والملاقيح مافى بطون النوق من الأجنة، الواحدة ملقوحة؛ من قولهم: لُقِحت؛ كالمحموم من حُمّ، والمجنون من جُنّ. وفى هذا جاء النهى. وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم:

أنه نهى عن المَجْر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما فى البطون، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى ظهور الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيرِه . وأىّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنيَّتى مَلاقحا فى الأبطُنِ * تُنْتَج ما تَلْقَح بعد أزْمُنِ (١)

وذكر الجوهرىّ على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ * خيرا من التَّأنان والمسائِلِ (٢)

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ * مَلقوحةً فى بطن نابٍ حامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سَقى وأسقى بمعنًى . وقيل بالفرق ، وقد تقدّم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤) » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (٥) » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ (٢٣)

أى الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شىء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٦) » . فملك كلّ شىء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فاذا ماتوا انقطعت

(١) كذا فى الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحمل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان . (٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعاوى، فكان الله وارثا من هـذا الوجه . وقيــل : الإحياء فى هـذه الآية إحياء النطفة فى الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا فى قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأول — « المستقدمين » فى الخلق إلى اليوم، و «المستأخرين» الذين لم يخلقوا بعد؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثانى — « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحيـاء؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثـالث — « المستقدمين » من تقدّم أمة محمد ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد . الرابع — «المستقدمين» فى الطاعة والخـير، و « المستأخرين » فى المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتـادة أيضا . الخـامس — «المستقدمين» فى صفوف الحرب، و «المستأخرين» فيها؛ قاله سعيد بن المسيّب . السادس — « المستقدمين » من قتل فى الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظى . السابع — « المستقدمين » أوّل الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبى . الثـامن — « المستقدمين » فى صفوف الصلاة، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فانه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقـه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لمـا رواه النّسائى والترمذىّ عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها، ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» . وروى عن أبى الجوزاء ولم يُذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانيـــة — هذا يدل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصفّ الأوّل؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما فى النـداء والصف الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستَهِموا عليه لاستهموا"(١) . فاذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب فى الفضل : أوّل الوقت، والصف الأوّل، ومجاورة الإمام . فان جاء عند الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة . فإن جاء وقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقد فاته فضـيلة أوّل الوقت، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاروة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : "لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته ، فإن نزلهـا غيره أُخِّر وتقـدّم هو إلى الموضـع ؛ لأنه حقّه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر؛ قاله ابن العربى .

قلت : وعليه يحمـل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة لَيَخِرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذيّ الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة — وكما تدل هـذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال ؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضـل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم فى الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس . قال البَرَاء : كنا والله إذا احمرّ البأس نَتّقِى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذى به ، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أى إلا أن يقترعوا .

قوله تعـالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقـدّم (١) .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس؛ عن ٱبن عباس وغيره . والصَّلْصَال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ ، فإذا طبخ بالنار فهو الفَخّار؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

* كعَدْوِ المُصَلْصِل الجَوّال (٢) *

وقال مجاهـد : هو الطين المُنْتِن؛ واختاره الكسائى . قال : وهو من قول العرب : صـلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن — مطبوخا كان أو نيئا — يَصِل صلولا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبـذُل ذا قِـدْرِه * لا يُفسِد اللحمَ لَدَيه الصُّلول

وطين صَـلّال ومِصْلال؛ أى يصوّت إذا نقـرته كما يصوّت الحـديد . فكان أوّلَ ترابا ، أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصـار طينا ، ثم تُرِك حتى أنتن فصار حَمأً مسـنونا؛ أى متغيرا، ثم يَبِس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيان (٣) هذا . والحَمَأ : الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه : حمِئت البئر حَمْأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرتْ حمأتُها . وأحمأتُها إحماء ألقيتُ فيها الحَمْأة؛ عن ٱبن السِّكّيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ، مثل تمرة وتمر . والحَمَأ المصدر، مثل الهلع والجزع ، ثم سُمّى به . والمسنون المتغيّر . قال ٱبن عباس : هو التراب المبتل المنتن،

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة .      (٢) هذا عجز البيت . وتمامه كما فى اللسان :

عنتريس تعـدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجـوّال

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

فجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهـد وقتادة، قالا : المنتن المتغيّر؛ من قولهم : قـد أَسِن المـاء إذا تغيّر؛ ومنه « يَتَسَنَّه » و «ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ» . ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سقت صـداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتّ على ماء العناقيـــد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سَنَنت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنين؛ ومنه المِسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبـة الحمـ * ـراء (١) تمشى فى مَرْمَرٍ مَسنون

أى محكوك مُملَّس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبـد الرحمن بن حسان يُشبّب بآبنتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هى زَهْراءُ مثـــلُ لؤلؤة الغـوّ * اص مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [ إنه يقول (٢) ] :

وإذا ما نَسـبْتَها لم تجـدها * فى سَـناء من المكارم دونِ

فقال : صـدق! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العـرب : سننت المـاء وغيره على الوجه إذا صببته . والسَّن الصب . وروى علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنه يقال : سننت الشيء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروىّ عن عمر (٣) أنه كان يَسُنّ المـاء على وجهه ولا يَشُنّه . والشّنّ ( بالشين ) تفريق المـاء، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أُخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُرِيك سُـــنّة وجهٍ غيرَ مُقْـرِفة (٤) * ملساء ليس بها خال ولا نَدَب

---

(١) فى اللسان : الخضراء. (٢) الزيادة عن اللسان. (٣) فى نهاية ابن الأثير : «ابن عمر».
(٤) السنة : الصورة . والمقرفة : التى دنت من الهجنة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة؛ أى غير هجينة، عفيفة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصّلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدويّ . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلاّل، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعنى إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمِّيَ جانا لتواريه عن الأعين . وفى صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك (١) " . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التى تقتل . وعنه : أنها نار لادخان لها، والصواعق تكون منها، وهى نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهدّة (٢) التى تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذى تسمعون من انغطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لايقال من جهة الرأى . وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وُصف لكم" .

---

(١) أى لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه .　　(٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرىّ : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيرىّ : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها فى مَسامّ البدن .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم فى «البقرة»(١) . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشيء . والرُّوح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريما ؛ كقوله : " أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « وروحٌ منهُ » وقد تقدّم فى « النساء »(٢) مبيّنا . وذكرنا فى كتاب ( التذكرة ) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى خرّوا له ساجدين . وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة »(٣) هذا المعنى . وقال القفّال : كانوا أفضل من آدم ، وآمتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قِبلة لهم .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

قوله تعـالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيـه مسئلتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) وإنمـا منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »(٢) بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى فى « البقرة »(٣) هـذا كلّه مستوفًى . وقال آبن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شـياطين . والشـياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهـم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجانّ أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره المـاوردىّ . والذى تقـدّم فى « البقرة » خلاف هـذا ، فتأمله هنـاك .

الثانيـــة — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعىّ ، حتى لو قال : لفلان علىّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، و يسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى فى ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفـة رضى الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقوّمات ، مثـل أن يقول : علىّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينـارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقـرّ جميع المبلغ . وقال محمـد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جمـلة ما أقرّ به . والدليل

---

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ١٦٩ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعي أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »[١] فآستثنى السلام من جملة اللّغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس » وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى : « إلا إبليس كان مِن الجنّ فَفَسَق عن أَمْرِ ربّهِ »[٢] . وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء، والعِيس وهي الجمال البيض من الأنيس؛ ومثله قول النابغة[٣] :

... ... ... ... ... ... ... ... * ... ... ... ... ... ... ... ...

قوله تعالى : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ ﴾ أي ما المانع لك . ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي في ألا تكون . ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ بيّن تكبّره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدّم في « الأعراف »[٤] بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة . ﴿ فإنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالشهب . وقيل : ملعون مشئوم . وقد تقدم هذا كلّه مستوفًى في البقرة والأعراف . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أي لعنتي؛ كما في سورة « ص »[٥] .

---

(١) آية ٢٥ سورة الواقعة . (٢) آية ٥٠ سورة الكهف . (٣) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة، أو لعله سقط من الناسخ . ولعله يشير الى قوله :

حلفت يمينا غير ذى مَثْنَوِيّة * ولا علمَ إلا حسنَ ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه في كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع؛ لأن حسن الظن ليس من العلم . والمثنوية : الاستثناء في اليمين . والمعنى : حلفت غير مستثن في يميني حسن ظني بصاحبي قام عندي مقام العلم الذي يوجب اليمين . (راجع كتاب سيبويه) . (٤) راجع ج ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (٥) آية ٧٨ .

قوله تعـالى : قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هـذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهـل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعـده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجَّلين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْـلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيـل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعـالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »(١) . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثـانى — كلمه تغليظا فى الوعيـد لا على وجه التكرمة والتقـريب .

قوله تعـالى : قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَـا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينـة فى الأعراف(٢) . وتزيينه هنـا يكون بوجهين : إما بفعل المعـاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهيعة عبـدُ الله عن دُرّاج أبى السـمح عن أبى الهيـثم عن أبى سـعيد الخدرىّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

(١) آية ٢٦ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قـرأ أهل المدينة وأهـل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمـامة أن الحواريين سـألوا عيسى عليه السلام عن المخلِصين لله فقـال : " الذى يعمـل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هـذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنـة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائىّ : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهـدّده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ »(١) . فكان معنى الكلام : هذا طريقٌ مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله ؛ يعنى طريق العبوديّة . وقيل : المعنى علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهـداية . وقرأ آبن سِيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد و يعقوب «هذا صِراط علىٌّ مستقيم» برفع « علىّ » وتنوينـه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ؛ أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمـال .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَـادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

فيـه مسألتـان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال آبن عُيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفـوى و يضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(١) آية ١٤ سورة الفجر .

قلت : لعل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »(١)، وعن جملة من أصحاب نبيّه بقوله : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٢) فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمانهم، ولا يلقيهم فى ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة وتمحوه الأوبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول، على ما تقدّم فى « البقرة »(٣) بيانه . وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم فى آل عمران(٢) . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون فى تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فُعل ببلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّى الصبيّ حتى نام، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس فى النوم تفريط" ففرّج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء، دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

الثانية — وهذه الآية والتى قبلها دليل على جواز آستثناء القليل من الكثير والكثير من القليل؛ مثل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسعة . وقال أحمد آبن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما آستثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران، جـ ٤ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعنى إبليس ومن اتبعـه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أى أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أى لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغَنَوِىّ قال : سمعت حِطّان ابن عبد الله الرَّقاشى يقول سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض ، — زاد الثعلبىّ : ووضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلّ باب أشدّ حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدّركات، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سـعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدّرك الأعلى المحمديّون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخـامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنـافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المـائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدم فى النساء (١) — ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » (٢) ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » (٣) . وقسّم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السّوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة) . وروى الترمذىّ من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منهـا لمن سلّ سـيفه على أمتى " قال : حديث غريب . وقال أُبَىّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحَرُورِيّة (٤) . وقال وهب بن منبّه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٤٦ سورة غافر . (٣) آية ١١٥ سورة المـائدة .

(٤) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنـه : للشهيد نور، ولمن قاتل الحـرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب، باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا فى زمان داود عليه السلام » .

سنة، كلّ باب أشدّ حَرًّا من الذى فوقه بسبعين ضعفا. وقد ذكرنا هذا كلّه فى كتاب التذكرة.
وروى سلام الطويل عن أبى سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : « لها سبعةُ أبوابٍ لِكلّ بابٍ مِنهم جزءٌ مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا فى الله، وجزء غفلوا عن الله، وجزء آثروا شهواتهم على الله، وجزء شفوا غيظهم بغضب الله، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله، وجزء عتَوا على الله . ذكره الحَلِيمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثّنوية . والشاكّون هم الذين لايدرون أن لهم إلٰها أولا إلٰه لهم، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه، وهم الدهرية . والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه . والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه، المعذّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم . والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاتون على الله الذين لا يبالون، بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . ويروى أن سلمان الفارسيّ رضى الله عنه لما سمع هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل، فجىء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله، أنزلت هذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهم أجمعين » ؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى؛ فأنزل الله تعالى « إنّ المتقين فِى جناتٍ وعيُونٍ » . وقال بلال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلى فى مسجد المدينة وحده، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « لها سبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهم جزء مقسوم » فخرت الأعرابية مغشيًّا عليها، وسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وَجْبَتها (١) فانصرف ودعا بماء فصبّ

---

(١) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له كالهدّة .

على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا هـذه مالك " ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعـالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على كل باب منها ؟ قال : " يا أعرابيـة ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمـالهم " فقالت : والله إنى امرأة مسـكينة ، مالى مال، ومالى إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهـم عن كل باب من أبواب جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : " يا رسول الله، بشّر الأعرابية أن الله قد حرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها " .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك . ﴿ فِى جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين . ﴿ وعيُونٍ ﴾ هى الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل . وأما العيون المذكورة فى سورة « الإنسان » : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفى « المطففين » : التسنيم ، فيأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله . وضم العين من « عُيونٍ » على الأصل، والكسر مراعاة للياء ، وقرئ بهما . ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَـلَامٍ آمِنِينَ ﴾ قراءة العامة « ادخلوها » بوصـل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخُل ، على الأمر . تقديره : قيـل ادخلوها . وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب « آدخِلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخـاء على الفـعل المجهول، من أدخل . أى أدخلهم الله إياها . ومذهبهم كسر التنوين فى مثـل « بِرحمةٍ آدخلوا الجنة »(١) وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هى ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة . وقيل : بتحية من الله لهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزوال .

(١) آية ٤٩ سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله مافى قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجرى عليهم نضرة النعيم؛ ونحوه عن علىّ رضى الله عنه . وقال علىّ بن الحسين : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ والصحابة، يعنى ما كان بينهم فى الجاهلية من الغل . والقول الأوّل أظهر، يدلّ عليه سياق الآية . وقال علىّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة؛ يقال منه : غلّ يغِلّ . ويقال من الغلول وهو السرقة من المغنم : غَلّ يَغُلّ . ويقال من الخيانة : أَغَلّ يُغِلّ . كما قال[(١)] :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ بنةَ نوفلٍ * جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ

وقد مضى هذا فى آل عمران[(٢)] . ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلًا وتحابُبًا؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ . وسُرُر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهَّد للسرور . والأوّل أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صنعاء[(٣)] إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

---

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات فى أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بنى أسد فسبى منهم امرأة منهم يقال لها «حمزة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر فتركته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولادا، ثم قالت له فى بعض أيامها : إنى قد اشتقت إلى أهلى، فقال لها : إنى أخاف ان صرت إلى أهلك أن تغلبينى على نفسك فواثقته لترجعن إليه، ثم خانت عهده . (راجع الأغانى ج ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) راجع ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) صنعاء : موضعان، أحدهما باليمن وهى العظمى، وأخرى قرية بالغوطة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .

أو من المضمر فى « ادخلوها » ، أو من المضمر فى « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم فى «صدورهم» . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لايزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ »(١) .

قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية وِزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عنــد الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من رحمته أحد " أخرجه مســلم من حديث أبى هريرة . وقد تقــدّم فى الفاتحة(٢) . وهكذا ينبغى للإنسان أن يذكّر نفســه وغيره فيخوّف ويرجّى ، ويكون الخوف فى الصحة أغلب عليه منه فى المرض . وجاء فى الحديث أن النبىّ صــلى الله عليه وســلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنــار " فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره المــاوردىّ والمهدوىّ . ولفظ الثعلبىّ عن ابن عمر قال: اطّلع علينا النبىّ صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شَيْبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عنــد الحِجْر رجع القهقرى فقال لنــا : " إنى لمــا خرجت جاءنى جبريل فقال يامحمد لم تُقنّط عبادى من رحمتى « نبّئ عبادِى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابِى هو العذاب الألِيم » " . فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(١) آية ٥٤ سورة ص . (٢) راجع جـ ١ ص ١٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) ضيفُ إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان، وكان لقَصْره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود » (٢) ما يكفى والحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث " حين تَضيف الشمس للغروب " ، وضيفوفة السهم (٣) ، والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أى سلّموا سلاما . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقدّم فى هود (٤) . وقيل : أنكر السلام ولم يكن فى بلادهم رسم السلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم ؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ (٥) « أن » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقدّم فى هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيقى . وقرأ الحسن « تُوجل » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونى» بغير ألف ، ونافع وشيبة « تُبَشِّرونِ» بكسر النون والتخفيف ؛ مثل «أتحاجّونِى» وقد تقدّم تعليله (٦) . وقرأ ابن كثير وابن محيصن «تُبَشِّرونِّ» بكسر النون مشدّدة ، تقديره تبشروننى ، فأدغم النون فى النون . الباقون « تُبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعالى : قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بما لا خلف فيه ، وأن الولد لابُدّ منه . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى من الآيسين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفرط

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الكبر . وقراءة العـامة « مِن القانِطين » بالألف . وقـرأ الأعمش ويحيى بن وَثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبى عمرو . وهو مقصور من «القانطين» . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِط يَقنَط؛ مثـل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه «يقنُط» بالضم . ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» . [و] من فتح النون فى المـاضى والمسـتقبل فانه جمع بين اللغتين، فأخذ فى المـاضى بلغة من قال : قنَط يقنِط، وفى المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط؛ ذكره المهدوى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

أى المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعنى أنه آستبعد الولد لكبر سـنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى — لمـا علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد — قال : فمـا خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أى فمـا أمركم وشأنكم وما الذى جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرسِلْنَا إِلَى قَـوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أى مشركين ضالين . وفى الكلام إضمار؛ أى أرسلنا إلى قـوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آل لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهـل دينه . ﴿ إِنا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى « لَمُنْجُوهم » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى، واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم . والتنجيـة والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا آمْرَأَتَهُ ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين فى الهـلاك . وقـد تقدّمت قصـة قوم لوط

فى « الأعراف » (١) وسورة « هود » (٢) بما فيه كفاية . ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال (٣) :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النَّاتج

الأغبار بقايا اللبن . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرنا » بالتخفيف هنا وفى النمل (٤)، وشدد الباقون . الهَروِىّ : يقال قدّر وقَدَر، بمعنًى .

الثانيـــة — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى؛ فاذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر . والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إنا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا آمرأته » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين، ثم قال : «إلا آمرأته» فاستثناها من آل لوط، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا آثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهمه .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حِلِّزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار : جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) فى قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله...» آية ٥٧

قوله تعالى : فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم. وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكّون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فى هلاكهم . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ تقـدّم فى هود (١) . ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيـل : المعنى لا يتخلف . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَـفَد، قرية من قرى لوط . وقد تقدّم . وقيـل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنمـا سمى اليقين لأن إبراهيم لمـا خرجت الرسـل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهـم ؟ قال : "من ها هنا" وحدّ له حدًّا ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمىّ اليقين .

قوله تعـالى : وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْـهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدّم[(١)] . ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجـوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجل. وقد تقدّم فى هود[(٢)] . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشـة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف[(٣)] . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدّم بيان هذا فى هود[(٤)] .

قوله تعـالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال القاضى أبو بكر بن العـربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعـالى ها هنا بحياة محمد صـلى الله عليه وسـلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حَيْرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عِياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صـلى الله عليه وسـلم . وأصـله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه و بقائك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال آبن العربى : «ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع ج ٦ ص ٤٢٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٩ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع ج ٧ ص ٢٤٥ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٩ ص ٧٦ طبعة أولى أو ثانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعـالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرفٍ لمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُـلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا فى قصة لوط . قال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم فى تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لمـا وعظ لوط قومَه وقال هؤلاء بنـاتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحلّ بهم صباحا . فإن قيل : فقـد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؛ فمـا فى هذا ؟ قيل له : ما من شىء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضـله على ما يدخل فى عداده، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعَمْر والعُمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرك الله، أى أسأل الله تعميرك . و « لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك ممـا أقسم به .

الثانيـــة — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النَّخَعِىّ : يكره للرجل أن يقـول لعمرى ؛ لأنه حلف بحيـاة نفسه، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعَيْشك ، وليس من كلام أهل الذُّكْران، و إن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يُصرف « لعمرك » فى الكلام لهـذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربى : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمرى » ونحوه فى أشـعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لَعَمْرِى وما عَمْــــرِى علىّ بهيّنٍ * لقد نَطقتْ بُطْــلًا علىّ الأقارع (١)

آخــــر :

لَعَمْرُك إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياه باليَــدِ (٢)

آخــــر :

أيّهــا المنكح الـــثُّرَيّا سُهيــلًا * عَمْـــرَكَ الله كيف يلتقيــان

آخــــر :

إذا رَضِيتْ علىّ بنو قُشَــير * لَعَمْـــرُ اللهِ أعجبنى رضاهــا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هــذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، و إنمــا هو تعالى أزلىّ . ذكره الزهراوى .

الثالثــــة — قــد مضى الكلام فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحلف به فى « المــائدة » (٣) ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى ممــا يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخِفّ بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . و إذا أقسم الله تعــالى بحياة نبيّه فإنمــا أراد بيان التصريح لنــا أنه يجوز لنــا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ » « وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ » « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . » كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، وبرب الكتاب المسطور ، وبرب البلد الذى حللت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمــد ؛ فاليمين والقسم حاصل به ســبحانه لا بالمخلوق . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : ومن جَوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وســلم : " لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف ، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان .  (٢) البيت لطرفة بن العبد . والطول : الحبل . وثنياه : ما ثُنى منه .  (٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بآبائكم " وقال : إنمـا نَهى عن الحلف بالاباء الكفارِ، ألا ترى أنه قال لمـا حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية " . ومالك حمل الحديث على ظاهره . قال ٱبن خُوَيْزِمنداد : واسـتدل أيضا من جوز ذلك بأن أيمـان المسلمين جرت منذ عهـد النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلى يومنا هـذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هـذا إذا حاكم أحدهم صاحبَه قال : احلف لى بحق ما حواه هـذا القبر، وبحق ساكن هـذا القبر، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمَشاعر العظام ، والرُّكن والمَقام والمحراب وما يُتْلى فيه .

قوله تعـالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُـمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ نصـب على الحال ، أى وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وأشرق القـوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصـبحوا وأمسوْا ، وهو المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمـام الهلاك عنـد ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العـذاب . وتقدّم ذكر « سِجّيل »(١) .

قوله تعـالى : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ روى الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " للمتفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع ج ٩ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية .

عليه وسـلم : " اتّقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إنّ فِي ذلِك لآياتٍ لِلمتوسِّمِين » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وابن زيد : للتوسمين للتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر (١) :

أوَ كلّما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ ✽ بعثُوا إلىّ عريفَهـم يتوسّم

وقال قتادة : للمعتبرين . قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ ✽ أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسِّـمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذيّ الحـكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ لِله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلمـاء : التوسّم تفعّل من الوَسْم ، وهى العلامة التى يستدلّ بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيـه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيـه ؛ ومنه قول عبـد الله ابن رَوَاحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم :

إنى توسّمت فيك الخير أعرفه ✽ والله يعلم أنى ثابت البصر

آخـــر :

توسمتـــه لمـا رايت مهابة ✽ عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتّسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها . وتوسّم الرجل طلب كلأً الوَسْمِيّ . وأنشد :

وأصـبحن كالدَّوْم النّـواعِم غُـدْوةً ✽ على وِجْهـــةٍ مِن ظاعنٍ مُتَوَسِّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليـك من فَرْقك إلى قدمك . وأصـل التوسّم التثبت والتفكر؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصـفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهـيره من أدناس المعاصى وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « للتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هى استدلال بالعلامات ،

(١) هو طريف بن تميم العنبرى (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبـدو ظاهرا لكل أحد و بأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثـله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا، وقال الآخر : بل حدّادا ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجـارا وأنا اليوم حدّاد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سَمّع الله به، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدا حَرُورِيًّا ؛ فكان رأس الحَرُورِيّة، واسمه مرداس . وروى عن الحسن البصرى أنه دخل عليـه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يُحدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن . وروى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأَزْدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْياً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيــة — قال أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليـه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس . وقـد كان قاضى القضـاة الشامى المـالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام، جَرْيًا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشى صنف جزءا فى الرد عليه، كتبه لى بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها .

قوله تعالى : وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعنى قرى قوم لوط . ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ أى على طريق قومك يا محمد إلى الشام . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى لعبرة للمصدّقين . ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر مثمر . والأيكة : الغيضة، وهى جماعة الشجر، والجمع الأيك . ويروى أن شجرهم كان دَوْمًا وهو المُقْل . قال النابغة :

تَجْلُو بقادِمَتَىْ حمامةِ أَيْكةٍ ＊ بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُه بالإثْمِد

وقيل : الأيكة اسم القرية . وقيل اسم البلدة . وقال أبو عبيدة : الأيكة ولَيْكة مدينتهم، بمنزلة بكة من مكة . وتقدّم خبر شعيب وقومه . ﴿ وَإِنهما لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أى بطريق واضح فى نفسه، يعنى مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمرّ عليهما .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة . ومنها الحرام؛ قال الله تعالى : «وَحِجْرًا مَحْجُورًا»[1] أى حراما محرما . والحجر العقل؛ قال الله تعالى : «لِذِى حِجْرٍ»[2] والحِجْر حِجر القميص؛ والفتح أفصح . والحجر الفرس الأنثى . والحجر ديار ثمود، وهو المراد هنا، أى المدينة؛

---

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .　　(٢) آية ٥ سورة الفجر .

قاله الأزهريّ . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرىّ : هى أرض بين الحجاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبياً فقد كذّب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدّمه من النبيّين أيضا . والله أعلم . روى البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر فى غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عَجَنَّا واستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى تَرِدها الناقة . وروى أيضا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" ثم زجر(١) فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأولها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة" .

مســـئلة : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط ، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل" .

---

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

قلت : وهكذا حكم المـاء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثهـا — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا المـاء الإبل، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خَيْبَر؛ فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رســول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضحَ[(١)] والرقيق، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعيّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبد فيــه كما تعبّد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليــل على جواز حمــل الرجل النجاســة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنـا وقال : تطلق الكلاب عليهـا ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقـادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ كما أن في الأول دليــلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات، لكن المقرون بالمحبوب محبوب، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض؛ كما قال كُثَيِّر :

أحب لحبهـا السودان حتى * أحبّ لحبها ســود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الدّيار ديارِ لَيْـــلَى * أقبّل ذا الجدارَ وذا الجــدارا
وما تلك الديارُ[(٢)] شَغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : "جعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا" فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه .    (٢) الرواية المشهورة : «وما حب الديار» . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المـائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلّى فى سبع مواطن : فى المَزْبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مَرْثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إسـناده ليس بذاك القوِىّ ، وقد تُكُلِّم فى زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذى فيه تمـاثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائمـا أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربىّ : ومن هـذه المواضع ما مُنِع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيـه ثوب طاهر كالحمـام والمقبرة فيها أو إليهـا فإن ذلك جائز فى المدوّنة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقـبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلِّ فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها (١) ونفارها فتفسد على المصلى صـلاتُه ، فإن كانت واحدة (٢) فلا بأس ؛ كما كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلّى على بساط فيه تمـاثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصـلاة إلى القبلة فيها تمـاثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعـل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربىّ : وذلك عنـدى بخلاف الأرض فإن الدار لا تُدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمـة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هـذا وادٍ به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهرىّ فقال : واخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقولِ علىّ : نهانى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقولِه عليه

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .
(٢) أى ناقة واحدة .

السلام حين مرّ بالحِجر من ثمـود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيِه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك ممـا فى هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليهـا والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هـذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلّها ما لم تكن فيها نجاسـة متيقَّنة تمنـع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من آعتل بأن موضـع النوم عن الصلاة موضـع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيـه الصلاة ، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى عن الصلاة فى المقـبرة و بأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك ممـا فى هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسـلم : " جُعلت لى الأرض كلها مسجدا وَطهورا " ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبرا : إن ذلك من فضائله وممـا خُصّ به ، وفضائلُه عند أهل العـلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صـلى الله عليه وسـلم : " أوتيت خمسـا — وقد روى سـتا ، وقد روى ثلاثا وأربعـا ، وهى تنتهى إلى أزيد من تسع ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بُعثت إلى الأحمـر والأسود ونُصرت بالرُّعْب وجُعلت أمـتى خير الأمم وأُحلّت لى الغنائم وجُعلت لِىَ الأرض مسـجدا وَطهورا وأوتيت الشفاعة و بعثت بجوامع الكَلِم و بينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت الكوثر وختِم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . وبعضهم يذكر بعضها ، و يذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » (١) . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ؛ فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متّى " وقال : " السـيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

---

(١) آية ٢ سورة الفتح .

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولاالاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " أجزنا الصــلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخارىّ ولم يخص موضـعا من موضـع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمــر حديث الترمذىّ الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبِيرة وأنكروه عليــه، ولا يعرف هــذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة . وقد كتب الليث بن ســعد إلى عبــد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبــد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحُلْوانى عن سعيد بن أبى مريم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد رُوى عن علىّ بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليه وســلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصــلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذى رواه عن علىّ هو ســعيد ابن عبــد الرحمن الغِفارىّ ، بصرىّ ليس بمشهور ولا يصح له سمــاع عن علىّ ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمــر : وفى البــاب عن علىّ من قوله غيرَ مرفوعٍ حديثٌ حسن الإسناد، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحُرّ الكِنْدىّ قال حدّثنى أبو العَنْبس حُجْر بن عنبس قال : خرجنا مع علىّ إلى الحرورية، فلمــا جاوزنا ســوريا وقع بأرض بابل ، قلنــا : يا أمــير المؤمنين أمسيتَ ، الصــلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحُرّ كوفى ثقــة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب علىّ . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُــدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " . قال الترمذىّ : رواه سفيان الثورىّ عن عمرو بن

يحيي عن أبيـه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم مُرْسَلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمـر : فسقط الاحتجاج به عنـد من لا يرى المرسـل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة فى هـذا الحديث وغيره أريد بهـا مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُرَد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليـه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له فى القياس ولا فى المعقول، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل آختلاف الكفار إليهـا بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يتكلم بمـا لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعـة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ليبنى مسجده فى مقبرة المشركين وينبشها ويسوّيهـا ويبنى عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هـذا الحديث . وكل من كره الصلاة فى المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسـلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله ؛ لأنه بعث مبيِّنا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن فى الحديث المقبرة والحمام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم فى دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدّم هذا فى سورة «براءة»(١) . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

لأنها بقعة يعصى الله و يكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة . وقـد وردت السنة باتخاذ البِيع والكنائس مساجد . روى النَّسائى عن طَـلْق بن علىّ قال : خرجنا وَفْـدًا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بِيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : " فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بِيعتكم واتخذوها مسجدا " . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقـد تقدّم فى « براءة » . وحسبك بمسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى أُسِّس على التقوى مبنيـا فى مقبرة المشركين ؛ وهو حجـة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة فى المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثورىّ وأبو حنيفـة والأوزاعىّ والشـافعىّ وأصحابهم . وعنـد الثورىّ لا يعيد . وعند الشافعىّ أجزأه إذا صلى فى المقبرة فى موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة فى ذلك، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا " ، ولحديث أبى مَرْثَد الغَنَوِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة فى كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا . ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذى لا يشـتغل بمثله ، ولا وجه له فى نظـر ولا فى صحيح أثر .

وثامنهـا (١) ـــ الحائط يلقى فيه النَّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يُسقى ثلاث مرات ؛ لمـا رواه الدارقطنى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنَّتْن قال : " إذا سُقِى ثلاث مرات فصلّ فيه " . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التى تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل ، أيصلّى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيهـا . رُفع ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم . اختلفا فى الإسناد ، والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصول . و يلاحظ أنه لم يتقدّم للسابعة ذكر .

قوله تعالى : وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أي بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »(١) أي بغدائنا . والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمّة : خروجها من الصخرة ، ودُنُوُّ نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي لم يعتبروا .

قوله تعالى : وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

النحت في كلام العرب : البَرْيُ والنَّجر . نحته ينحتــه ( بالكسر ) نحتا أي براه . والنُّحاتة البُراية . والمِنحت ما يُنحت به . وفي التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(٢) أي تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيــوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أي من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أي في وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة في هود والأعراف(٣) . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصــون في الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

---

(١) آية ٦٢ سورة الكهف .		(٢) آية ٩٥ سورة الصافات .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦١ و جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيـل : أى لأجازى المحسـن والمسىء ؛ كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(١) . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أى لكائنة فيجزى كل بعمله . ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ مثل « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »(٢) أى تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفواً حسناً ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »(٣) . وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " لقد جئتكم بالذبح وبُعثت بالحصاد(٤) ولم أبعث بالزراعة "؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح فى حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أى المقدر للخلق والاخلاق(٥) . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلمـاء فى السبع المثانى ؛ فقيل : الفاتحة؛ قاله علىّ بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أُبَىّ بن كعب وأبى سعيد بن المُعَلَّى(٦) . وقد تقدّم فى تفسير الفاتحة . وخرّج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى " . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهـذا نص، وقد تقدّم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشـدتكم بمنزِل القـرآن * أمِّ الكتاب السبعِ من مثانى

وقال ابن عبـاس : هى السـبع الطُّوَل : البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنعـام، والأعراف، والأنفال والتوبة معـا؛ إذ ليس بينهما التسـمية . روى النَّسائىّ

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .
(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : « بالجهاد » . (٥) كذا فى الأصول .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

حدّثنا على بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع الطُّوَل، وسميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثُنّيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شيء إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسى * مُضيعا للمفصّل والمثانى

وقيل : المثانى القرآن كله؛ قال الله تعالى : «كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ»(١) . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس . وقيل له مثانى لأن الأنباء والقصص ثُنّيت فيه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نورا ساطعا يهتدى به * يُخَصُّ بتنزيل القُرَآن المعظم

أى القرآن . وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبى مريم . والصحيح الأوّل لأنه نصّ . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شيء لايحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام . وقد تقدّم فى الفاتحة . وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثانى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَرم وابن الهمام * وليثِ الكتيبةِ فى المُزْدَحم

وقد تقدّم عند قوله : «حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى»(٢) .

---

(١) آية ٢٣ سورة الزمر .        (٢) راجع ج ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بمـا عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعات ليهود قُريظة والنّضِير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعا مِن المثانى » أى فهى خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدّن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن" أى من لم يستغن به . وقد تقدّم هـذا المعنى فى أوّل الكتاب (١) . ومعنى ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى ، فهم أزواج .

الثانيـــة — هـذه الآية تقتضى الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبـد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (٢) » الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حُبِّبَ إلىّ من دنياكم (٣) النساء والطيب وجُعلت قُرّةُ عينى فى الصلاة" . وكان عليـه الصلاة والسـلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أحْرى من ذلك وأولى . ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ،

---

(١) راجع ج ١ ص ١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الامام أحمـد . والذى فى الأصول : « حبب إلى من دنيا كم ثلاث ... الخ » وبكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمىّ ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضــلاء الانكفافَ عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليــوم أولى؛ لمـا غَلب على الدنيـا من الحرام ، واضطرّ العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعةِ من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتى على الناس زمان يكون خيرمال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف(١) الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيــل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به فى الدنيا فلك فى الآخرة أفضلُ منه . وقيــل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العــذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضَعْ لهم . وأصله أن الطائر إذا ضَمّ فرخه إلى نفســه بسط جناحه ثم قبضه على الفــرخ ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ(٢) » وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتيــة لزعيم قوم * يمدّ على أخى ســقم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعــالى : وَقُـلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّـذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَـا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فى الكلام حذف؛ أى إنى أنا النذير المبين عذابا، فحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه، كما قال فى موضع آخر : « أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ(٣) » . وقيل : الكاف زائدة، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

---

(١) أى رءوسها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٣ سورة فصلت .

مثل ما أنزلنا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف فى « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سبعة : الأول — قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فآقتسموا أعقاب مكة وأنقابها و فجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغترّوا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن . وسُمُّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ مِيتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، و بعضه سحرا ، و بعضه كهانة ، و بعضه أساطير الأوّلين. الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففرّقوه وبدّدوه وحرّفوه . السادس — قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسُمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ »(١) . السابع — قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبّه ابن الحجاج؛ ذكره الماوردىّ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألنهم » . وواحد العِضين عِضَة ، من عضّيت الشىء تعضية أى فرّقته ؛ وكل فرقة عِضَة . وقال بعضهم : كانت فى الأصل

(١) آية ٤٩ سورة النمل .

عِضْوَة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين، كما قالوا : عِزِين فى جمـع عِزة ، والأصـل عِزْوة . وكذلك ثُبَـة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه فى المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فرقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أى بالمفرق . ويقال : نقصانه الهـاء وأصله عِضْهة ؛ لأن العِضَه والعِضين فى لغـة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضِه وللساحرة عاضِهة . قال الشاعر :

أعوذ بربى من النافِثـــا ۞ تِ فى عُقَد العاضِــه المُعْضِه

وفى الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُسْتَعْضِهة، وفُسِّر : الساحِرة والمستسحِرة . والمعنى : أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا : سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترًى، إلى غير ذلك . ونظير عِضة فى النقصان شَـفه، والأصل شَفَهة . كما قالوا : سـنة، والأصل سنَهة ، فنقصوا الهـاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيـل : هو من العَضْه وهى النميمة . والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيـه . يقال عَضَهه عَضْهًا رماه بالبهتان . وقـد أعْضَهْت أى جئت بالبهتان . قال الكسائى : العِضَـة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون، مثل عِزة وعِزون ؛ قال تعـالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » . ويقال : عَضَّوه أى آمنوا بمـا أحبوا منه وكفروا بالباقى، فأحبط كفرهم إيمـانَهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعـالى : فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لنسئلن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا فى الدنيا . وفى البخارى : وقال عِدة من أهل العلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذى الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معـاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : " عن قول لا إلٰه إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إلٰه إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعـالى ذكر فى تنزيله العمل فقال : « عمـا كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان ، فإنمـا المعنىّ به ما يعرفه أهل اللغــة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنمـا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إله إلا الله " أى عن الوفاء بها والصدق لمقالها . كما قال الحسن البصرى : ليس الإيمـان بالتحلّى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله ، وما إخلاصها ؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وَجَبت له الجنــة " قالوا : يا رســول الله ، وما الذى يخلط بلاإله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجمْعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها فى نوادر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم ، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه فى كتاب ( التذكرة ) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا : فيــه خلاف ، وذكرناه فى التذكرة . والذى يظهر ســؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (١) » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢) » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة الصافات . (٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(١) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(٢) ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »(٣) ، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »(٤) . قلنا : القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لنسألنهم أجمعين » يعني المؤمنين المكلفين ؛ بيانُه قولُه تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(٥) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي بالذي تؤمر به ، أي بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أي تفرقوا ؛ ومنه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(٦) أي يتفرقون . وصدعته فانصدع أي انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبَابة وكأنه يَسَرٌ * يُفيض على القِداح ويَصْدَعُ(٧)

أي يفرق ويشق . فقوله : « اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أي أظهر دينك ، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر ، أي اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أي فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

---

(١) آية ٧٨ سورة القصص . (٢) آية ٣٩ سورة الرحمن . (٣) آية ١٧٤ سورة البقرة .
(٤) آية ١٥ سورة المطففين . (٥) آخر سورة التكاثر . (٦) آية ٤٣ سورة الروم .
(٧) الربابة : الجلدة التي تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذي يضرب بالقداح .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالات بقولهم ، فقد برأك الله عمـا يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »(١) . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعـالى : « فاصدع بمـا تؤمر » فخرج هو وأصحـابه . وقال مجاهـد : أراد الجهـر بالقرآن فى الصلاة . « وأعرض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لمـا تمادَوْا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بمـا تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلٰهـًا آخر فسوف يعلمون » . والمعنى : اصدع بمـا تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسـد أبو زمعة . والأسود بن عبـد يَغُوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة، أهلكهم الله جميعا، قيل يوم بدر فى يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسـود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعَمِيَ ووجعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار. ومرّ به الأسود بن عبـد يَغُوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمـات منه حَبَنًا . ( يقال : حَبِن ( بالكسر ) حَبَنًا وحُبِن للفعول عظم بطنه بالمـاء الأصفر، فهو أحبن، والمرأة حبناء؛ قاله فى الصحاح ) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يَجُرّ سَـبَله(٢)، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلًا له فتعلق سهم من نبـله بإزاره فخَدَش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشـار إلى أَخْمَص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فربَض به على شِبْرِقة(٣) فدخلت فى أخمص رجله شوكةٌ فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلة، فأشار إلى رأسه

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) السبل ( بالتحريك ) : الثياب المسبلة؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .
(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل، وله شوك .

فامتخط قيحا فقتــله . وقد ذُكر فى سبب موتهم اختلاف قريب من هــذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « فَخَـرَّ عليهِمُ السَّقْفُ مِن فوقِهِم »(٢) . شبّه ما أصابهم فى موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتى .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَــدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَـا يَقُولُونَ ﴾ أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله وينال أصحابك من أعدائك .

قوله تعـالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسيرٌ لقوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود، كما قال عليــه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " . ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانيـــة — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود فى القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد فى هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقــاش أن ها هنا سجدةً عنــد أبى حذيفة ويَمــان بن رِئاب، ورأى أنها واجبة .

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) آية ٢٦ سورة النحل .

قوله تعـالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة — وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصّر عبادُه فى خدمته ، وأن ذلك يجب عليــه . فإن قيل : فما فائدة قوله « حتى يأتيـك اليقين » وكان قـوله : « واعبــد ربك » كافيـا فى الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة فى هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا ؛ واذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقـل أبدا ؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا ؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدّم هـذا المعنى (١) . والمـراد استمرار العبادة مدّة حياته ، كما قال العبـد الصالح : وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيّـا . ويترتّب على هـذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا ، وقال : نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقتها حياتَها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموتُ حديثُ أم العـلاء الأنصارية ، وكانت من المبايِعـات ، وفيه : فقال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "أما عثمان — أعنى عثمان بن مَظْعُون — فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به" وذكر الحديث (٢) . انفرد بإخراجه البخارىّ رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشــبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعنى كأنهم فيــه شاكون . وقد قيــل : إن اليقين هنا الحق الذى لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهـد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقــد روى جُبير بن نُفير عن أبى مســلم الخَوْلانِىّ أنه سمعه يقول إن النبىّ صلى الله عليــه وسلم قال : "ما أوحى إلىّ أن أجمع المـال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلىّ أن سبّح بحمـد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٣ طبعة ثانية . (٢) راجع صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥١ طبعة بولاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة النحل

وهى مكية كلّها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمّى سورة النِّعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية غيرَ قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »[1] الآية؛ نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغيرَ قوله تعالى : « وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ »[2] . وغيرَ قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا »[3] الآية . وأما قوله : « وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا »[4] فمكىّ، فى شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاثَ آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمـزة، وهى قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[5] .

قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أَتَى » بمعنى يأتى ؛ فهو كقولك : إن أكرمتنى أكرمتك . وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى فى الماضى والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ »[6] . و « أمر الله » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُريج والضحاك : إنه ماجاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩٥ وما بعدها .
(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النّضر بن الحارث : « اللَّهُمَّ إن كان هـذا هو الحقَّ مِن عِندِك » الآية ، فاستعجلَ العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضي الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر[1] ، خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة . وقال الزجاج : هو ماوعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّى إذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ »[2] . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لما نزلت « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ »[3] قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قَرُبت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ »[4] الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٠ سورة هود . (٣) أوّل سورة القمر .
(٤) أوّل سورة الأنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

قرأ المفضّل عن عاصم « تَنَزَّل الملائكةُ » والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائى عن أبى بكر عن عاصم باختلاف عنـه والأعمش « تُنَزَّل الملائكةُ » غير مسمى الفاعل . وقرأ الجُعْفى عن أبى بكر عن عاصم « نُنَزِّلُ الملائكةَ » بالنون مسمى الفاعل ، الباقون « يُنَزِّل » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيـه لاسم الله عز وجل . وروى عن قتادة « نُنْزِل الملائكةَ » بالنون والتخفيف . وقرأ الأعمش «تَنْزِل» بفتح التـاء وكسر الزاى، من النزول . « الملائكةُ » رفعاً مثل « تَنَزَّل الملائكة »(١) . ﴿ بِالرُّوح ﴾ أى بالوحى وهو النبوّة ؛ قاله ابن عباس . نظيره « يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »(٢) . الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذى يجب اتباعه . وقيـل أرواح الخلق ؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء مَلَك إلا ومعه واحد منهم . وقيل بالرحمة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل بالهداية؛ لأنها تحيا بهـا القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيـه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيـدة : الروح هنا جبريل . والبـاء فى قوله : « بالروح » بمعنى مع، كقولك : خرج بثيابه ، أى مع ثيابه . ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى بأمره . ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ ﴾ أى على الذين اختارهم الله للنبوّة . وهذا ردّ لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٣) . ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير ممـا يخاف منه . ودلّ على ذلك قوله : « فاتقون » . و «أنْ » فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، فـ « أن » فى محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

(١) آية ٤ سورة القدر .　(٢) آية ١٥ سورة غافر .　(٣) آية ٣١ سورة الزخرف .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيـل : « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت . ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شيء .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لمـا ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أُبَىّ بن خلف الجُمَحى ، جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعظم رَميم فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ماقد رَمّ . وفى هـذا أيضا نزل « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ »(١) أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم فى الأمور . فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ »(٢) وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أى مخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته . و ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : يبيّن عن نفسه الخصومة بالبـاطل . والمبين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعـالى : وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لمـا ذكر الإنسان ذكر ما مَنّ به عليه . والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة . قال حسان :

(١) آية ٧٧ سورة يس . (٢) آية ٧٨ سورة يس .

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ * إلى عَذْراءَ منزلُها خَلاءُ (١)
دِيارٌ من بَنِى الحَسْحَاس قَفْـرٌ * تُعَفِّيهـا الروامسُ والسماء (٢)
وكانت لا يزال بهـا أنيس * خِلالَ مُرُوجها نَعَمٌ وشَاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً . وقال الجوهرى : والنَّعم واحد الأنعام وهى المـال الراعية ، وأكثر ما يقع هـذا الآسم على الإبل . قال الفَرّاء : هو ذكَر لا يؤنث ، يقولون : هـذا نَعَم وارد ، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان . والأنعام تذكّر وتؤنث ؛ قال الله تعالى : «مِمّا فِى بُطُونِهِ» (٣) . وفى موضع «مِمّا فى بُطُونِها» (٤) . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان ، أو بفعل مقدّر ، وهو أوجه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدِّفْء : السَّخانة ، وهو ما استُدْفِئَ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ملابسَ ولُحُف وقُطُف (٥) . وروى عن ابن عباس : دفؤها نسلها ؛ والله أعلم

قال الجوهرى فى الصحاح : الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ؛ قال الله تعالى : « لكم فِيها دفْء » . وفى الحـديث " لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق " . والدفء أيضا : السخونة ، تقول مـنه : دَفِئَ الرجل دفَاءة مثـل كَرِه كراهة . وكذلك دَفِئَ دَفَأً مثـلُ ظمئ ظمأ . والاسم الدِّفْء ( بالكسر ) وهو الشىء الذى يدفئك ، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دفء ؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفاءة ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد فى دِفء هذا الحـائط أى كِنّه . ورجل دفِئ على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفئـه . وكذلك رجل دفآن وامرأة دفآى . وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واسـتدفأ به ، وادّفأ به وهـو افتعل ؛ أى لبس ما يدفئه . ودَفُؤت ليلتنا ، ويوم دَفِىء على فعيل وليلة دفيئة ، وكذلك الثوب والبيت . والمُدْفِئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها ، وقد يشدّد . والمُدْفَأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمعى . وأنشد الشماخ :

وكيف يَضيع صـاحبُ مُـدْفآتٍ * عـلى أثباجهن من الصَّـقيع (٦)

(١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بغوطة دمشق . (٢) الحسحاس : اسم رجل . والروامس : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار . (٣) آية ٦٦ من هذه السورة .
(٤) آية ٢١ سـورة المؤمنون . (٥) القطف ( جمع قطيفة ) : كساء له خمل ؛ أى وبر .
(٦) أثباج : جمع ثبج ، وهو وسطها . وقيل ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهرها .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنَافِـعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمـل والألبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثـــة — دلت هـذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبـله كموسى وغيره . وفى حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين...الحديث ،خرجه مسلم وغيره . قال ابن العربى :وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين، وآختيار الزهاد والعارفين، وهو يلبس ليّناً وخشنا وجيدا ومُقارِباً(١) ورديئا، و إليه نسب جماعة من الناس الصوفية؛لأنه لباسهم فى الغالب، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدنى بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناس فى الصوفىّ واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحَـل هـذا الآسم غيرَ فتًى * صافَى فصوفى حـتى سُمِّىَ الصوفى

قوله تعـالى : وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمـال ما يتجمّل به و يتزين . والجمـال : الحسن . وقد جمُـل الرجل ( بالضم ) جمـالا فهو جميل، والمرأة جميلة، و جملاء أيضا؛ عن الكسائى . وأنشد :

فهى جَمْـــلاء كبدرٍ طالع * بذّت الخـــلق جمـيعا بالجمال

وقول أبى ذؤيب :

* جمالَكَ أيّها القلبُ القريح *(٢)

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمـال يكون فى الصورة وتركيب الخِلقــة، و يكون فى الأخلاق الباطنة، و يكون فى الأفعال . فأما جمال الخِلقــة فهو

---

(١) شىء مقارب (بكسر الراء) : وسط بين الجيد والردىء .

(٢) هذا صدر البيت، وعجزه كما فى اللسان :

* ستلقى من تحب فتستريح *

أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئىّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان؛ قاله السدّىّ . ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل درّها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » وذلك فى المواشى حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرّواح رجوعها بالعشىّ من المرعى، والسّراح بالغداة؛ تقول : سَرَحتُ الإبل أسرحها سَرْحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هى . المتعدّى واللازم واحد .

قوله تعالى : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله . وقيل : المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا [1] » . والبلد مكة، فى قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم فى كل بلد مسلكه على الظهر . وشِقّ الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين . قال الجوهرى : والشّق المشقة؛ ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ »

(١) آية ٢ سورة الزلزلة .

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوىّ : وكسر الشين وفتحها فى « شِق » متقاربان، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق فى العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبى : وقرأ أبو جعفر « إلا بِشَــقّ الأنفس » وهمــا لغتان ، مثل رِقّ ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل . وينشد قول الشاعر (١) بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى ويحسِبُها له * أخِى نَصَب من شِقّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَقت عليه أَشُق شَقًّا . والشِّق أيضا بالكسر النصف، يقال: أخذت شِقّ الشاة وشِقّة الشاة. وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أى لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شِق منها، أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الاخر. والشِّق أيضا الناحية من الجبل. وفى حديث أم زَرْع : وجدنى فى أهل غُنيمة بِشَق . قال أبو عبيــد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشِق نفسى. وشِقّ اسم كاهن من كهان العرب. والشق أيضا : الجانب؛ ومنه قول آمرئ القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشِـــقٍّ وتحتِي شِـــقُّها لم يُحَوَّلِ

فهو مشترك .

الثانيـــة — مَنّ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخَصّ الإبل هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فان الغنم للسَّرْح والذبح ، والبقر للحرث، والإبل للحمل . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليهــا التفتت إليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهــذا ولكنى إنمــا خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تَكَلّم " ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وإنى أومن به وأبو بكر وعمر ". فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب، وإنمــا هى للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل (٢) .

---

(١) هو النمر بن تولب، كما فى اللسان مادة شقق . (٢) الرسل ( بالكسر) : اللبن .

الثالثـــة — فى هذه الاية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف فى الحمل مع الرفق فى السير . وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسـلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسـلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيَها[1] " رواه مالك فى الموطأ عن أبى عبيـد عن خالد بن مَعْدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبى الدّرداء جمل يقال له دمون، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمنى عنـد ربك . فالدواب عُجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليـه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيّعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدى الله تعـالى . وروى مطر بن محمد قال : حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيّب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمّالا وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَـالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَـةً ج وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فيـــه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ ﴾ بالنصب معطوف، أى وخلق الخيـل . وقرأ آبن أبى عَبْـلة « والخيلُ والبِغالُ والحميرُ » بالرفع فيهـا كلها . وسُمِّيت الخيل خيلا لآختيالها فى المِشْية . وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضَيْن . وقيل لا واحد له . وقد تقدم هـذا فى « آل عمران[2] » ، وذكرنا الأحاديث هناك . ولمـا أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

---

(١) قوله « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنق ( بكسر النون وسكون القاف ) هو المخ . ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ اذ ليس فى الأرض ما يقويها على السير .

(٢) راجع ج ٤ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لمـا يتعلق بهـا من الركوب؛ فإنه يكثر فى الخيل والبغال والحمير .

الثانيـــة — قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمـة منه تعـالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا آختلاف بينهم فى ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور فى كتب الفقه .

الثالثـــة — لا خلاف بين العلماء فى اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى : « وتَحْمِلُ أثقالكم » الآية . وأجازوا أن يُكرِى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمّ أين ينزل منهـا ، وكم من مَنْهَل(١) ينزل فيـه ، وكيف صفة سـيره، وكم ينزل فى طريقه، وآجتزوا بالمتعارف بين الناس فى ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منـه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرَوِىّ ولم يصف رُقعته وذرعه : لم يجز؛ لأن مالكا لا يجيز هـذا فى البيع، ولا يجيز فى ثمن الكراء إلا ما يجوز فى ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف فى هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما آشترط فتلِفت أن لا شىء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليهـا عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزا ؛ فكان الشافعىّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليـه الكراء . وقال ابن أبى لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليـه . وفيه قول ثالث — وهو أن عليـه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليـه فى قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح الدابة، ويُعـلم أن مثله

(١) المنهل : المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السُّفّار على المياه مناهل .

لا تعطَب فيه الدابة ، ولَربّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخـلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَـدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليـله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيـه إذنٌ وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطَب في مثلها عُلم أن هلاكها ممـا أذن له فيه .

الرابعــة — واختلف أهل العلم في الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى ، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدّى كراء ؛ هكذا قال الثورى . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب . وقال الشافعىّ : عليـه الكراء الذى سمّى ، وكراء المثـل فيما جاوز ذلك ، ولو عطِبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخةُ أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن . وقال أحمـد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكترى الغاية التى اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحـوَه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة ، فلربّهـا كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدّى . ابن المَوّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة المِيل ونحوه : وأما مايعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن المـاجِشُون وأَصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذى تكاراها إليه بيسير ، ثم رجع بها سالمـة إلى موضعٍ تكاراها إليه فماتت ، أو ماتت في الطريق الى الموضع الذى تكاراها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة ، كردّه لمـا تسـلّف من الوديعـة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التى يتغيّر في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة ؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُعِن على قتلها فهلاكها بعـد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعـد ردّه لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها .

الخامســـة — قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : «والخيلَ والبِغالَ والحِمير لِتركبوها وزِينةً » جعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لمـا نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه . وقال فى الأنعام : « ومنها تأكلون » مع ما امتن الله منها من الدفء والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهــذه الآية آحتج ابن عباس والحَكَم بن عُيَيْنــة، قال الحَكَم : لحوم الخيل حرام فى كتاب الله، وقرأ هذه الآية والتى قبلها وقال : هذه للاكل وهذه للركوب . وسـئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب، وقرأ الآية التى قبلها « والأنعامَ خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافِـعُ » ثم قال : هذه للاكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعىّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم، وآحتجوا بما خرجه أبو داود والنَّسائى والدَّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقْدام ابن مَعْدِيكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خَيْبَر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير،وكلّ ذى ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير . لفظ الدَّارَقُطْنِيّ . وعند النَّسائى أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ صـلى الله عليه وسلم يقول : ” لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير “. وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين : هى مباحة . وروى عن أبى حنيفة . وشَذّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا، وروى عن أبى حنيفة . حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانِيّ فى بحر المذهب على مذهب الشافعىّ .

قلت : الصحيح الذى يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل،وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة . أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر، والسورة مكية ، وأىّ حاجة كانت إلى تجديد تحـريم لحوم الحُمر عَامَ خَيْبَر وقد ثبت فى الأخبار تحليلُ الخيــل على ما يأتى . وأيضا لمـا ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمــل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به ، وقد تُركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى : « الّذِى جَعل لكم الأنعامَ لِتركبوا

منهــا ومنها تأكلون»[(١)] . وقال فى الخيــل : «لِتركبوها وزينــةً» فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها،ولم يذكر حمل الأثقال عليها،وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل . وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذى جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتى، ولا يلزم من كونهــا خلقت للركوب والزينة ألّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذى أنطق كلّ شئ فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم مَن عَلّل أن الخيــل لا تؤكل لأنهــا خلقت للركوب ألّا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسّنّة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن فى لحوم الخيــل . وقال النسائىّ عن جابر : أطعمنا رســول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر . وفى رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رســول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهــم أكلوها فى خَيْــبَر حكايةُ حال وقضيّةٌ فى عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر و إخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت : نَحَرْنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم . وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يعرّج عليه . وقد روى الدّارقطنىّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل فى حديث أسماء، قالت أسماء : كان لنــا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليــه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. و بالله التوفيق . فان قيل : حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمــار؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول فى القول به ، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان فى مقــابلة النص فهو فاســد الوضع لا التفات إليه . قال الطبرىّ : وفى إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

---

(١) آية ٧٩ سورة غافر .

السادســـة — وأما البغال فإنها تلحق بالحمير ، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل ؛ فإنها تكون متولّدة من عينين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخيــل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلّب التحريم على ما يلزم فى الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهــل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحــلّ به الذبيحــة . وقد مضى فى «الأنعام»[1] الكلام فى تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة . وقد علّل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّى رجسا .

السابعــــة — فى الآية دليل على أن الخيــل لا زكاة فيهــا ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِرَاك بن مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة " . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر فى الرقيق " . وبه قال مالك والشافعىّ والأوزاعىّ والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفــة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففى كل فرس دينــار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتى درهم خمسةَ دراهم . وآحتج بأثر عن النبىّ صلى الله عليه وســلم أنه قال : " فى الخيل السائمة فى كل فرس دينــار " وبقوله صلى الله عليــه وسلم : " الخيــل ثلاثة ... " الحــديث . وفيه : " ولم ينس حق الله فى رقابهــا ولا ظهورها " . والجواب عن الأوّل أنه حديث لم يروه إلا غورك[2] السعدى عن جعفر بن محمد عن أبيــه عن جابر . قال الدّارَقُطْنِىّ : تفرّد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومَن دونه ضــعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليهــا إذا وقع النّفير وتعيّن بها لقتال العدو إذا تعيّن ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله فى رقابها . فإن قيل : هــذا هو

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ وما بعدها . (٢) هو غورك بن الخضرم أبو عبد الله . (عن الدارقطنى) .

الحق الذى فى ظهورها وبقى الحق الذى فى رقابهـا ؛ قيل : قد روى " لا ينسى حـقّ الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " فى رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلّق بجملتها . وقد قال جمـاعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّـد شبعها والإحسان إليها وركوبهـا غير مشقوق عليهـا ؛ كما جاء فى الحـديث " لا تتخـذوا ظهورها كراسى " . وإنمـا خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا فى مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه فى الرباع والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيّر :

غَمْـــر الرداء إذا تبسّم ضاحكا ＊ غَلِقتْ لِضَحْكَته رِقابُ المـال (١)

وأيضا فإن الحـيوان الذى تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولمـا خرجت الخيـل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها . وأيضا فإيجابه الزكاة فى إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه، وليس فى الحـديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور فى نفى الصـدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لالدرّه، ولا تجب الزكاة فى ذكوره فلم تجب فى إناثه كالبغال والحمير . وقد روى عنـه أنه لا زكاة فى إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهـذا الذى عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر فى صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزُّهْرِىّ وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيرية عن الزهرى أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبى يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهـذا حجة لأبى حنيفة وشيخه حمـاد بن أبى سليمان، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة فى الخيل غيرهما . تفرّد به جُوَيرية عن مالك وهو ثقـــة .

الثامنـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتزيّن به، وهذا الجمـال والتزيين وإن كان من متاع الدنيـا فقد أذن الله سـبحانه لعباده فيه؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : " الإبل عزّ

---

(١) الغمر : المـاء الكثير . ورجل غمر الرداء، وغمر الخلق، أى واسع الخلق . كثير المعروف سخىّ .

لأهلها والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير". خرّجه البَرْقانى وابن ماجه فى السنن . وقد تقدّم فى الأنعام . و إنما جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم العز فى الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزْو و إن نقصها الكَرّ والفَرّ . وجعل البركة فى الغنم لمـا فيهـا من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد فى العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدّادين[1] أهل الوَبَر . وقرن النبيّ صلى الله عليه وسلم الخير بنواصى الخيل بقيـة الدهر لمـا فيهـا من الغنيمة المسـتفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغَلَب الكفار و إعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض والبر والبحر ممـا لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيـل : « ويخلق ما لا تعلمون » مما أعد الله فى الجنة لأهلها وفى النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قَتادة والسُّدّى : هو خلق السوس فى الثياب والدود فى الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش؛حكاه المـاوَرْدِيّ . الثعلبى : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثـل السموات السبع والأرضين السـبع والبحار السبع سبعين مرّة، يدخله جبريل كلّ سَحَر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره و جمالا إلى جماله وعِظَما إلى عظمه، ثم ينتفض فيُخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف مَلَك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفى الكعبة سـبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس — وهو ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى فى الأرض،قالوا : يارسول الله، من ولد آدم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق آدم". قالوا : يارسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق إبليس" — ثم تلا "ويخلق ما لا تعلمون" ذكره المـاوردى .

(١) الفدّادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المـائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهق عن الشعبي قال : إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا و بين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخـلوق، رَضْراضهم[1] الدُّرّ والياقوت وجبالهم الذهب والفضــة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هى طعـامهم وشجر لهـا أوراق عراض هى لباسهم ؛ ذكره فى بدء الخـلق من ( كتاب الأسمـاء والصفات ) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبـد الله الأنصارى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " أذن لى أن أحدّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " .

قوله تعـالى : وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْـدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أى على الله بيـان قصد السبيل، فحـذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام، أى على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين. وقصد السبيل : استعانة الطريق؛ يقال : طريق قاصد أى يؤدّى إلى المطلوب . ﴿ ومِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أى ومن السبيل جائر؛ أى عادل عن الحق فلا يهتدى به؛ ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقــة جائر وهُــدًى ✻ قصد السبيل ومنــه ذو دخل

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيَّــةٌ أو من سَفِين ٱبن يامِنٍ ✻ يَجُور بها المــلّاح طَوْرًا ويَهتــدِى

العَدَوْلِيّة سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . والعَدَوْلِيّ : المَلّاح؛ قاله فى الصحاح. وفى التنزيل « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ » وقد تقدّم[2] . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق، أى عادل عنه فلا يهتدى إليه . وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثانى — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض : ما دق من الحصى . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

والنصرانية. وفى مصحف عبد الله « ومنكم جائر » وكذا قرأ علىّ « ومنكم » بالكاف . وقيل : المعنى وعنها جائر؛ أى عن السبيل . ف « من » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه . وقيل : معنى « قَصْد السبيل » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة فى لغة أهل الحجاز .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيّن أن المشيئة لله تعـالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس فى تأويل الآية ، ويرد على القَدَرية ومن وافقها كما تقدم .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

الشراب ما يُشرب ، والشجر معروف . أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . و ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم ؛ يقال : سامت السائمة تسوم سَوْمًا أى رعت ، فهى سائمة . والسَّـوَام والسائم بمعنًى ، وهو المـال الراعى . وجمع السائم والسائمة سـوائم . وأسمتها أنا أى أخرجتها إلى الرَّعْىِ، فأنا مُسِيم وهى مُسامة وسائمة . قال :

* أَوْلَى لك ٱبنَ مُسِيمة الأجمال (١) *

وأصل السَّـوْم الإبعاد فى المرعى . وقال الزجاج : أُخذ من السُّومة وهى العلامة؛ أى أنهـا تؤثر فى الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعلَّم للإرسال فى المرعى .

قلت : والخيـل المسومة تكون المرعيّـة . وتكون المُعَلَّمة . وقوله : « مُسَوِّمين » قال الأخفش تكون مُعَلَّمين وتكون مُرْسَلين ؛ من قولك : سـوّم فيها الخيل أى أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنمـا جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره كما فى تفسير الطبرى : * مثل ابن بزعة أو كآخر مثله *

قوله تعالى : يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم « نُنبِت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛ يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى ، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأنشد الفراء :

رأيت ذوى الحاجاتِ حول بيوتهم * قَطِينا بها حتى إذا أنبت البقل

أى نبت . وأنبته الله فهو منبوت ، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونَبَّتَ الشجرَ غرسه ؛ يقال : نَبِّت أجلَك بين عينيك . ونَبَّتُّ الصبيّ تنبيتا ربّيته . والمَنْبِت موضع النبات ؛ يقال : ما أحسنَ نابتةَ بنى فلان ؛ أى ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم . ونَبَتَتْ لهم نابتةٌ إذا نشأ لهم نشء صغار . وإن بنى فلان لنابتةُ شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبيت حىّ من اليمن . واليَنبوت شجر ؛ كلّه عن الجوهرىّ . ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ جمع زيتونة . ويقال للشجرة نفسها : زيتونة ، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام »(١) حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الإنزال والإنبات . ﴿ لَآيَةً ﴾ أى دلالة . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى للسكون والأعمال ؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »(٢) . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ أى مُذَلَّلات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم فى الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهل الشام « والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ » بالرفع

(١) راجع ج ٧ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) آية ٧٣ سورة القصص .

على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبـله . وقرأ حفص عن عاصم برفع « والنجومُ » ، « مسخراتٌ » خـبره . وقرئ « والشمسَ والقمرَ والنجومَ » بالنصب . « مسخراتٌ » بالرفع، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة، كقوله : « وَهُـوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »(١) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى عن الله ما نبهم عليه ووفقهم له .

قوله تعالى : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أى وسخر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَ » أى خلق؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءًا خلقهم، فهو ذارئ ؛ ومنـه الذُّرِّية وهى نسـل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك، أى ذريّتك . وأصل الذَّرْو والذَّرْء التفريق عن جمع . وفى الحديث(٢) : ذرء النار؛ أى أنهم خلقوا لهـا .

الثانيـــة — ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتنى يهودُ حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقـال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شىء أعظم منـه، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلِّهـا ما علمت منها وما لم أعلم، من شرّ ما خلق وبَرَأ وذرأ . وفيـه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث . وفيه : وشر ما ذَرَأ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية .
(٢) أى فى حديث عمر رضى الله وقد كتب إلى خالد : وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ « مختلفا » نصب على الحال . و «ألوانُه» هيئاته ومناظره، يعنى الدواب والشجر وغيرها . ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فى اختلاف ألوانها . ﴿ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة . ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتّعظون ويعلمون أن فى تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

فيـــه تسع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهـذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام فى البحر وفى صيده[(١)] . وسماه هنا لحمـا واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس ، ولحم ذوات المـاء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضـلا، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسـمك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف ، وكذلك الوحش مختلف ، وكذلك الطير ، وكذلك السـمك، وهو أحد قولى الشافعىّ . والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصـيد والطير والسمك جنس واحد لا يجـوز التفاضل فيـه . والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام فى حياتها فقال : « ثَمَـانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثنين ومن المعز اثنين »[(٢)]

(١) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة و جـ ٦ ص ٣١٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعام .

ثم قال : « وَمِن الإبل اثنين ومن البقر اثنين » فلمـا أن أم بالجميع إلى اللحم (١) قال : « أحلت لكم بهيمـة الأنعام » بجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال فى موضع آخر : « ولَحْمِ طَيْرٍ ممَّا يَشْتَهُونَ (٢) » وهـذا جمع طائر الذى هو الواحد، لقوله تعالى : « ولَا طائرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ (٣) » بجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « لَحْماً طَرِيًّا » بجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره فى الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش أشىء واحد؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم . ولا حجة للمخالف فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مِثْلًا بمثل ؛ فان الطعام فى الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبِق الفهم منـه إلى أكل اللحم ، وأيضا فانه معارَض بقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم" وهذان جنسان ، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لا لعلة أنه بَيْـع طعام لا زكاة له بِيع بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانيــة — وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيـع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سُحْنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه ممـا يدّخر .

الثالثـة — اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما؛ فقال ابن القاسم : يحنَث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب فى المجموعة . لا يحنث إلا بكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوىّ، وهو أحسن .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْه حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعنى به اللؤلؤ والمَرْجان ؛ لقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجَانُ (٤) » . وإخراج الحِلية إنمـا هى فيما عرف من الملح فقط . ويقال : أن فى الزمرذ بحريا . وقد خُطِّئَ الهُذَلىّ فى قوله فى وصف الدرّة :

(١) فى الأصول : « فلما أن أم الجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم .

(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٤) آيه ٢٢ سورة الرحمن .

فجـاء بها من دُرّة لَطِمِيّة * على وجهها ماء الفرات يَدوم (١)

فجعلها من المـاء الحلو. فالحلية حق وهى نِحلة الله تعالى لآدم وولده. خلق آدم وتُوِّج وكُلِّل بإكليل الجنـة، وختم بالخاتم الذى ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم، وكان يقال له خاتم العز فيما روى.

الخامســة — امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بمـا يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنمـا حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير. روى الصحيح عن عمر بن الخطـاب قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم: "لا تلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة". وسيأتى فى سورة «الحج» (٢) الكلام فيـه إن شاء الله. وروى البخاريّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب، وجعل فصّه ممـا يلى باطن كفه، ونقش فيه محمد رسول الله؛ فاتخذ الناس مثله، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال: "لا ألبسه أبدا" ثم اتخـذ خاتمـا من فضة فاتخـذ الناس خواتيم الفضة. قال ابن عمر: فلبس الخاتمَ بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، حتى وقع من عثمان فى بئر أَرِيس (٣). قال أبو داود: لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده. وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال. قال الخطابيّ: وكره للنساء التختم بالفضـة؛ لأنه من زِىّ الرجال، فإن لم يجدن ذهبا فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه. وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب؛ إلا ما روى عن أبى بكر بن عبـد الرحمن وخَبّاب، وهو خلاف شاذ، وكل منهما لم يبلغهما النهى والنسخ. والله أعلم. وأما ما رواه أنس بن مالك أنه رأى فى يد رسول الله صـلى الله عليـه وسلم خاتمـا من وَرِق يوما واحدا، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من وَرِق ولبسوها، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم — أخرجه الصحيحان واللفظ للبخاريّ — فهو عند العلماء

(١) اللطيمة: الجمال التى تحمل العطر. وقيل: اللطيمة العنبرة التى لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها، وهى اللطمية.　　(٢) فى قوله تعالى: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...» آية ٢٣.

(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء.

وَهَم من ابن شهاب ؛ لأن الذى نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس ، وهو خلاف ماروى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها ، مع مايشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادســة — إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلّى به ، فقد كره ابن سيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعـله فى شمـاله ، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله ؟ خفّفه سعيد بن المُسيِّب ومالك . قيل لمـالك : إن كان فى الخـاتم ذكر الله ويلبسه فى الشمال أيُستنجَى به؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأَوْلى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود : هذا حديث منكر ، وإنمـا يعرف عن ابن جريج عن زياد بن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من وَرِق ثم ألقاه . قال أبو داود : لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعـــة — روى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : " إنى اتخذت خاتما من ورِق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه " . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم ، ونهيه عليه السلام : لا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغيرذى سلطان . وروى فى ذلك حديثا عن أبى رَيحانة ، وهو حديث لاحجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : " لاينقشنّ أحد على نقشه " يردّه ، ويدل على جواز اتخـاذ الخاتم لجميع النـاس ، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهرىّ « محمد يسأل الله العافيـة » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

« لكل أجل كتاب » وقد مضى فى الرعد(١) . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتمـا بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبِعْه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليـه « رحم الله آمرأ عرف قدر نفسه » .

الثامنـــة — من حلف ألّا يلبَس حليًّـا فلبس لؤلؤا لم يحنث ؛ وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : لأنّ هذا وإن كان الاسم اللغوى يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تُخَصّ بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنَث ، وكذلك لا يستضىء بسراج فجلس فى الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمّى الأرض فراشـا والشمس سراجا . وقال الشافعيّ وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا» والذى يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفُلْك وركوب البحر فى «البقرة»(٢) وغيرها . وقوله : « مَوَاخِرَ » قال ابن عباس : جَوارِىَ ، من جَرَت تجرى . سعيد بن جُبير : معترضة . الحسن : مواقر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجىء ، مقبلةً ومدبرة بريح واحدة . وقيـــل : « مواخر » ملججة فى داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شقّ المـاء عن يمين وشمال . مَخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخْرا ومخورا إذا جرت تشق المـاء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ » يعنى جَوارِىَ . قال الجوهرى : ومَخَر السابحُ إذا شق المـاء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومخرها بالمـاء إذا حبس المـاء فيها حتى تصير أريضة ؛ أى خليقةً بجودة نبات الزرع . وقال الطبرى : المَخْرُ فى اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيّد كونه فى ماء ، وقال : إن من ذلك قول واصل مولى أبى عُيينـة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخّر الريح ؛ أى لينظر فى صوتها فى الأجسام من أين تَهُبّ ، فيتجنّب استقبالها لئلا تردّ عليه بوله . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْـلِهِ ﴾ أى ولتركبوه للتجارة وطلب الربح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا فى « البقرة »(٣) والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

قوله تعـالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثابتة . رَسَا يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فصَبَرْتُ عارِفةً لذلك حُرَّةً (١) * ترسو إذا نفسُ الجبان تطلَّعُ

﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى لئلا تَميد ؛ عنـد الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْـد : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يَميد ميـدا إذا تحـرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر . قال وهب بن مُنَبِّه : خلق الله الأرض فجعلت تميـد وتمور ، فقـالت الملائكة : إن هـذه غير مقرّة أحدا على ظهـرها فأصبحت وقد أُرْسِيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال . وقال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه : لمـا خلق الله الأرض قَمَصت ومالت وقالت : أيْ رَبّ ! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصى والخطايا ، ويلقى عليّ الجِيف والنَّتْن ! فأرسى الله تعالى فيهـا من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذيّ فى آخر ( كتاب التفسير ) حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا خلق الله الأرض جعلت تَمِيد فخلق الجبال فعاد بهـا عليها فاستقرّت فعجبت الملائكة من شدّة الجبال قالوا يارَبّ هل مِن خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهـل من خلقك شى أشـدّ من النار قال نعم المـاء قالوا يارب فهـل من خلقك شيء أشـدّ من المـاء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشـدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصـدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

---

(١) البيت لعنترة العبسى . يقول : حبست نفسا عارفة ، أى صابرة . وقبله :

وعلمت أن منيّتى إنْ تأتـنى * لا ينجى منهـا الفـرار الأسرع

قلت : وفى هذه الآية أدلّ دليل على استعمال الأسباب، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدّم هـذا المعنى . ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقى فيهـا أنهارا . ﴿ وَسُبُلًا ﴾ أى طُـرُقا ومسالك . ﴿ لَعَلَّـكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى حيث تقصِدون من البـلاد فلا تضلون ولا تتحيّرون .

قوله تعـالى : وَعَلَامَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار؛ أى جعـل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعنى بالليل، والنجمُ يراد به النجـوم . وقرأ ابن وَثّاب « و بِالُّنجْم » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقـير بيننا قاضٍ حَكَمْ * أن تَرِدَ المـاءَ إذا غاب النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ « النُّجْم » إلا أنه سَكّن استخفافا . ويجـوز أن يكون النُّجُم جمع نَجْم كسُقُف وسَقْف . واختلف فى النجوم؛ فقال الفراء : الجَدْى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حـتى إذا ما استقلّ النجمُ فى غَلَس * وغُودر البَقْـــلُ مَلْوِىٌّ ومحصـودُ[(١)]

أى منـه ملوِىّ ومنه محصود ، وذلك عنـد طلوع الثريا يكون . وقال الكَلْبِىّ : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتَدَى بهـا ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِىّ . وقيل : تم الكلام عنـد قوله « وعلاماتٍ » ثم ابتدأ وقال : « و بِالنَّجْمِ هم يهتدون » . وعلى الأول : أى وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بهـا . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما — فى الأسفار،

(١) البيت لذى الرمة . ومعنى « استقل » طلع فى آخر الليـل . وفى ديوانه : « أحصد » بدل « غودر » . وأحصد : حان حصاده .

وهـذا قول الجمهور . الثانى — فى القِبْلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وبِالنَّجْمِ هم يهتدون » قال : " هو الجَدْىُ يابْنَ عباس، عليه قبلتكم و به تهتدون فى برِّكم و بحركم " ذكره المـاوردى .

الثانيـــة — قال ابن العربى : أما جميع النجـوم فلا يهتدى بهـا إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين. وأما الثُّرَيَّا فلا يهتدى بها إلا مَن يهتدى بجميع النجوم . و إنما الهَدْى لكل أحد بالجَدْى والفَرْقَدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة فى المكان ، فإنهـا تدور على القطب الثابت دورانا محصّلا، فهى أبدا هَـدْىُ الخلق فى البَرّ إذا عميت الطرق ، وفى البحر عنـد مجرى السفن ، وفى القِبْلة إذا جهل السَّمْت ، وذلك على الجمـلة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فمـا استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : وسأل ابنُ عباس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجَدْى عليـه قبلتكم و به تهتـدون فى بركم و بحركم " . وذلك أن آخر الجـدى بنات نَعْش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثـــة — قال علمـاؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالهـا و إصابتها وقصـد جهتها بجميع بدنه . والآخر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصـلّى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلّى مجتهدا مستدِلّا ثم انكشف له بعـد الفراغ من صلاته أنه صـلى إلى غير القبـلة أعاد إن كان فى وقتها، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » (١) مستوفًى والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى . ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع ، كما يُخبر عمن يعقل على ما تستعمله العرب في ذلك ؛ فإنهـم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « مَن » كقوله : « أَلَهُمْ أَرْجُلٌ » . وقيل : لاقتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه عليَّ الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا ؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المَهْدَوِيّ : ويسأل بـ«مَن» عن الباري تعالى ولا يسأل عنه بـ«ما» ؛ لأن «ما» إنما يسأل بها عن الأجناس ، والله تعالى ليس بذي جنس ، ولذلك أجاب موسى عليه السـلام حين قال له : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى »[1] ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ العالمين » إلا بجواب «مَن» وأضرب عن جواب «ما» حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحقّ ممن هو مخـلوق لا يضر ولا ينفع ؛ « هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »[2] « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ »[3] .

قوله تعـالى : وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ تقدم في إبراهيم[4] . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللهُ يَعْـلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفًى .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

(١) آية ٤٩ سورة طه . (٢) آية ١١ سورة لقمان . (٣) آية ٤٠ سورة فاطر .

(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قراءة العامة «تدعون» بالتاء لأن ماقبله خطاب . روى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص « يدعون » بالياء، وهى قراءة يعقوب . فأما قوله : «ما تُسِرّون وما تُعلنون» فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هُبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا يقدرون على خلق شىء ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ . ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى هم أموات، يعنى الأصنام، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أى هى جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعنى الأصنام . ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السُّلَمِىّ «إِيّان» بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ«يبعثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك . وقد قيل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهى فى الدنيا جماد لا تعلم متى تبعث . قال ابن عباس : تبعث الأصنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبدتها يوم القيامة؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »(1) . وقيل : تمّ الكلام عند قوله : « لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهذا الموت موت كفر . « ومايشعرون أيان يبعثون » أى وما يدرى الكفار متى يبعثون، أى وقت البعث؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعالى : إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(1) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لمـا بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه . ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردّ على القدرية . ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة »(١) معنى الاستكبار . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : «لا جرم» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا؛ يقال : فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول فى هذا فى «هود»(٢) مستوفًى . ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثنى عليهم . وعن الحسين بن علىّ أنه مرّ بمساكين قد قـدّموا كِسَرًا بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغـذاءَ يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبونى؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه و إخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفى الحديث الصحيح " إن المتكبرين يحشرون أمثال الذّرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" . أوكما قال صلى الله عليه وسلم : " تَصْغُر لهم أجسامُهم فى المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتَعْظُم لهم فى النار حتى يضرهم عِظَمُها " .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعنى و إذا قيل لمن تقـدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيـه، وكان خرج إلى الحيرة فاشـترى أحاديث (كَليلة ودِمْنـة) فكان يقرأ على قريش و يقول : ما يقـرأ محمد على أصحـابه إلا أساطير الأولين؛ أى ليس هو من تنزيل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ربّنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقولهم : « أساطير الأوّلين » فأقروا بإنكار شيء هو أساطير الأوّلين . والأساطير : الأباطيل والتُّرّهات . وقد تقدّم في الأنعام.(١) والقول في « ماذا أنزل ربكم » كالقول في « ماذا ينفقون »(٢) وقوله : ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ خبر ابتداء محذوف، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ قيل : هي لام كَيْ، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم . ﴿كَامِلَةً﴾ لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر، والمعنى التهدّد . ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال مجاهد : يحملون وِزْر من أضلّوه ولا يَنْقُص من إثم المُضَلّ شيء . وفي الخبر" أيّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيّما داع دعا إلى هُدًى فاتُّبِع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء " خرّجه مسلم بمعناه . و « مِن » للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا . ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »(٣) وقد تقدّم في آخر « الأنعام »(٤) بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

---

(١) راجع ج ٦ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٣ سورة العنكبوت . (٤) راجع ج ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْرود بن كَنْعان وقومه ، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فبَنَوا الصرح ليصعدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع ، فخرّ . كما تقدّم بيانه في آخر سورة « إبراهيم »[(١)] . ومعنى « فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم » أى أتى أمرُه البنيان ، إمّا زلزلة أو ريحا فخربته . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح في السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين ، فهبّت ريح فألقت رأسه في البحر وخرّ عليهم الباقي . ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ؛ فلذلك سُمّيَ بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية . وقد تقدّم هذا المعنى في « البقرة »[(٢)] . وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن « السُّقُف » بضم السين والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدّم في « وبالنجم » في الوجهين . والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء ، وإذا اختلت القواعد سقط البناء . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابي : وكّد ليعلمك أنهم كانوا حالّين تحته . والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « مِن فوقِهِم » ليخرج هذا الشك الذى في كلام العرب فقال : « من فوقهم » أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أى إن العذاب أتاهم من السماء التي هى فوقهم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فأتى اللهُ بنيانهم من

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨١ طبعة أولى أو ثانية .	(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

القواعد» تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سـقط عليه بنيانه . وقيـل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هـذا اختُلف فى الذين خرّ عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم . وقيـل : إنه بُخْتَنَصَّر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله فى سورة الحجر؛ قاله الكلبى . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم . ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمرودا .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٧) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم . ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ أى بزعمكم وفى دعواكم، أى الآلهة التى عبـدتم دونى ، وهو سؤال توبيخ . ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى تعادون أنبيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب . وقرأ ابن كثير « شُرَكَاىَ » بيـاء مفتوحة من غير همز ، والباقون بالهمز . نافع « تُشَاقُّونِ » بكسر النون على الإضافة ، أى تعادوننى فيهم . وفتحها البـاقون . ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ قال ابن عبـاس : أى الملائكة . وقيل المؤمنون . ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ أى الهوان والذل يوم القيامة . ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أى العذاب . ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هـذا من صفة الكافرين . و «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» نصب على الحال؛ أى وهم ظالمون أنفسهم إذ أو ردوها موارد الهلاك . ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أى الاستسلام . أى أقرّوا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُـوءٍ ﴾ أى من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقُتِلوا بها ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فى مقامهم بمكة وتركهم الهـجرة . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ يعنى فى خروجهم معهم . وفيـه ثلاثة أوجه : أحـدها — أنه الصـلح ؛ قاله الأخفش . الثانى — الاستسلام؛ قاله قُطْرُب . الثالث — الخضوع؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعنى من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى أن أعمالهم أعمال الكفار . وقيل : إن بعض المسلمين لمـا رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخـرج كافر ولا منافق من الدنيـا حتى ينقاد ويسـتسلم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا »[(١)] وقد تقدّم هـذا المعنى . وتقدّم فى « الأنفال »[(٢)] إن الكفار يتوفّون بالضرب والهـوان ، وكذلك فى « الأنعام »[(٣)] . وقد ذكرناه فى كتاب التذكرة .

قوله تعـالى : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أى يقال لهم ذلك عنـد الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليهـا مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيـل : لكل دركة

(١) آخر سورة غافر .	(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٨	(٣) راجع جـ ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فالله أعلم . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيها . ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أى مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبّروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى ، وقد بيّنهم بقوله الحق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (١) » .

قوله تعالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أى قالوا : أنزل خيرا ؛ وتمّ الكلام . و «ماذا» على هذا اسم واحد . وكان يرِدُ الرجل من العرب مكة فى أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . و يسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبى : فإن قيل: لم ارتفع الجواب فى قوله : «أساطيرُ الأوّلين» وانتصب فى قوله : « خيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذى يقوله محمد هو أساطير الأوّلين . والمؤمنون آمنوا بالنزول فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل . وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أى من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليومَ حسنةٌ فى الدنيا من النصر والفتح والغَنيمة : ﴿وَلَدَارُ

(١) آية ٣٥ سورة الصافات .

﴿ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هى جنات، فهى مبيِّنة لقوله : « دَارُ ٱلْمُتَّقِين »، أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقين . ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فى موضع الصفة، أى مدخولة . وقيل : « جنات » رفع بالابتداء، وخبره « يدخلونها » وعليه يُخَرَّج قول الحسن . والله أعلم . ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾ تقدم معناه فى البقرة[(١)] . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ أى مما تمنّوه وأرادوه . ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين .

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ قرأ الأعمش وحمزة « يتوفاهم الملائكة » فى الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد ؛ لما روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكِّروهم أنتم . الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ فيه ستة أقوال : الأوّل — « طَيِّبِين » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقةً بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيِّبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ﴿ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنى حَيْوَة قال أخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : إذا استنقعت[(٢)] نفس العبد المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال : السلام عليك وَلِىَّ الله، الله يقرأ عليك السلام . ثم نزع بهذه الآية « الذين

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) استنقع الماء : اجتمع وثبت . أى اذا اجتمعت نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء فى قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

تتوفاهم الملائكة طيّبين يقولونَ سـلام عليكم » . وقال ابن مسـعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربّك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشَّر بصلاح ولده من بعده لتقرّ عينه . وقد أتينا على هـذا فى (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة فى هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثانى — أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعـالى : هَـلْ يَنظُرونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُـمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُـمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ هـذا راجع إلى الكفار، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهـم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمـون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائىّ وخلف «يأتيهم الملائكة» بالياء . والباقون بالتاء على ما تقدّم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى بالعـذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسْف فى الدنيـا . وقيـل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هـذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بهـا ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى أصرّوا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ أى بتعذيبهم و إهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعـالى : فَأَصَابَهُـمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِـم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير، التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا، و « من » صلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة « الأنعام » مبينا معنًى وإعرابا فلا معنى للإعادة .(١) ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ أى بأن اعبدوا الله ووحّدوه . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أى بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره ، وهذا يردّ على القدرية ؛ لأنهم زعموا أن الله هـدى الناس كلهم ووفقهم للهدى ، والله تعـالى يقول : « فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْـهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا فى غير موضع . ﴿ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى فسيروا معتبرين فى الأرض . ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك .

قوله تعـالى : إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِـلُّ وَمَا لَهُـم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أى إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . فـ « يَهْدِى » فعل مستقبل وماضيه هَدَى . و « مَن » فى موضع نصب بـ « يهدى » ويجوز أن يكون هَـدَى يَهْدِى بمعنى اهتدى يهتدى ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرئ « أَمَّن لا يَهْدِى إلَّا أَنْ يُهْدَى » بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هـذا غير الفراء ، وليس بمتَّهم فيما يحكيه . النحاس : حكى لى عن محمـد ابن يزيد كأن معنى « لَا يَهْدِى مَن يُضِلّ » من علم ذلك منه وسـبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهـدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يَهْدِى أو يُهْدِى . وعلى قول الفراء « يَهِـدِى » بمعنى يهتدى ، فيكون « من » فى موضع رفع ، والعائد إلى « من » الهاء المحذوفة من الصلة ، والعائد إلى اسم « إن » الضمير المستكِنّ فى « يُضِل » . وقرأ الباقون « لَا يُهْدَى » بضم الياء وفتح الدال ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ ؛ دليله قوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ » و « مَن » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، والعائد على اسم إن من « فإنّ الله » الضمير المستكِنّ فى « يضل » . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هـذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله و بالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهـم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان فى بعض كلامـه : والذى أرجوه بعـد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لايبعث الله من يموت؛ فنزلت الاية . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليًّا مبعوث بعد الموت قَبْل الساعة، ويتأوّلون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثا قبل القيـامة مانكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . ﴿ بَلَى ﴾ هـذا ردّ عليهم؛ أى بلى ليبعثنهم . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأن قوله « يبعثهم » يدل على الوعد، أى وعد البعث وعدا حقا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبـه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شتمه إيّاى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد " . وقد تقدّم(١)، ويأتى .

قوله تعـالى : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أى ليظهر لهم . ﴿ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فيه ﴾ أى من أمر البعث . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالبعث وأقسموا عليـه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقيـل : المعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية .

ولقد بعثنا فى كل أمـة رسولا ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، والذى اختلف فيـه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبى طالب .

قوله تعـالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيـائهم، ولا فى غير ذلك مما نحدثه؛ لأنا إنما نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائى « فيكونَ » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجـوز أن يكون نصبا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه فى « البقرة » مستوفى (١) . وقال ابن الأنبارى : أوقع لفظ الشئ على المعلوم عند الله قبـل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفى الآية دليل على أن القرآن غير مخـلوق ؛ لأنه لوكان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثانى إلى ثالث وتسلسل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجميـع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليـل على ذلك أن من يرى فى سلطانه مايكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لايدرى، وإما لكونه مغلوبا لايطيق، ولا يجوز ذلك فى وصفه سبحانه، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد، ويستحيل أن يكون فاعلا لشئ وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد؛ وهذا قول الطبيعيين، وقد أجمع الموحدون على خلافه وفساده .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) راجع ج ٢ ص ٩٠ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قـد تقدّم فى « النّساء » معنى الهجرة(١)، وهى ترك الأوطان والأهـل والقرابة فى الله أو فى دين الله ، وترك السيئات . وقيل : «فى» بمعنى اللام، أى لله . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ أى عُذِّبوا فى الله . نزلت فى صُهيب و بلال وخبّاب وعمّار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ماأرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكلْبِيّ . وقيل : نزلت فى أبى جَنْدل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ فى الحسنة ستة أقوال : الأوّل — نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشَّعْبِيّ وقَتادة . الثانى — الرزق الحسن؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوّهم؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جُريج . الخامس — ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — مابقى لهم فى الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله . ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أى ولأجر دار الاخرة أكبر، أى أكبر من أن يعلمــه أحد قبل أن يشاهـده ؛ « و إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا »(٢) . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . و روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله فى الدنيا وما ادّخر لكم فى الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

قيل : ﴿الذين﴾ بدل من «الذين» الأول . وقيل : من الضمير فى «لَنُبَوِّئَنَّهُم» وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فى كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، و إذا عجز عن أمر توكل؛ قال الله تعالى : «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» .

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها، طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٢٠ سورة الانسان .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

قوله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ قراءة العـامة « يُوحَى » بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص عن عاصم « نُوحِي اليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسـوله بشرا ، فهلّا بعث إلينا مَلَكًا ؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : « وما أرسلنا مِن قبلك » إلى الأمم المـاضية يا محمد « إلا رِجالا » آدميين . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ قال سفيان : يعني مؤمني أهل الكتاب . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل : المعنى فآسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسـل كانوا من البشر . رُوِيَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيـل : أهل العلم، والمعنى متقارب . ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ قيـل : « بالبينات » متعلق بـ « أرسـلنا » . وفي الكلام تقـديم وتأخير، أي ما أرسـلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا — أي غير رجال، فـ« إلّا » بمعنى غير؛ كقوله : لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبي — نوحي اليهم . وقيل : في الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أي أرسلناهم بالبينات والزبر . ولا يتعلق « بِالبيناتِ » بـ « أرسلنا » الأول على هذا القول؛ لأن ما قبل « إلّا » لا يعمل فيما بعدها، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدّرة ، أي أرسلناهم بالبينات . وقيـل : مفعول بـ « بتعلمون » والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعني؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجيرا إن أتى الحيَّ خائف * ولا قائـــلا إلا هـــو المتعيَّبَا

أى أعنى المتعيّب . والبينات : الحجج والبراهين . والزُّبُر : الكتب . وقد تقدّم فى آل عمران[1] . ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى القرآن . ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فى هـذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصّله . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى فى مقدّمة الكتاب، والحمد لله . ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتّعظون .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى بالسيئات، وهذا وعيد للشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسلام . ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ قال ابن عباس : كما خسف بقارون، يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خسوفا ذهب فى الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أى غاب به فيها؛ ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ »[2] . وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به . والاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهم كما لحقت المكذبين . ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر؛ فإنهم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شىء منه فى حسابهم . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة . ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى مسابقين الله ولا فائتيه . وقيل : « فِى تَقَلُّبِهِم » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار . ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أى على تنقّص من أموالهم

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨١ سورة القصص .

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابي : أي على تنقّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلّهم. وقال الضحاك : هو من الخوف؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة ، فتخاف الباقيـة أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها . وقال الحسن : « على تَخَوُّفٍ » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهـذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأوّل ، وأن التخوف التنقص ، تخوّفـه تنقصه ، وتخوّفه الدهر وتخوّنه ( بالفاء والنون ) بمعنًى؛ يقال : تخوّنني فلان حقّي إذا تنقصك . قال ذو الرُّمّة :

لا ، بل هو الشّوْقُ مِن دارٍ تَخَوّنها * مَرًّا سحابٌ ومَرًّا بارِحٌ تَرِبُ (١)

وقال لبيـــد :

* تخوّنها نزولي وارتحالي * (٢)

أى تنقص لحمها وشحمها . وقال الهَيْثَم بن عَدِيّ : التخوّف ( بالفاء ) التنقص ، لغـة لأزدِشَنُوءة . وأنشد :

تخـوّف غَدْرهم مالي وأهْدَى * سلاسلَ في الحلوق لها صليل

وقال سـعيد بن المسيِّب : بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يأيها الناس، ما تقولون في قول الله عزّ وجل : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّفٍ » فسكت النـاس ، فقال شيخ من بني هُذَيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوّف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان، ما فعل دَيْنُك؟ قال : تخوّفته ، أى تنقّصته؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشـعارهم ؟ قال نعم؛ قال شاعرنا أبو كَبِير الهُذَلِيّ (٣) يصف ناقة تنقّص السير سنامها بعـد تَمْكِه واكتنازه :

تخوّف الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا * كما تخـوّف عُودَ النَّبْعـة السَّفَنُ (٤)

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير . (٢) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان :

* عُذافرة تُقَمِّص بالرُّدافَى *

(٣) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان أنه لابن مقبل وقيل لذى الرمة . (٤) القـرد : معناه هنا : المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ .

فقال عمر : يأيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .
تمك السنام يتمك تمكا، أى طال وارتفع، فهو تامك . والسَّفن والمِسْفن ما يُنْجَر به الخشب .
وقال اللّيث بن سعد : « على تخوّف » على عجل . وقيل : على تقريع بما قدموه من ذنوبهم،
وهذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « على تخوّف » أن يعاقب أو يتجاوز .
﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرأ حمزة والكسائى وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تروا ﴾ بالتاء، على أن الخطاب لجميع الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات؛ وهو الاختيار . ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس . وإن كانت الأشياء كلّها سميعة مطيعة لله تعالى . ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقون بالياء ، واختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب ، ويكون أول النهار على حال ويتقلّص ثم يعود فى آخر النهار على حالة أخرى ؛ فدورانها وميلانها من موضع إلى موضع سجودها؛ ومنه قيل للظل بالعشى : فَىْء؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أى رجع . والفىء الرجوع؛ ومنه «حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ»(١) . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الرعد»(٢) . وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم ، وسجوده انقياده وما يُرَى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام فى كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصَّغار والذّل . يقال : دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر، وأدخره الله .
وقال ذو الرمة :

فلم يَبْقَ إلا داخِرٌ فى مُخَيَّس * ومُنْجَحِرٌ(٣) فى غير أرضك فى جُحْرِ

(١) آية ٩ سورة الحجرات . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى كتب اللغة . يقال : انجحر الضب اذا دخل الجحر . والذى فى الأصول وديوان ذى الرمة : « منحجر فى غير أرضك فى حجر » بتقديم الحاء على الجيم فى الكلمتين .

كذا نسبه المـاوَرْدِى لذى الرُّمّة، ونسـبه الجوهرى للفرزدق وقال : المُخَيَّس اسم سجن كان بالعراق؛ أى موضع التذلل . وقال[١] :

أمَا تـــرانى كَيِّسًا مُكَيَّسًا * بَنَيْتُ بعــدَ نافعٍ مُخَيَّسًا

ووحّد اليمين فى قوله : «عَنِ اليَمِينِ» و جمع الشمال؛ لأن معنى اليمين و إن كان واحدا الجمع . ولو قال : عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة . وأيضا فمن شـأن العرب إذا اجتمعت علامتان فى شىء واحد أن تجمـع إحداهمـا وتفرد الأخرى؛ كقوله تعـالى : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وكقوله : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الَى النُّورِ » ولو قال على أسماعهم و إلى الأنوار لجاز . و يجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها . ومثل هذا فى الكلام كثير . قال الشاعر :

الواردونَ وتَيم فى ذُرا سَـبَإ * قد عَضّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميس[٢]

ولم يقل جلود . وقيل : وحّد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم فى حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات[٣]، فسماها شمائل .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى من كل ما يدب على الأرض . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يعنى الملائكة الذين فى الأرض، و إنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه . ونافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب؛ وكان المحبوسون يهربون منه . وقيل : إنه نقب وأفلت منه المحبَّسون؛ فهدمه على رضى الله عنه و بنى المخيس لهم من مدر .

(٢) البيت لجرير . ورواية ديوانه : تدعوك تيم وتيم فى قرى سبأ * ... ... ... الخ

(٣) هكذا وردت هذه الجملة فى الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس اذا طلعت وانت متوجه الى القبلة انبسط الظل عن اليمين فى حال، ثم يميل الى جهة الشمال فى حالات؛ فسماها شمائل .

والذى فى البحر لأبى حيان : « وقيل : وحد اليمين و جمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال؛ فهو بمعنى الجمع؛ فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدد بتعدد الحالات » .

بشرف المنزلة ، فميّزهم من صفة الدبيب بالذكر و إن دخلوا فيها ؛ كقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[(١)] . وقيل : لخروجهم من جملة ما يدبّ لمـا جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا فى الجملة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « وللهِ يسجد مافى السمواتِ » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، « وما فى الأرضِ مِن دابةٍ » وتسجد ملائكة الأرض . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم . وهـذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى عقاب ربهم وعذابه ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء . وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم؛ ففى الكلام حذف . وقيل : معنى « يخافون ربهم مِن فوقِهم » يعنى الملائكة، يخافون ربهم وهى من فوق ما فى الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف مَن دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعنى الملائكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ قيل : المعنى لا تتخذوا ٱثنين إلٰهين . وقيل : جاء قوله « ٱثنينِ » توكيدا . ولما كان الإلٰه الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإلٰه ، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفى التعديد . ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ يعنى ذاته المقدّسة . وقد قام الدليل العقلى والشرعى على وحدانيته حسبما تقدّم فى « البقرة »[(٢)] بيانه وذكرناه فى ٱسمه الواحد فى شرح الأسماء ، والحمد لله . ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون . وقد تقدّم فى « البقرة »[(٣)] .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

---

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدِّين : الطاعة والإخلاص. و « وَاصِبًا » معناه دائما ؛ قاله الفرّاء، حكاه الجوهرىّ . وَصَبَ الشيء يَصِب وُصوبا ، أى دام . ووَصَب الرجل على الأمر إذا واظب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبدا . وممن قال واصبا دائما : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى: « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ »(١) أى دائم . وقال الدُّؤَلى :

لا أبتغى الحمـد القليل بقاؤه * بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوى والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغى الحمـــد القليلَ بقاؤه * يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوَصب التعب والإعياء؛ أى تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :

لا يُمسك الساقَ من أين ولا وَصَب * ولا يَعَضّ على شُرْسُـوفِهِ الصفر(٢)

وقال ابن عباس : « واصبا » واجبا . الفراء والكلبي : خالصا . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أى لا ينبغى أن تتقوا غير الله . ف « غير » نصب ب « تتقون » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء فى « بكم » متعلقة بفعل مضمر، تقديره : وما يكن بكم . ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أى صحة جسم وسَعة رزق وولد فمن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هى . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

(١) آية ٩ سورة الصافات . (٢) الشعر لأعشى باهلة . والشطر الأول من بيت ، والثانى من بيت آخر . والبيتان :

لا يتأرّى لما فى القــدر يرقبــه * ولا يَعَض على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القــوم يقتفر

تأرّى بالمكان : أقام به . والشرسوف : غضروف — كل عظم رخص يؤكل — معـلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . والصفر (بالتحريك) : داء فى البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجوع . واقتفر الأثر : تتبعه .

أى السّقم والبلاء والقحط . ﴿ فإليه تجأرون ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جأر يجأر جؤارا. والجؤار مثل الخوار؛ يقال: جأر الثور يجأر، أى صاح. وقرأ بعضهم «عجلا جسدا له جؤار»؛ حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله ، أى تضرع بالدعاء . وقال الأعشى[1] يصف بقرة :

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة * وكان النكير أن تضيف[2] وتجأرا

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿ إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار . فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر فى القرآن ، وقد تقدم فى « الأنعام و يونس[3] » ، و يأتى فى « سبحان » وغيرها . وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر. ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كى . وقيل لام العاقبة . وقيل : « ليكفروا بما آتيناهم » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خبيث ؛ كما قال :

* والكفر مخبثة لنفس المنعم[4] *

﴿ فتمتعوا ﴾ أمر تهديد . وقرأ عبدالله « قل تمتعوا » . ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى عاقبة أمركم .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم ، وأنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضر وينفع — وهى الأصنام — شيئا من أموالهم يتقربون به اليه ؛ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . ف« يعلمون » على هذا للشركين . وقيل هى

(١) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه النابغة الجعدى .
(٢) فى الأصول : « تطيف » بالطاء . والتصويب عن اللسان وكتاب سيبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والنكير : الإنكار . والجؤار : الصياح . والمعنى : أن هذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها ، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح . (٣) راجع ج ٧ ص ٨ و ج ٨ ص ٣١٧ طبعة أولى وثانية . (٤) هذا عجز بيت من معلقة عنترة ، وصدره :

* نبئت عمرا غير شاكر نعمتى *

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعلم محذوف ، والتقدير : ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التى لا تعلم شيئا نصيبا . وقد مضى فى « الأنعام » تفسير هذا المعنى فى قوله : « فقالوا هذا لِلّهِ بِزَعْمِهِم وهذا لِشُرَكَائِنَا »(١) ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ ﴾ وهذا سؤال توبيخ . ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أى تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ نزلت فى خُزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات. وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل فى مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ أى أخبر أحدهم بولادة بنت . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى متغيرا ، وليس يريد السواد الذى هو ضد البياض ، وإنما هو كناية عن غمه بالبنت . والعرب تقول لكل من لقى مكروها : قد اسود وجهه غمًّا وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى الماوردى أن المراد سوادُ اللون قال : وهو قول الجمهور . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى ممتلىء من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذى يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكِظامة وهو شد فم القربة ؛ قاله على بن عيسى . وقد تقدّم هذا المعنى فى سورة « يوسف »(٢) .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَتَوارَى مِنَ القَوْمِ ﴾ أي يختفي ويتغيّب . ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ أي من سوء الحزن والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت . ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على « ما » . ﴿ عَلَى هُونٍ ﴾ أي هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفيّ « على هوان » والهُون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدي وحكاه أبو عبيد عن الكسائيّ . وقال الفراء : هو القليل بلغة تميم . وقال الكسائيّ : هو البلاء والمشقة . وقالت الخَنْساء :

نُهِين النفوسَ وهُونُ النفو * س يوم الكريهة أبقَى لهـا

وقرأ الأعمش «أيمسكه على سوءٍ» ذكره النحاس، قال : وقرأ الجَحْدَريّ «أم يدسّها في التراب» يردّه على قوله : « بالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت ؛ أي أيمسكها وهي مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له ؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه في التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيّة . قال قتادة : كان مُضَرُ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدهم في هـذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن . وكان صَعْصَعة بن ناجية عمُّ الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفتخر :

وعمّى الذى منَع الوائداتْ * وأحيـا الوَئيـد فلم يُوأَدِ

وقيـل : دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف، كالمدسوس في التراب لإخفـائه عن الأبصار ؛ وهذا محتمل .

مســـئلة — ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فحدّثته

حديثها، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من ابتُلى من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقى من النار . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لهـا، فأطعمتها ثلاث تمـرات فأعطت كل واحدة منهما تمـرة ، ورفعت إلى فيهـا تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتـاها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبنى شأنها، فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرّجهما أيضا مسلم رحمـه الله ! وخرج أبو نعيم الحـافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار" . وخُطب إلى عَقيل بن عُلّفة ابنته الجرباء فقال :

إنى وإن سِـيق إلىّ المَهْـرُ * أَلْفٌ وعُبدان وخُــورٌ(١) عشرُ
* أَحَبّ أصهارى إلىّ القبر *

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثةُ أصهار إذا حُمِـد الصِّهْرُ
فَبَعْلٌ يُراعيها وخِدْر يكنُّها * وقـبر يُوارِيها وخيرُهم القَـبْرُ

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى فى إضافة البنات إلى خالقهم و إضافة البنين إليهـم . نظيره « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى »(٢) أى جائرة، وسيأتى .

(١) الخور : جمع خوارة على غير قياس، وهى الناقة الغزيرة اللبن . (٢) آية ٢١ سورة النجم .

قوله تعالى : لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصْفُهم اللهَ تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتادة . وقيل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجازٍ . وقال ٱبن عباس : «مثل السوء» النار ، و «المثل الأعلى » شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ليس كمثله شيء . وقيل : « ولله المثل الأعلى » كقوله : « اللهُ نُورُ السموات والأرض مَثَلُ نُوره » (١) . فإن قيل : كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال : «فلا تضربوا لله الأمثال» (٢) فالجواب أن قوله : «فلا تضربوا لله الأمثال » أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تَدِبّ إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

(١) آية ٣٥ سورة النور .  (٢) آية ٧٤ من هذه السورة .  (٣) راجع ج ١ ص ٢٨٧ وج ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ظهر هذه الأرض من دابة من نبيّ ولا غيره ؛ وهذا قول الحسن . وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية : لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العـذابُ جميع الخلق حتى الجِعْلان[1] في جُحْرها ، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمـات الدواب ، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل ؛ كما قال : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ »[2] . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم . ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] وقد تقدم . فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنـا ليس بظالم ؟ قيـل : يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوَّضا بثواب الآخرة . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم “[4] . وعن أم سَـلمة وسئلت عن الجيش الذي يخسف به وكان ذلك في أيام ابن الزبير ، فقالت قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : ” يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بَعْث فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض خُسِف بهم “ فقلت : يارسول الله ، فكيف بمن كان كارها ؟ قال : ” يخسَف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته “ . وقد أتينا على هـذا المعنى مُجَوَّدا في ( كتاب التذكرة ) وتقدم في « المـائدة » وآخر « الأنعام »[5] ما فيه كفاية ، والحمد لله . وقيل : « فإذا جاء أجلهم » أي فإذا جاء يوم القيامة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ أي من البنات . ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ أي وتقول ألسنتهم الكذب . ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ قال مجاهـد : هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات . « الكَذِبَ » مفعول « تصف » و « أنّ » في محل نصب بدل من الكذب ؛ لأنه

---

(١) الجعلان ( بكسر الجيم جمع جعل ، كصرد ) : دابة سـوداء من دواب الأرض . (٢) آية ٣٠ ســورة الشورى . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) في صحيح مسلم : « على أعمالهم » . (٥) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ و جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

بيان له . وقيــل : « الحسنى » الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العاليــة ومجاهد وابن مُحَيْصن « الكُذُب » برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا « ولا تقولوا لِمـا تَصِف ألسنتكم الكَذِب»[(١)] . والكُذُب جمع كذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبُور وصبر وشَكُور وشُكُر . ﴿ لَا ﴾ رَدٌّ لقولهم، وتمّ الكلام، أي ليس كما تزعمون . ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي حقا أن لهم النار . وقد تقـدّم مستوفًى[(٢)] . ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ متركون منسيون في النـار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا : مبعدون . قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . والفارط : الذي يتقدم إلى المـاء؛ ومنه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " أنا فَرَطُكم على الحوض " أي متقدّمكم . وقال القَطَامِيّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنـا * كما تعجّـــل فُـــرّاط لوُرّاد

والفرّاط : المتقدّمون في طلب المـاء . والورّاد : المتأخرون . وقـرأ نافع في رواية وَرْش « مُفْرِطون » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبـد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيهـا . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أَرْبَى عليــه، وقال له أكثر ممـا قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارئ « مُفَرِّطون » بكسر الراء وتشديدها، أي مضيّعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعـالى : تَٱللَّهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ تَاللهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسـلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومُهم . ﴿ فَهُـوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي ناصرهم في الدنيـا على زعمهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

---

(١) آية ١١٦ من هذه السورة .		(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

فى الآخرة . وقيل : « فهو وليّهم » أى قرينهم فى النار . ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعنى يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعالى : وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعطف « هُدًى ورحمةً » على موضع قوله : « لِتُبيِّنَ » لأن محله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشدا ورحمة للمؤمنين .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى السحاب . ﴿ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ عاد الكلامُ إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيته؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا، فتكون هذه الدلالة . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان؛ « فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فى الصدور »(١) .

قوله تعالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

---

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

فيــه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ قد تقدّم القول فى الأنعـام[(١)]، وهى هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته . والعبرة أصلها تمثيل الشىء بالشىء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه « فَاعْتَبِرُوا »[(٢)] . وقال أبو بكر الورّاق : العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له فى كل شىء . ومن أعظم العِبَر برىء يحمل مذنبا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر ( بفتح النون ) من سَقَى يَسْقِى . وقرأ البـاقون وحفص عن عاصم ( بضم النون ) من أسقى يُسقى، وهى قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لَبِيد :

سَقَى قَومِى بنى مَجْـدٍ وأسقى　＊　نُمَيْراً والقبائلَ من هِـــلالِ

وقيل : يقال لمـا كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْباً أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ابن عَزيز، وقد تقدّم[(٣)] . وقرأت فرقة « تسقيكم » بالتاء، وهى ضعيفة، يعنى الأنعام . وقرئ بالياء، أى يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدّمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ اختلف الناس فى الضمير من قوله : « مِمـا فِي بطونِهِ » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ماقبله وهو جمـع المؤنث . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . قال ابن العربى : وما أراه عوّل عليـه إلا من هـذه الاية، وهذا لايشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لمـا كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهى الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاج .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) من آية ٢ سورة الحشر .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وقال الكسائى : معناه مما فى بطون ماذكرناه ، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى : « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ »(١) وقال الشاعر :

* مثل الفِراخ نُتِفتْ حواصلُه *

ومثله كثير . وقال الكسائى : «ممـا فِى بطونِه» أى ممـا فى بطون بعضه ؛ إذ الذكور لا ألبان لها ، وهو الذى عوّل عليـه أبو عبيدة . وقال الفرّاء : الأنعـام والنَّعَم واحد ، والنَّعَم يذكر ، ولهذا تقول العرب : هذا نَعَم وارد ، فرجع الضمير إلى لفظ النَّعم الذى هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربى : إنمـا رجع التذكير إلى معنى الجمع ، والتأنيث إلى معنى الجماعة ، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع ، وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال : «نُسقيكم مما فِى بطونِها»(٢) وبهـذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجمـاعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمْل يَبْرِين(٣) وتَيْهاء فِلَسْطين .

الرابعـة — استنبط بعض العلماء الجِلّة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير ، أن لبن الفحل يفيد التحريم ، وقال : إنما جىء به مذكّرا لأنه راجع إلى ذكر النَّعم ؛ لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة فى حديث أفلح أخى أبى القُعَيس « فللمرأة السّقى وللرجل اللقاح » فجرى الاشتراك فيه بينهما . وقد مضى القول فى تحريم لبن الفحل فى « النساء»(٤) والحمد لله .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ نبّـه سبحانه على عظيم قـدرته بخروج اللبن خالصا بين الفَرْث والدم . والفَرْثُ : الزِّبل الذى ينزل إلى الكَرِش ، فإذا خرج لم يُسَمَّ فَرْثا . يقال : أفْرَثْت الـكَرِش إذا أخرجت مافيهـا . والمعنى : أن الطعام يكون منه ما فى الكَرِش و يكون منه الدّم ، ثم يخلص اللبن من الدم ؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك و بين الدّم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

(١) آية ١١ سورة عبس . (٢) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٣) رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة . ( ياقوت ) . (٤) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

فإذا استقر فى كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسلّط على هـذه الأصناف فتقسم الدم وتميّزه وتُجريه فى العروق، وتجرِى اللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فى الكرش؛ « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » (١) . ﴿ خَالِصًا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفَرْث وقد جمعهما وعاء واحد . وقال ابن بحر : خالصا بياضه . قال النابغة :

* بخَالصة الأَرْدان (٢) خُضْر المناكب *

أى بيض الأكمام . وهذه قدرة لاتنبغى إلا للقائم على كل شئ بالمصلحة .

السادســـة — قال النقاش : فى هذا دليل على أن المَنِىّ ليس بنجس. وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال : كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المنى على مخرج البول طاهرا . قال ابن العربى : إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع . اللبن جاء الخبر عنه مجىء النعمة والمنــة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة ، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المنِىّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مَقيسا عليه .

قلت : قد يعارَض هذا بأن يقال : وأىّ مِنّة أعظم وأرفع من خروج المنى الذى يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى : « يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ » (٣)، وقال : « واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً » (٤) وهذا غاية فى الامتنان. فإن قيل : إنه يتنجس بخروجه فى مجرى البول، قلنا : هو ما أردناه، فالنّجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل : إن مَخْرَجه غير مخرج البول وخاصّةً المرأة؛ فإن مَدخل الذكر منها ومخرج الولد غيرُ مخرج البول على ما قاله العلماء . وقـد تقدّم فى البقرة . فإن قيل : أصـله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك ، فإن أصله دم وهو طاهر . وممن قال بطهارته الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابسا بظفرى . قال الشافعىّ : فإن لم يُفْرَك فلا بأس به . وكان سعد

---

(١) آية ٥ سورة القمر . (٢) الأردان : جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم .
(٣) آية ٧ سورة الطارق . (٤) آية ٧٢ من هذه السورة .

ابن أبى وقّاص يفـرك المنىّ من ثوبه . وقال ابن عبـاس : هو كالنُّخامة أمِطْه عنك بإِذْخِرة وامسحه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المنىّ من ثوب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التى تزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هـذا جَمْعًا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأَوْزاعىّ : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتـلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليـه عندنا، وهو قول الكوفيين . ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين فى نجاسة المنى وطهارته التابعون .

السابعـــة — فى هـذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميتـة فلا يجوز الانتفـاع به؛ لأنه مائع طاهر حصل فى وعاء نجس، وذلك أن ضَرْع الميتـة نجس واللبن طـاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتـة فآختلف أصحابنا فيـه، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيـا وميتا فهو طاهر . ومن قال : يَنْجُس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعـا تثبت الحرمة؛ لأن الصبى قـد يغتذى به كما يغتذى من الحيـة؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم" . ولم يخصّ؛ وقد مضى فى «النساء»(١) .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أى لذيذا هيّنا لا يَغَصّ به من شربه . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله فى الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه، يتعدّى ولا يتعدّى، والأجود أسـغته إساغة . يقال : أسِغ لى غُصّتى أى أمهلنى ولا تُعجلنى؛ وقال تعالى : «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ»(٢) . والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غُصّتك . يقال : المـاء سِواغ الغُصص؛ ومنه قول الكُمَيْت :

* فكانت سِـوَاغًا أن جَئِزْت بغُصّـة *

وروى أن اللبن لم يَشْرَق به أحد قطُّ، وروى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٧ سورة إبراهيم .

التاســـعة — فى هـذه الآية دليل على اسـتعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهـد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « المـائدة »(١) وغيرها . وفى الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هـذا الشراب كله : العسل والنبيذ واللبن والمـاء . وقـد كره بعض القـراء أكل الفالوذَج(٢) واللين من الطعام ، وأباحه عامة العلمـاء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار ، فأتى بفالوذَج فامتنع عن أكله ، فقال له الحسن : كُلْ ! فانّ عليك فى المـاء البارد أكثر من هذا .

العـاشرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بلبن فشرب ، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه . وإذا سُقِىَ لبنا فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شىء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن " . قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتـذى به الإنسان وتَنْمِى به الجثث والأبدان ، فهو قوت خلىّ عن المفاسـد به قِوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم أمة ؛ فقال فى الصحيح : " فجاءنى جبريل بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غَوَتْ أمتك " . ثم إن فى الدعاء بالزيادة منـه علامة الخِصب وظهور الخيرات والبركات ؛ فهو مبارك كله .

قوله تعـالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ ﴾ قال الطبرى : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ماتتخذون ؛ فحذف « ما » ودلّ على حذفه قوله : « منه » . وقيل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وجـ ٧ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعربة) .

المحذوف شئ، والأمر قريب . وقيل : معنى «منه» أى من المذكور، فلا يكون فى الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : «ومن ثمراتِ» عطفا على «الأنعام»؛ أى ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على «مما» أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿سَكَرًا﴾ السَّكَر ما يُسْكِر؛ هـذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هـذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَر الخمر، وبالرزق الحسن جميعَ ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جُبير والنَّخعِىّ والشَّعبِىّ وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَر الخَلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السكر العصير الحلو الحلال، وسُمِّىَ سَكَرًا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقى ، فاذا بلغ الإسكار حرم . قال ابن العربى : «أسَدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فان هـذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدنى» .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخَلّ أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الاية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمّون الخـل السَّكَر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمـر، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبى لَيْلى والكَلْبِىّ وغيرهم ممن تقـدم ذكرهم، كلهم قالوا : السَّكَر ما حرمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السكَر اسم للخمر وما يُسكر، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة وبئس الشَّربُ شَربهمُ * اذا جرى فيهـم المُزّاء والسَّـكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيـل : إن قوله «تتخِـذُون منه سَكَرًا» خبرٌ معناه الاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى أتتخذون منه سكرا وتَدعون رزقا حسنا الخلَّ والزبيبَ

والتمـر؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أفهـم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السَّكَر الطُّعم، يقال : هذا سَكَرك أى طُعم . وأنشد :

* جعلتَ عَيبَ الأكْرمين سَكَرا *

أى جعلتَ ذمّهم طُعما . وهـذا اختيار الطبرى أن السَّكَر ما يُطعم من الطعام وحَلّ شربه من ثمـار النخيل والأعناب، وهـو الرزق الحسن، فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل « إنَّمَـا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إلى اللهِ »(١) وهذا حسن ولا نسخ، إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف، وأهل التفسير على خلافه، ولا حجة له فى البيت الذى أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سَكَرا » ما لا يُسكر من الأنبذة؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بمـا خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السكر لم يجز، وعَضَدوا هـذا من السنة بما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حرم الله الخمـر بعينها والسَّكر من غيرها " . وبمـا رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركْن، ودفع إليه القدح فرفعـه إلى فيه فوجده شـديدا فردّه إلى صاحبـه، فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله، أحرام هو ؟ فقال : " علىّ بالرجل " فأُتِى به فأخذ منه القدح، ثم دعا بمـاء فصبه فيه ثم رفعـه الى فيه فقطّب، ثم دعا بمـاء أيضا فصـبّه فيه ثم قال : " إذا اغتلمت(٢) عليكم هذه الأوعية فاكسروا مُتونها بالمـاء " . وروى أنه عليه السلام كان يُنْبَذ له فيشرب به ذلك اليوم، فاذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادمَ إذا تغيّر، ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عَون الثَّقفى عن عبـد الله بن شـداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسَّكر من كل شراب؛ خرجه الدارقطنىّ أيضا .

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .
(٢) الاغتلام مجاوزة الحد؛ أى اذا جاوزت حدها الذى لا يسكر الى حدها الذى يسكر .

ففى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهَمَدانى عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هـذه الإبل وليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثّورِىَ يشرب النبيذ فى بيت حَبْر أهل زمانه مالكِ بن مِغول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آمتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بمـا أحل فصحيح ، بَيْد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربى : إن قيل كيف ينسخ هـذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هـذا كلام من لم يتحقق الشريعـة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقى أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذى لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدّل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنمـا يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هـذا خرجتم عن الصّنف الغبىّ الذى أخبر الله عن الكفار فيـه بقوله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(1) . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهى أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف فى ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هـو الحكم الشرعىّ الذى يُسـتدلّ على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثانى ضعيفان ؛ لأنه عليه السلام قـد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : "كل شراب أسكر فهو حرام" وقال : "كل مسكر خمرٌ وكل مسكر حرام" وقال : "ما أسكر كثيره فقليله حرام" . قال النَّسائىّ : وهؤلاء أهل الثَّبت والعدالة مشهورون

(1) آية ١٠١ من هذه السورة .

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقـوم مقام واحد منهم ولو عاضـده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحا فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنمـا كان يسقيه لأنه متغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه فى عسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريحَ مغافير، يعنى ريحا منكرة، فلم يشربه بعدُ . وسيأتى فى التحريم . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال : ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس آبن دينار . وكذلك فُتياه فى المسكر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ . والحـديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما ما روى عن عمر من قوله : ليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا . وقد روى النَّسائيّ عن عتبة بن فَرْقَد قال : كان النبيذ الذى شربه عمر بن الخطاب قد خُلّل . قال النسائيّ : ومما يدل على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارث بن مِسْكين قراءة عليه وأنا أسمـع عن ابن القاسم : حدثنى مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال : إنى وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عمـا شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضى الله عنـه الحدّ تامًّا . وقد قال فى خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا بعـد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل . وقد تقدم فى « المـائدة » (١) . فإن قيل : فقد أحلّ شربه إبراهيمُ النَّخَعِيّ وأبو جعفر الطحاويّ وكان إمام أهـل زمانه، وكان سـفيان الثوريّ يشربه . قلنا : ذكر النَّسائيّ فى كتابه أن أول من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعيّ، وهذه زلّة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة فى قول أحد مع السنة . وذكر النسائيّ أيضا عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة فى المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة : ما رأيت

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية .

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات(١) ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوى وسـفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمـة فى تحريم المسكر مع ما ثبت من السـنة؛ على أن الطحاوى قد ذكر فى كتابه الكبير فى الاختلاف خلافَ ذلك . قال أبو عمر بن عبـد البر فى كتاب التمهيـد له : قال أبو جعفر الطحاوى اتفقت الأمة على أن عصـير العنب إذا اشتد وغَلَى وقَذف بالزَّبَد فهو خمر ومستحلّه كافر . وآختلفوا فى نَقيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلّك على أن حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب " غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحلّ نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل فى الخمـر المحـرَّمة غيرُ عصير العنب الذى قد اشـتدّ و بلغ أن يسـكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحـريم معلّقا بهـا فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غَلَى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كل مسكر حرام " واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، و إنمـا الخلاف بينهم فى تأو يله ، فقال بعضهم : أراد به جنس مايسكر . وقال بعضهم : أراد به مايقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محـرم عند الطحاوى لقوله ، فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسـكر من الأشربة . وقـد روى الدَّارَ قُطْنىّ فى سننه عن عائشة رضى الله عنها أنهـا قالت : إن الله لم يحرّم الخمـر لآسمها و إنما حرّمها لعاقبتها ، فكلُّ شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمـر فهو حرام كتحريم الخمـر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، و إذا اختلف النـاس فى الشئ وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسـنة رسوله عليه السـلام ، وما رُوى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذى يسكر كثيره فللقوم ذنوب يسـتغفرون

(١) فى حاشية السندى على سنن النسائى : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ في التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعلّه أن يكثر من الأستغفار لله تعالى ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم حجة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل في تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار، أي من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فآتخاذ السَّكَر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ قد مضى القول في الوَحْى وأنه قد يكون بمعنى[(1)] الإلهام ، وهو ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[(2)] » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا[(3)] » . قال إبراهيم الحَرْبِيّ : لله عز وجل في الموات قدرة لم يُدْرَ ما هي ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرّفها ذلك ؛ أي ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحي هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وثّاب « الى النَّحَلِ » بفتح الحاء . وسُمِّيَ نحلا لأن الله عز وجل نحله العسل الذى يخرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهري : والنحل والنحلة الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب . والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه و بين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية .　(٢) آية ٧ سورة الشمس .
(٣) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذّبان كلّها فى النار يجعلها عذابا لأهـل النـار إلا النحل " ذكره الترمذىّ الحكيم فى ( نوادر الأصـول ) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قتل النمـلة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد[(١)]، خرّجه أبو داود أيضا، وسيأتى فى « النمل »[(٢)] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك . ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوت النحل فى هـذه الثلاثة الأنواع، إما فى الجبال وكِوَاها، وإما فى متجوّف الأشجار، وإما فيما يعرِش ابن آدم من الأجباح[(٣)] والخلايا والحيطان وغيرها . وعَرَش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ؛ ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يَعْرِش ويعرُش (بكسر الراء وضمها)، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف فى ذلك عن عاصم .

الثالثـــة ـــ قال ابن العربىّ : ومن عجيب ما خلق الله فى النحل أن ألهمها لاتخـاذ بيوتهـا مسدّسة ؛ فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشـكال من المثلّث إلى المعشر إذا جُمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرُج، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله ٱتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) الصرد (كرطب) : طائر فوق العصفور يصيد العصافير .　(٢) فى قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على واد النمل ... » آية ١٨ .　(٣) الأجباح : مواضع النحل فى الجبل وفيها تعسل .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنمـا تأكل النوّار من الأشجار . ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أي طرق ربك . والسّبل : الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أي ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد؛ أى مطيعة مسخرة . فـ « ذللا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنهـا تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيـل : المراد بقوله « ذُلُلاً » السبل . يقول : مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها؛ واختاره الطبرىّ، و « ذللا » حال من السبل . واليَعْسُوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقـال : « يخرج من بطونهـا شراب » يعنى العسـل . وجمهور النـاس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى تحقيره الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعابُ دودة، وأشرف شرابه رَجيعُ نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحَمْى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين؛ ذكره الغزنوىّ . وقال : « من بطونها » لأن استحالة الأطعمة لاتكون إلا فى البطن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبىّ صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ (١) » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

(١) الجرس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلح، وله صمغ كريه الرائحة، فإذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلح .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ الضمير للعسـل ؛ قاله الجمهور . أى في العسل شـفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفـراء وابن كَيْسان : الضمير للقرآن؛ أى في القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء، وهذا القول بيّن أيضا؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بهـا أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر بن العربيّ : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصحّ عنهم، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كلّه للعسل، ليس للقرآن فيـه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآنُ والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور أبي جعفر العباسيّ ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك ممـا يخرج من بطون بنى هاشم ، فأضحك الحاضرين وبُهِت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعـة — اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا؛ فقالت طائفة : هو على العموم في كل حال ولكل أحد، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليـه عسلا ، حتى الدُّمَّل إذا خرج عليه طَلَى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبي وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتونى بالمـاء ، فإن الله تعالى يقول : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا » (١) ثم قال : ائتونى بعسل، فإن الله تعالى يقول : « فيـه شفاءٌ للناس » وائتونى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » (٢) فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينتفع به في كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم في كل عـلة وفي كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

(١) آية ٩ سورة ق . (٢) آية ٣٥ سورة النور .

الأدوية فى بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه فى أنه دواء لمّا كثر الشفاء به وصـار خليطا ومُعينا للأدوية فى الأشربة والمعاجين ؛ وليس هـذا بأول لفظ خُصِّص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتى فيهـا العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شفاء » نكرة فى سـياق الاثبات ، ولا عموم فيهـا باتفاق أهل اللسان ومحقّقى أهل العلم ومختلفى أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن و بصحة التصديق والإيقان . ابن العربى : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء، والكلُّ من حِكَم الفعّال لمـا يشاء .

الخـامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له : المـاء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله المـاء إذا أخذه على ما يضاده من علة فى البدن، وقد رأينا شفاء العسل فى أكثر هذه الأشربة ؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطبـاء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السّكنجبين (١) فى كل مرض، وأصـله العسل وكذلك سائر المعجونات ، على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حَسَم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذى يشتكى بطنه بشرب العسل ، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب له فبرئ؛ وقال : ” صدق الله وكذب بطن أخيك “ .

السادســة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال؛ فالجواب أن ذلك القول حق فى نفسه لمن حصل له التصديق بنبيّه عليه السلام ، فيستعمله على الوجه الذى عينه وفى المحل الذى أمره بعقد نية وحسن طوية ، فإنه يرى منفعته و يدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم . وأما ما حكى من الاجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق . قال الامام أبو عبد الله المـازَرى : ينبغى أن يُعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الاسهال

(١) السكنجبين : شراب معرّب ؛ أى خل وعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعرّبة) .

الحادث عن التُّخم والهَيْضات(١)، والأطباء مجمعون فى مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، و إن احتاجت الى مُعين على الإسهال أعينت مادامت القوة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هـذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضة فأمره النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المـادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطبـاء بل لو كذّبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فتفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على مايصح إذ قامت الدّلالة على أنه لا يكذب .

السابعـة — فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله" . وروى أبو داود والترمـذى عن أسامـة بن شُريك قال قالت الأعراب : ألا نَتداوَى يا رسول الله؟ قال :"نعم . يا عباد الله تداوَوْا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا" قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : "الهرم" لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتُقاة نتقيها، هل تَرُدّ من قَدَر الله شيئا؟ قال :"هى من قدر الله" قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبى خزامة غير هـذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسـلم : "ان كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محـجَم أو شربة من عسـل أو لَذْعة بنـار وما أحب أن أكْتَوِيَ" أخرجه الصحيح . والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

(١) الهيضات : جمع هيضة، وهى انطلاق البطن .

جمهورُ العلماء . روى أن ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة[١] ورقى من العقرب . وعن ابن سِيرين أن ابن عمر كان يسـقى ولده التِّرياق[٢] . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمة بقَضِّها[٣] وقَضِيضها الجنة كانوا لايَسترقُون ولا يكتوُون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون " . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقـة به وانقطاعا إليـه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المـرض وأيام الصحة فلو حَرَص الخلق على تقليـل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعـالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ولا فِي أَنْفسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْـلِ أن نَبْرَأَهَا[٤] » . وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهـل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبي الدرداء رضوان الله عليهـما . دخل عثمان بن عفان على ابن مســعود في مرضه الذى قبض فيه فقال له عثمان : ما تشتكى ؟ قال ذنوبى . قال : فمـا تشتهى؟ قال رحمـة ربى . قال : ألا أدعو لك طبيبـا ؟ قال : الطبيب أمرضنى ... وذكر الحـديث . وسيأتى بكماله فى فضل الواقعة إن شاء الله تعـالى . وذكر وكيع قال : حدّثنا أبو هلال عن معاوية بن قُرّة قال : مرض أبو الدّرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أضجعـنى . وإلى هذا ذهب الربيـع بن خَيْثم . وكره سـعيد بن جُبـير الرُّقَى . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسـل . وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنه لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكى مكروه بدليل كى النبيّ صلى الله عليه وسلم أُبَيًّا يوم الأحزاب على أَكْحَله[٥] لمـا رُمِى . وقال : " الشفاء فى ثلاثة " كما تقـدّم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس فى كتاب الله؛ وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ[٦] » على ما يأتى بيانه . ورَقَى أصحابَه وأمرهم بالرُّقية؛ على ما يأتى بيانه .

---

(١) اللقوة ( بالفتح ) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين ، وهو معرب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض آخرهم على أولهم . وقال ابن الاعرابي : إن القض الحصى الكبار، والقضيض الحصى الصغار؛ أى دخلوا بالكبير والصغير . (٤) آية ٢٢ سورة الحديد . (٥) الأكحل : عرق فى وسط الذراع . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنـــة ـــ ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة فى العسل وإن كان مطعوما مُقتاتا . وآختلف فيـه قول الشافعى، والذى قطع به فى قوله الجـديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل فى قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط. وقال محمد بن الحسن : لا شىء فيه حتى يبلغ ثمـانية أفراق،(١) والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : فى كل عشرة أزقاق زق؛ متمسكا بما رواه الترمذى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى العســل فى كل عشرة أزقاق زق" قال أبو عيسى : فى إسناده مقال، ولا يصح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كبير شىء، والعمل على هذا عند أكثر أهـل العلم، وبه يقول أحمد وإسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس فى العسل شىء .

التاســـعة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى يعتبرون؛ ومن العبرة فى النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفـكر فى عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها فى تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحـامض والمرّ والحلو والمـالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفى هذا دليل على قدرته .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيّن معناه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يعنى أردأه وأوضعه . وقيل : الذى ينقص قوته وعقله ويصيّره الى الخَرَف ونحوه . وقال ابن عباس : يعنى إلى أســفل العمر، يصــير كالصبى الذى لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ يقول :

(١) فى نسخة من الأصل : « خمسة أفراق » .

"اللّهُمّ إنى أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهـرَم وأعوذ بك من البخل" . وفى حديث سعد بن أبى وقّاص "وأعوذ بك أن أردّ الى أرذل العمر" الحديث . خرّجه البخارى . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أى يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبـلُ من الأمور لفرط الكبر . وقد قيـل : هذا لا يكون للؤمن ، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا؛ فعبّر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه؛ لأن تأثير الكبر فى عمـله أبلغ من تأثيره فى علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكرى البعث ، أى الذى رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّـلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فى الرِّزْقِ ﴾ أى جعـل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا . ﴿ فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى فى الرزق . ﴿ بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئا حتى يستوى المملوك والمـالك فى المـال . وهذا مثـل ضربه الله لعبدة الأصـنام ، أى إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدى معى سواء؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم فى أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعـالى فى عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبِد؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبرى ، وقاله ابن عباس ومجاهـد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى نصارى نَجْرَان حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم « فَمَـا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُم » أى لا يرد المولى على ما ملكت يمينه ممـا رزق حتى يكون المولى والعبد فى المـال شرعا سواء ، فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم فتجعلون لى ولدا

من عبيدى . ونظيرها « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ »(١) على ما يأتى . ودل هـذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتى آنفا(٢) .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقـدم . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى آدم خلق منه حواء . وقيـل : المعنى جعـل لكم من أنفسكم ، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من الآدميين . وفى هـذا ردّ على العرب التى كانت تعتقد أنها كانت تزوّج الجن وتباضعها، حتى روى أن عمرو بن هند(٣) تزوج منهم غُولًا وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر ، فلما كان فى بعض الليالى لمع البرق وعاينته السِّعلاة(٤) فقالت : عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبدا . وهـذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزا فى حكم الله وحكمته فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم . ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ زوج الرجل هى ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليـه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

---

(١) آية ٢٨ سورة الروم . (٢) يريد بعـد قليل . و « آنفا » انما تستعمل فى الماضى القريب لا فى المستقبل القريب . (٣) كذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربى ، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة؛ قال علباء بن أرقم :

يا قبـح الله بنى السـعلاة * عمرو بن يربوع شرار النات

راجع شرح التنوير على سقط الزند فى شرح بيت أبى العلاء المعرى :

اذا لاح إيماض سـترت وجوهها * كأنى عمـرو والمطىّ سـعالى

(٤) السعلاة : أخبث الغيلان .

قوله تعـالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وحَفَدَةً﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَجعـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ﴾ ظاهر فى تعـديد النعمة فى الأبنـاء، ووجود الأبنـاء يكون منهما معـا ؛ ولكنه لمـا كان خلق المولود فيهـا وانفصاله عنها أضيف إليها ؛ ولذلك تبعها فى الرّق والحرية وصار مثلها فى المـالية . قال ابن العربىّ : سمعت إمام الحنابلة بمدينـة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المـالية وصار بحكمها فى الرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لاقيمة له ولامالية فيه ولا منفعة ، و إنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منـه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخـلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَحَفَـدَةً ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألتـه عن قوله تعالى : « بَنِينَ وَحَفَـدَةً » قال : الحَفَـدة الخدم والأعوان فى رأيى . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَحَفَدَةً » قال هم الأعوان، من أعانك فقـد حَفَدك . قيـل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَد الولائدُ حولهن وأسلمَتْ ﴿﴾ بأكفّهنّ أزمّـةَ الأجمـال

أى أسرعن الخدمة . والولائد : الخدم، الواحدة وليدة؛ قال الأعشى :

كلّفت مجهولهـا نُوقًا يمانيـــة ﴿﴾ إذا الحُداة على أكسائها حَفَدوا (١)

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمـل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد؛ قال : ومنـه قولهم « إليك نسعى ونحفِد » ، والحَفَدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفـد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمـد : الحَفَدة عند العرب الخدم، وقاله مجاهـد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عبـاس . وقيـل الأختان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمـة وأبو الضحا وسـعيد بن جُبير و إبراهـيم ؛

(١) الأكساء : جمع كسى ( بالضم ) وهو مؤخر العجز .

ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحتْ * لهـا حَفَـــدٌ ما يُعَـدُّ كثيرُ
ولكنهـا نفس عـلى أبيّـــة * عيوف لإصهـار اللئام قـــذور

وروى زِرّ عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم ،والمعنى متقارب . قال الأصمعى : الخَتَن من كان من قِبَل المرأة ، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقول عبـد الله « هم الأختان » يحتمل المعنيين جميعا . يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها ، ويحتمل أن يكون أراد وجعـل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن ، فيكون لكم بسببهن أختان . وقال عكرمة : الحفدة من نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حَفَد يحفِد (بفتح العين فى المـاضى وكسرها فى المستقبل) إذا أسرع فى سيره؛ كما قال كُثَيِّر :

* حفد الولائد بينهن ... * البيت .

و يقال : حفدت وأحفدت ، لغتان إذا خدمت . و يقال : حافد وحَفَد ؛ مثل خادم وخَدَم ، وحافد وحفدة مثـل كافر وكفرة . قال المهدوى : ومن جعـل الحفدة الخدم جعله منقطعا ممـا قبله ينوى به التقديم؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفـدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصـه ؛ ألاترى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفـدة » فجعل الحفدة والبنين منهن . وقال ابن العربىّ : الأظهر عندى فى قوله « بنـين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل لصُلْبه والحفدة أولاد ولده ، وليس فى قوة اللفظ أكثر من هـذا ، و يكون تقدير الآية على هـذا : وجعل لكم من أزواجكم بنـين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثـــة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة فى قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان ، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربىّ . روى البخارى وغيره عن سهل بن سـعد أن أبا أُسَيِّد الساعدى دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم

لعرسه فكانت امرأته خادمهم ... الحديث، وقد تقدم في ســورة « هود »[1] . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بيدى . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القِدْر وتَقُمّ الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا »[2] فكأنه جمع لنـا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعـــة — ويخدُم الرجُل زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ، لمـا روته عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكون في مِهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه كان يخصِف النعل ويَقُمّ البيت ويَخيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يَفْلِي ثوبه ويحلب شاته ويخدُم نفسه .

الخامســـة — وينفق على خادمة واحدة، وقيل على أكثر؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذي هو أصل من أصول الشريعة، فإن نساء الأعراب وسكان البوادي يخدمن أزواجهن في استعذاب المـاء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فيُخدِمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليـه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ يعني الأصنام؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أي بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٨ (٢) آية ١٨٩ سورة الأعراف .

قوله تعــالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّموَاتِ ﴾ يعنى المطر . ﴿ وَالْأَرضِ ﴾ يعنى النبات . ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفرّاء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه ؛ أى يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى لا يقدرون على شيء ، يعنى الأصنام . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى لا تشبّهوا به هذه الجمادات ؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعــالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

فيــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين ، وهو منتظم بمـا قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثـل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا » أى بيّن شبها ؛ ثم ذكر ذلك فقال : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ أى كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثالٌ فى هذه الآية هو عبـد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المـال ولا من أمر نفسه ، وإنمـا هـو مسخّر بإرادة سـيده . ولا يلزم من الآية أن العبيـد كلهم بهذه الصفـة ؛ فإن النكرة فى الإثبات لا تقتضى الشمول عند أهل اللسان كما تقدم ، وإنما تفيد واحدا ، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعى ؛ كقوله : أعتق رجلا ولا تهن

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأيّ رجل أعتق فقـد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هـذا المثل للؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لاينتفع فى الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول عليه الجمهور من أهل التأويل . قال الأَصَمّ : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشدّ من مولاه أَسْرا (١) وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ؛ فقال الله تعالى ضربا للثال . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانيـــة — فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لايملك شيئا وإن مُلِّك . قال أهل العراق : الرِّق ينافى الملك، فلا يملك شيئا أَلْبَتَّةَ بحال، وهو قول الشافعيّ فى الجديد، وبه قال الحسن وابن سيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لسـيده أن ينتزعه منه أيّ وقت شاء، وهو قول مالك ومن اتبعه ، وبه قال الشافعيّ فى القديم . وهو قول أهـل الظاهر؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة سـيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو ملّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراقيّ يقول : لايجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدلّ دليل لنا قوله تعالى : «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوّى بين العبد والحرّ فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : "من أعتق عبدا وله مال ..." فأضاف المـال إليه . وكان ابن عمر يرى عبده يتسرّى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه مايفعل المـالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

(١) الأســـر : الخلق .

الثالثـــة — وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها ، معوّلا على قوله تعـالى : « لا يَقْدِر على شيء » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا ، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه ، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعـــة — قال أبو منصور فى عقيدته (١) : الرزق ما وقـع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص ، وكذلك قوله تعـالى : «وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقون » (٢) . و « أنفِقوا مِما رزقناكم » (٣) وغير ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جعـل رزقى تحت ظِلّ رُمْحِى " وقوله : " أرزاق أمتى فى سنابك خيلها وأسِنّة رماحها ". فالغنيمة كلها رزق ، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق ، وهو مراتب : أعلاها ما يغذى . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفـاع فى قوله : " يقول آبن آدم مالى مالى وهـل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت " . وفى معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفى ألسنة المحدّثين : السماع رزق ، يعنون سماع الحديث ، وهو صحيح .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو المؤمن ، يطيع الله فى نفسه وماله . والكافر ما لم ينفق فى الطاعة صار كالعبد الذى لا يملك شيئا . ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أى لا يستوون ، ولم يقل يستويان لمكان « مَن » لأنه آسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إنّ عبدا مملوكا » ، « ومن رزقناه » أريد بهما الشيوع فى الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه ، إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يدٍ ولا معروف فتُحمد عليه ، إنمـا الحمـد الكامل لله ، لأنه المنعم الخالق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى أكثر المشركين ﴿ لَا يَعْـلَمُونَ ﴾ أن الحمد لى ، وجميع النعمة منى . وذكر الأكثر وهو يريد الجميـع ، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أى بل أكثر الخلق لا يعلمون ، وذلك أن أكثرهم المشركون .

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبى منصور الماتريدى ، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٣٣ ه . راجع كشف الظنون وتاج التراجم فى طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥٤ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثَن ، فالأبكم الذى لا يقدر على شيء هو الوثن ، والذى يأمر بالعدل هو الله تعالى ؛ قاله قَتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه ، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى ، ويأمر بالعدل عثمانُ . وعنه أيضا أنه مَثَلٌ لأبى بكر الصدّيق ومولًى له كافر . وقيل : الأبكم أبو جهل ، والذى يأمر بالعدل عَمّار بن ياسر العَنْسِيّ . وعَنْس (بالنون) حَىّ من مَذْحِج ، وكان حليفا لبنى مخزوم رهط أبى جهل ، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمّه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبى جهل ، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبّينه لجماله ، ثم طعنها بالرمح فى قُبُلِها فماتت . فهى أوّل شهيد مات فى الإسلام ؛ رحمها الله . من كتاب النقاش وغيره . وسيأتى هذا فى آية الإكراه(١) مبيّنا إن شاء الله تعالى . وقال عطاء : الأبكم أُبَىّ بن خلف ، كان لا ينطق بخير . ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أى قومه لأنه كان يؤذيهم ويؤذى عثمان بن مَظْعُون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث ، كان كافرا قليلَ الخير يعادى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافرُ ، والذى يأمر بالعدل المؤمنُ جملةً بجملة ؛ روى عن ابن عباس وهو حَسَن لأنه يعُمّ . والأبكم الذى لا نطق له . وقيل الذى لا يعقل . وقيل الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنا الوَثَنُ . بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقله وينحِته فهو كَلٌّ عليه . والله الآمر بالعدل ، الغالب على كل شيء . وقيل : المعنى « وهو كَلٌّ على مولاه » أى ثِقْل على وَلِيّه وقرابته ، ووبال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمّى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ؛ ومنه قول الشاعر :

أكولٌ لمال الكَلّ قبل شبابه * إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شديد

(١) آية ١٠٦ من هذه السورة ، ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

والكَلّ أيضـا الذى لا ولد له ولا والد . والكَلُّ العيال، والجمع الكُلُول ؛ يقال منـه : كَلّ السكينُ يَكِلّ كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور «يُوَجِّهْهُ» وهو خط المصحف؛ أى أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير؛ لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يُفهم عنه . وقرأ يحيى بن وثّاب «أينما يُوَجَّهْ» على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا «توجّه» على الخطاب . ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معناه (١) . وهـذا متصل بقوله « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى شرعُ التحليل والتحريم إنمـا يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تحكمون . ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمـالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة؛ سُمّيت ساعةً لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخـلق بصيحة . واللَّمْح : النظر بسرعة ؛ يقال : لَمَحه لَمْحـا ولَمَحانا . ووجه التأويل أن الساعة لمـا كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيـان بها؛ أى يقول للشيء كن فيكون . وقيل : إنمـا مَثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل : ما السَّنة إلا لحظة، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قولُه : «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا» (٢) . ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ليس « أو » للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل . وقيـل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : «أو» بمنزلة بل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) تقدّم .

(١) راجع جـ ٩ ص١١٧ (٢) آية ٦ سورة المعارج. (٣) راجع جـ ١ ص٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم . الثانى — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى التى تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ؛ أى وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها الى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل فى ضمن قوله « وجعل لَكُمُ السَّمْعَ » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة « إِمِّهاتِكم » هنا وفى النور(١) والزمر(٢) والنجم(٣) بكسر الهمزة والميم . وأما الكسائى فكسر الهمزة وفتح الميم ؛ وإنما كان هذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمّات ، فزيدت الهاء تأكيدا كما زادوا هاء فى أهرقت الماء وأصله أرقت . وقد تقدم هذا المعنى فى «الفاتحة»(٤) . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثانى — يعنى تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدى إلى الشكر .

قوله تعالى : أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)

---

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » آية ٦١ (٢) فى قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ... » آية ٦ (٣) فى قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم ... » آية ٣٢ (٤) راجع جـ ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن عامر وحمزة ويعقوب « تروا » بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: « مسخراتٍ » مذللات لمنافعكم. ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجوّ ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله « مسخراتٍ » دليلٌ على مُسَخِّر سخّرها ومُدَبِّر مكّنها من التصرف. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بيّن لهم كيف يعتبرون بها على وحدانيته. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات. ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)

فيه عشر مسائل[1] :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ معناه صيّر. وكلّ ما علاك فأظلّك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلّك فهو أرض، وكلّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الاية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعدّ هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرّف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، وردّده كيف وأين. والسَّكَن مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت النُّقلة والرِّحلة وهي :

(١) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

الثانيـــة ـــ قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأدَم. ﴿ بُيُوتًا ﴾ يعنى الخيام والقِباب يخفّ عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظّعن : سير البادية فى الانتجاع(١) والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقهـم أتوقّع * وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا ؛ قال :

ألا هـل هاجك الأظعان إذ بانوا * وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر . وقيـل : يحتمل أن يعم بيوت الأَدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هـذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام . وهو احتمال حسن ، ويكون قوله « ومِنْ أَصْوَافِهَا » ابتـداء كلام ، كأنه قال جعـل أثاثا ؛ يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا * بذى الزِّىّ الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعـام » بيوت الأَدَم فقـط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « ومن أصوافها » عطفا على قوله « من جلود الأنعـام » أى جعـل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهـذا أمر انتشر فى تلك الديار ، وعَزَبت عنه بلادنا ، فلا تُضرب الأخبِيَة عندنا إلا من الكَتّان والصوف ، وقد كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قُبّة من أَدَم ، وناهيك من أدم الطائف غلاء فى القيمة ، واعتلاء فى الصنعة ، وحسنا فى البشرة ، ولم يعدّ ذلك صلى الله عليه وسلم تَرفا ولا رآه سرفا ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعته فى الاكتنان والاستظلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المتزهدين من الغـافلين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليـه فى خباء كَتّان فعرض عليه صاحبى المحدث أن يحمـله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحـرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك ؛ فقال : هـذا الخباء لنا كثير ، وكان

---

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .

فى صنعنا من الحقير، فقالت : ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو رئيس الزهاد قُبّة من أَدَم طائفيّ يسافر معها و يستظل بها ، فبُهِت ، و رأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبي وخرجت عنه » .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أذن فى الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكَتّان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به، و إنمـا عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بمـا فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل فى الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعـالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ » (١) ؛ فخاطبهم بالبَرَد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن فى بلادهم، وهو مثله فى الصفة والمنفعة ، وقد ذكرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم معًا فى التطهير فقال : " اللّهمّ اغسلنى بماء وثلج وبَرَد " . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قطّ . وقيل : إن ترك ذكر القطن والكَتّان إنمـا كان إعراضا عن التَّرَف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنمـا هو الصوف . وهـذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ » حسبما تقدّم بيانه فى «الأعراف» (٢) . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشـار إلى القطن والكَتّان فى لفظة « سرابيـل » والله أعلم . و﴿ أَثَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض، من أثّ إذا كثر . قال :

وفَـرْعٍ يَزِينِ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ * أثيثٍ كقِنْـوِ النـخلة المُتَعَثْكِلِ (٣)

ابن عباس : « أَثَاثًا » ثيابا . وقد تقدّم . وتضمّنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتـة وشعرها طاهر يجوز

---

(١) آية ٤٣ سورة النور . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانيـة . (٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والفرع : الشعر التـام . والمتن والمتنة : ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم : الشديد السواد . والقنو ( بالكسر والضم ) : العـذق وهو الشمراخ . والمتعثكل : الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته .

الانتفاع به على كل حال ، ويغســـل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ ؛ وكذلك روت أم ســلمة عن النبيّ صلى الله عليــه وسلم أنه قال : " لا بأس بجــلد الميتــة إذا دُبغ وصوفِها وشــعرِها إذا غُسل " لأنه ممـا لا يَحُلّه الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمــه أو لا ، كشعر ابن آدم والخنزير ، فإنه طاهر كله ؛ وبه قال أبو حنيفة ، ولكنه زاد علينا فقال : القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر ؛ قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البَصْرِيّ والليث بن سعد والأوزاعِيّ : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لاتنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شــعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليلنا عمــوم قوله تعالى : « ومن أصوافها » الآية . فمَنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المُذَكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : « حُرِّمَتْ عليكم الميتة » وذلك عبارة عن الجمــلة . قلنا : نخصه بمـا ذكرنا ؛ فإنه منصوص عليــه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلنا أَوْلى . والله أعلم . وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغــداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلْقة ، فهو يَنْمِى بنمـائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النَّمـاء ليس بدليل على الحيــاة ؛ لأن النبات يَنْمِى وليس بحَيّ . وإذا عوّلوا على النمــاء المتصل لمـا على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحيــاة . وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنـا قول ثالث — هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولهـا أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشَّعرِيّ من الريش حكمه حكم الشعر ، والعظمِيّ منه حكمه حكمه . ودليلنا قوله صلى الله عليه وســلم : " لا تنتفعوا من الميتة بشيء " وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليــله ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعـالى : « قال من يُحْيِي العِظَامَ وهِيَ رَمِيم » (١) ،

(١) آية ٧٨ سورة يس .

وقال تعالى: «وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا»(١)، وقال: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا»(٢)، وقال: «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً»(٣). فالأصل هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيم: "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب". فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في شاة ميمونة: "ألّا انتفعتم بجلدها"؟ فقالوا: يارسول الله، إنها ميتة. فقال: "إنما حَرُم أكلها" والعظم لا يؤكل. قلنا: العظم يؤكل، وخاصّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير، وعظم الكبير يشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدلّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذّكاة ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ عامٌّ في جلد الحيّ والميت، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ؛ وبه قال ابن شهاب الزهريّ والليث بن سعد. قال الطحاويّ: لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث. قال أبو عمر: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهور أهل العلم. وقد روى عنهما خلاف هذا القول، والأول أشهر.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنيّ في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهريّ، وحديث بقية عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المنقريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادســـة(٤) — اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: وهو قول الزهريّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أن الدباغ لا يطهّر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يصلي عليه ولا يؤكل فيه. وفي المدونة لابن القاسم

(١) آية ٢٥٩ سورة البقرة. (٢) آية ١٤ سورة المؤمنون. (٣) آية ١١ سورة النازعات.
(٤) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليــه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك . وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فــلا شيء عليــه . قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسي . وروى ابن وهب وابن عبــد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا فى جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى . قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّيَ فجائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا فى خاصة نفسه، وتكره الصلاة عليــه وبيعه ، وتابعــه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المــدنيين فعــلى إباحة ذلك وإجازته؛ لقول رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أيُّمــا إهاب دبغ فقد طهر ". وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث ،وهو اختيار ابن وهب .

السابعــــة — ذهب الإمام أحمــد بن حنبل رضى الله عنــه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة فى شيء و إن دبغت؛ لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ ترد قوله . واحتج بحديث عبدالله بن عكيم — رواه أبو داود — قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : " ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " . وفى رواية : « قبل موته بشهر » (١) . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم ، قال : حدثنا مَشيخة لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علىّ : سألت يحي بن مَعين عن هذا الحديث فضعّفه وقال : ليس بشيء، إنمــا يقول حدثنى الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتــا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبِّق وغيرهم، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم " ألّا تنتفعوا من الميتة بإهاب " قبــل الدباغ؛ وإذا آحتمل ألا يكون مخالفا فليس لنــا أن نجعله مخالفا. وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبيّ صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء فى الخبر فيمكن أن تكون قصّة ميمونة وسماع ابن عباس منه " أيّمــا إهاب دبغ فقد طهر " قبل موته بجمعة أو دون جمعة، والله أعلم .

---

(١) لفظة « بشهر » ساقطة من سنن أبى داود .

الثامنـــة ــ المشهور عنـدنا أن جلد الخنزير لا يدخل فى الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعيّ. وعند الأوزاعى وأبى ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنُونا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبـد الحكم وداود بن علىّ وأصحابه؛ لقوله عليه السلام : "أيّما مَسْك (١) دبغ فقد طهر". قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ؛ فأما الخنزير فلم يدخل فى المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنما يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليـه وسلم : " أكل كلّ ذى ناب من السباع حرام " فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست فى الخنزير ذكاة . وروى النَّسائىّ عن المقدام بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومَيَاثر (٢) النمور .

التاسعـــة ــ آختلف الفقهاء فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبـه : كل شىء دَبَغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود . وللشافعىّ فى هذه المسئلة قولان : أحدهما ــ هـذا ، والآخر أنه لا يُطَهِّر إلا الشبّ والقَـرَظ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهـد النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعليـه خرّج الخطابىّ ــ والله أعلم ــ ما رواه النَّسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أخذتم إهابها " قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يطهرها المـاء والقرظ ".

---

(١) المسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السخلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أى عن أن تفرش جلودها على السرج والرحال للجلوس عليها لما فيه من التكبر، أو لأنه زى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائى) .

العـاشرة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَثَاثًا ﴾ الأثاث متاع البيت ، واحدها أَثاثه ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري . وقال الأموى : الأثاث متاع البيت ، وجمعـه آثّة وأُثُث . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المـال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة وآجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنـه شعر أثيث أي كثير . وأَثّ شـعر فلان يَأَث أَثًا إذا كثر والتفّ ؛ قال آمرؤ القيس :

وفَرْعٍ يَزِين المتنَ أسودَ فاحم * أثيث كقِنْوِ النّخلة المُتَعَثْكِلِ

وقيل : الأثاث ما يلبس و يفـترش . وقد تأثّث إذا اتخذت أثاثا . وعن ابن عباس رضى الله عنه « أثاثا » مالًا . وقد تقـدم القول فى الحين(١)؛ وهو هنا وقت غير معـيّن بحسب كل إنسان، إما بموته و إمّا بفقد تلك الأشياء التى هى أثاث . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا * بذى الزِّىّ الجميل من الأثاث

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ جَعَـلَ لَـكُم مِّمَّـا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَـلَ لَـكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ ظِلَالًا ﴾ الظِّلال : كلّ مايستظَلّ به من البيوت والشجر. وقوله ﴿ مِّمَّا خَلَقَ ﴾ يعمّ جميع الأشخاص المظِلّة .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمـع كِنّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك؛ وهى هنا الغـيران فى الجبال، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها و يتحصنون بها و يعتزلون عن الخلق فيها . وفى الصحيح أنه عليه السلام كان فى أول أمره يتعبّد بغار حِراء و يمكث فيه الليالى ... الحديث . وفى صحيح البخارى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغار في جبل ثَوْر ، فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن[١] فيُدْلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به[٢] إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، و يرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر مِنْحَةً[٣] من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْل ، وهو لبن منحتهما و رَضِيفهما[٤] حتى ينعق بهما عامر بن فُهيرة بغَلَس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ... وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخاري .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾ يعني القُمص ، واحدها سربال . ﴿ وسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ يعني الدروع التي تقي الناس في الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهــير :

شُــمُّ العرانين أبطال لَبُوسهــمُ * من نَسْج داودَ في الهَيْجَا سَرابِيلُ

الرابعــة — إن قال قائل : كيف قال «وجعل لكم من الجبال أكنانا» ولم يذكر السهل ، وقال «تقيكم الحر» ولم يذكر البرد؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حَرٍّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التي تختص بهم كما خصّهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكتّان ولا الثلج — كما تقدم — فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراساني وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر ؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدري إذا يمّمت أرضًا * أريد الخــير أيهمــا يَلِيني

أألخــير الذي أنا أبتغيــه * أم الشر الذي هـو يبتغيني

الخامســة — قال العلماء : في قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتــال الأعداء ؛ وقد لبسها النبيّ صلى الله عليه وسلم تقاة

---

(١) أي حاذق سريع الفهم . (٢) من الكيد؛ أي يطلب لهما ما فيه المكروه . (٣) أي شاة تحلب إناء بالغداة و إناء بالعشي . (٤) الرضيف : اللبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه .

الجراحة وإن كان يطلب الشهادة، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة[(١)] حرب لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هى العليا، ويفعل الله بعدُ مايشاء .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصن وحميد « تتم » بتاءين، « نعمتُه » رفعا على أنها الفاعل . الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يتمها . و «تسلمون» قراءة ابن عباس وعكرمة « تَسْلَمون » بفتح التاء واللام، أى تسلمون من الجراح، وإسناده ضعيف؛ رواه عَباد بن العوام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عبـاس . الباقون بضم التاء، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمــه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامة؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإســلام أفضل ممـا أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعـالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى :﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ قال السُّدّى : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، أى يعرفون نبوّته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ ويكذبونه . وقال مجـاهد : يريد ماعدّد الله عليهم فى هـذه السورة من النعم؛ أى يعرفون أنها من عند الله وينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم . وبمثله قال قتادة . وقال عَوْن بن عبـد الله : هو قول الرجل لولا فـلان لكان كذا، ولولا فـلان ما أصبت كذا، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله . وقال الكَلْبى : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نَعم، هى كلها نِعم من الله، ولكنها

(١) لأمة الحرب : أداته؛ وقد يترك الهمز تخفيفا .

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها ، وينكرونها بترك الشكر عليها . و يحتمل سادسا — يعرفونها في الشدّة وينكرونها في الرخاء . ويحتمل سابعا — يعرفونها بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا — يعرفونها بقلوبهم ويجحدونها بألسنتهم؛ نظيرها «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ»(١) ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعني جميعهم؛ حسبما تقدّم .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّـةٍ شَهِيـدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّـةٍ شَهِيدًا ﴾ نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ » وقد تقدّم(٢) . ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي في الاعتذار والكلام ؛ كقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) . وذلك حين تطبق عليهم جهنم ، كما تقـدّم في أوّل « الحجر » ويأتي . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعني يسترضون ، أي لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهي المَوْجدة؛ يقال : عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه ماعَتَب عليه فيه قيل عاتبه ، فإذا رجـع إلى مسرّتك فقـد أعتَب ، والاسم العُتْبي وهو رجوع المعتوب عليـه إلى ما يُرضي العاتبَ؛ قاله الهرَوىّ . وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه * وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ

قوله تعـالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَـلَا يُخَفَّفُ عَنْهُـمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي أشركوا . ﴿ الْعَذَابَ ﴾ أي عذاب جهنم بالدخول فيها . ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أي لا يمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثَمَّ .

(١) آية ١٤ سورة النمل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . راجع جـ ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

قوله تعالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُورِدوهم النار . وفى صحيح مسلم : " من كان يعبد شيئا فَلْيَتَّبِعْه فيتّبع من كان يعبد الشمس الشمسَ ويتّبع من كان يعبد القمر القمرَ ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت " الحديث، خرجه من حديث أنس[١]، والترمذى من حديث أبى هريرة، وفيه : " فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبدون " وذكر الحديث[٢] . ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أى الذين جعلناهم لك شركاء . ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى ألقت إليهم الآلهة القول، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ يعنى المشركين، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعزّه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

---

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثل أعناق الإبل، وأفاعى كأنها البَخَاتِيّ[1] تضربهم، فتلك الزيادة . وقيل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السّفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمان، فى كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا ؛ وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثانى — أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله؛ كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نُفيل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يُبعث أمةً وحده"، وسَطِيح[2]، ووَرَقة ابن نَوْفل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "رأيته ينغمس فى أنهار الجنة" . فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهم وشهيد عليهم . والله أعلم . وقوله « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هؤُلَاءِ » تقدّم فى البقرة والنساء[3] .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[4] وقد تقدّم، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام .

(١) البخاتى : جمال طوال الأعناق . (٢) هو كاهن بنى ذئب ، كان يتكهن فى الجاهلية، واسمه : ربيع بن ربيعة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا) . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية وجـ ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ رُوِى عن عثمان بن مَظْعون أنه قال : لمـا نزلت هذه الآية قرأتُها على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجّب فقال : يا آل غالب ، اتبعوه تفلحوا ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق . وفى حديث — إن أبا طالب لمـا قيـل له : إن آبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسـان » الآية ، قال : اتبعوا آبن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحـاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبىّ صـلى الله عليه وسـلم على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، فقال : يابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، و إن عليه لَطُلاوة ، و إن أصله لمُورِق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر ! وذكر الغَزْنَوىّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسـلمت ابتـداءً إلّا حياءً من رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى نزلت هـذه الآية وأنا عنده فآستقر الإيمـان فى قلبى ، فقـرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يابن أخى أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة ، ... وذكر تمام الخبر . وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل ، ولشر يجتنب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العـدل الإحسان ، وزكاة القـدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف ، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العـدل لا إله إلا الله ، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض ، والإحسان النافلة . وقال سـفيان بن عُيينة : العـدل ها هنا استواء السريرة ، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علىّ بن أبى طالب : العـدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات ، وترك الظلم والإنصاف ، وإعطاء الحق . والإحسان هو فعـل كل مندوب إليه ؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه ، ومنهـا ما هو فرض ، إلا أن حدّ الإجزاء منـه داخل فى العـدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر ؛ لأن أداء الفرائض هى الإسلام حسبما فسره رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل ، وذلك هو العدل ، وإنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل بقوله : "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربى : العـدل بين العبد وبين ربه إيثارُ حقـه تعالى على حظ نفسه ، وتقديمُ رضاه على هواه ، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للاوامر . وأما العـدل بينـه وبين نفسه فمنعها ممـا فيه هلاكها ؛ قال الله تعـالى : « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى »[(١)] وعُزوبُ الأطماع عن الاتبـاع ، ولزومُ القناعة فى كل حالٍ ومعنًى . وأما العـدل بينه وبين الخلق فبـذلُ النصيحة ، وتركُ الخيـانة فيما قلّ وكثُر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعـل لا فى سِرٍّ ولا فى علَن ، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقلّ ذلك الإنصافُ وتركُ الأذى .

قلت : هذا التفصيل فى العدل حَسَنٌ وعدل ، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما متعد بنفسه ؛ كقولك : أحسنت كذا ، أى حسّنته وكمّلته ، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشئ . وثانيهما متعدٍّ بحـرف جر ؛ كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معًا ؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض ، حتى أن الطائر فى سجنك والسِّنّوْر فى دارك لا ينبغى أن تقصر تعهّده بإحسانك ؛ وهو تعالى غنىّ عن إحسانهم ، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن . وهو فى حديث جبريل

---

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

بالمعنى الأول لا بالثاني؛ فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بآدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليــه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعــلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: "وجُعلت قرّة عيني في الصلاة". وثانيهما — لا تنتهي إلى هــذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليــه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعــالى «ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ»(١) وقوله: «إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ»(٢).

الثالثـــة — قوله تعــالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي القرابة؛ يقول: يعطيهم المــال كما قال «وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ»(٣) يعني صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدلّ الشافعيّ في إيجاب إيتاء المُكاتَب؛ على ما يأتي بيانه. وإنمــا خص ذا القربى لأن حقوقهم أوْكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرَّحِم التي اشتق الله آسمها من آسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح: "أمَا تَرْضَيْن أن أَصِلَ من وصلكِ وأقطعَ من قطعكِ"(٤). ولا سِيّما إذا كانوا فقراء.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ الفحشاء: الفُحْش، وهو كل قبيح من قول أو فعـل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل هو الشرك. والبغي: هو الكِبر والظلم والحِقد والتعدّي؛ وحقيقته تجاوز الحدّ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره. وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْيٍ". وقال عليه السلام: "الباغي مصروع". وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر. وفي بعض الكتب المنزّلة: لو بَغَى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكًّا.

---

(١) آية ٢١٨ سورة الشعراء.　(٢) آية ٦١ سورة يونس.　(٣) آية ٢٦ سورة الإسراء.

(٤) راجع صحيح البخاري في كتاب التفسير في سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد. وصحيح مسلم في كتاب الأدب.

الخامســـة — ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه فقال : (باب قول الله تعـالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبَغْي يَعِظُكم لعلكم تذكرون »، وقوله : « إنما بَغْيُكم على أنفسكم » ، «ثمّ بُغِيَ عليه لينصرنَّه الله»، وترك إثارة الشر على مسـلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشـة فى سِحْر لبيـد ابن الأَعْصَم النبيَّ صلى الله عليه وسلم . قال آبن بطال : فتأول رضى الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر، كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : "أمّا الله فقد شفانى وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا" . ووجه ذلك — والله أعلم — أنه تأول فى قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » الندب بالإحسان إلى المسىء وترك معاقبته على إساءته . فإن قيـل : كيف يصح هـذا التأويل فى آيات البغى . قيـل : وجه ذلك — والله أعلم — أنه لمّـا أعلم الله عباده بأن ضرر البغى ينصرف على البـاغى بقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » وضمِن تعالى نُصرة من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمن بغى عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلة ذلك بالعفو عمن بَغى عليـه ؛ وكذلك فعل النبيّ صلى الله عليه وسـلم باليهودى الذى سحره ، وقد كان له الآنتقام منه بقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثـل ما عُوقبـتم بِهِ » (١) . ولكن آثر الصـفح أخذا بقوله : « وَلَمَنْ صَـبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلِك لمن عَزْمِ الأمـــورِ » (٢) .

السادســـة — تضمنت هذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما (٣) . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يُثْبِتوا عليه كبير ظلم ولا جوره فى شىء ؛ فقام فتًى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(١) آية ١٢٦ من هذه السورة . (٢) آية ٤٣ سورة الشورى . (٣) راجع جـ ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ لفظ عام لجميع ما يُعقد باللسان و يلتزمه الإنسان من بيع أوصلة أو موائقة فى أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمّن قوله « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فى بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وآبن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بينـاه . روى الصحيح عن جُبير بن مُطْعِم قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حِلْف فى الإسلام وأيُّما حِلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة " يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذى ذكره آبن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه(١)، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظْلمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حِلْف الفضول، أى حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى آبن إسحـاق عن آبن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا ما أُحِبّ أن لى به حُمْر النَّعَم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت " . وقال آبن إسحاق : تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن علىّ فى مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علىّ : أحلِفُ بالله لتُنْصِفَنّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحلف الفضول . قال عبـد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعانا(٢) لآخذن سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . و بلغت المِسْوَرَ بن مَخْرمة فقال مثل ذلك . و بلغت

(١) فى سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » . (٢) فى سيرة ابن هشام : «لئن دعا به» .

عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصفه . قال العلماء : فهذا الحلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شدّه الإسلام وخصّه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا حِلْف فى الإسلام ". والحكمة فى ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلّفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ على الذِين يَظْلِمون النـاسَ ويَبْغُونَ فِى الأرضِ بِغَيْرِ الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم » (١) . وفى الصـحيح : " أُنصر أخاك ظالمـا أو مظلوما " قالوا : يا رسول الله ، هـذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالمـا؟ قال : " تأخذ على يديه — فى رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره " . وقد تقدّم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، ووكّد وأكّد ، وهما لغتان .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ يعنى شهيدا . ويقال حافظا، ويقال ضامنا . وإنمـا قال « بَعْدَ تَوْكِيدِها » فَرْقًا بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لَغْو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان فى الشىء الواحد مرارا، يردّد فيه الأيمـان ثلاثا أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا . قال : فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفّارة اليمين . وقال يحيى بن سـعيد : هى العهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفّر . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند آسته بقدر غَدْرته يقال هذه غدرة فلان" . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحلّ ما انعقدت عليـه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدّم فى المـائدة (٢) .

(١) آية ٤٢ سورة الشورى . (٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ النّقض والنّكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث . فشبّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحْكَمًا ثم تحلّه . ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّى ولم يسمّيا المرأة. وقال مجاهد وقتادة: وذلك ضَرْبُ مثلٍ، لا على امرأة معيّنة . و «أنكاثا» نصب على الحال . والدَّخَل : الدَّغَل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الاية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذ حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة فى الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النّهى عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان . ﴿ أَرْبَى ﴾ أى أكثر؛ من رَبَا الشيء يربو إذا كثر . والضمير فى « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامة ما كنتم فِيه تختلِفون ﴾ من البعث وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم، عَدْلًا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ؛ فضلا منه عليهـم، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أنتم . والآية ترد على أهـل القدر كما تقدم . واللام فى «وليبينن ولتسئلن» مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أى والله ليبينن لكم ولتسئلن .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة فى النهى عنه لعظم موقعه فى الدِّين وتردده فى معاشرات الناس؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للستقيم الحال يقع فى شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

* فلما توافينا ثَبَتُّ وَزَلَّتِ *

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط فى وَرْطة : زلّت قدمه؛ كقول الشاعر :

سَيُمْنَعُ منك السبقُ إن كنتَ سابقا * وتقتـل إن زلّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلّ فيـه . ثم توعّد تعالى بعـدُ بعذاب فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم؛ فإن من عاهده ثم نقض عهـده خرج عن الإيمـان، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدّكم . وذَوْقُ السوء فى الدنيا هو مايحل بهم من المكروه .

قوله تعالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ نهى عن الرُّشا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أى لا تنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدنيا . وإنما كان قليلا وإن كثر لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عند اللهِ بَاقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفَد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفَى بالعهد وثَبَت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المالُ ينفَدُ حِلُّه وحرامه * يوما وتبقى فى غدٍ آثامُه
ليس التَّقِىُّ بمتَّقٍ لإلهه(١) * حتى يطيب شرابه وطعامه

آخر :

هَب الدنيا تساق إليك عفوًا * أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثلُ فَىْءٍ * أظلَّك ثم آذن بالزوال

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصى . ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « ولنجزِيَنّ » بالنون على التعظيم . الباقون بالياء . وقيل : إن هذه الآية « ولا تشتروا » إلى هنا نزلت فى امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه ابن أَسْوع(٢)، اختصما فى أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه؛ والله أعلم .

---

(١) فى نسخ الأصل : * ليس التقى بمن يمير بأهله * والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق .

(٢) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : «ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى حاصر امرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية .

قوله تعـالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ شرط وجوابه . وفى الحياة الطيبة خمســة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عبـاس وسعيد بن جُبير وعطاء والضحاك . الثانى — القناعة ؛ قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبِّه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن فى فاقة ومَيْسرة فحياتُه طيبة، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها . وقال مجاهد وقَتادة وابن زيد : هى الجنة، وقاله الحسن، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل هى السعادة، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الورّاق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هى أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هى المعرفة بالله، وصدقُ المقام بين يدى الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقارُ إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « مَن » يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ؛ وقد تقدّم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهــل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان، فقال هؤلاء : نحن أفضــل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾

فيــه مسألة واحدة — وهى أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذتَ فى قراءته فآستعذ بالله من أن يعـرض لك الشيطان فيصدّك عن

تدبّره والعمل بمـا فيه؛ وليس يريد استعذ بعـد القراءة؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله؛ أى إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم حين افتتح الصلاة قال : "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه وَنَفْخه ونَفْثه"(١) . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة . قال الكِيَا الطبرى : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعـالى : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولا شـك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قِيَامًا وقُعُودا »(٢) . إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعـالى : « وإذا قلتم فاعدلوا »(٣) « وإذا سألتموهُنّ مَتاعًا فاسألوهن مِن وراءِ حِجاب »(٤) وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعـد سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فاَصْدُق ، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعنى قبـل الإحرام. والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة. وقد تقدم هذا المعنى، وتقدّم القول فى الاستعاذة مستوفًى(٥) .

قوله تعـالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكُفْر، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سـفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصى . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

---

(١) الهمز : النخس والغمز، وكل شىء دفعته فقـد همزته . والنفخ : الكِبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمـع نفسه ونَفَسه فيحتاج أن ينفخ . والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره فى الحديث أنه الشّعر؛ لأنه ينفث من الفم .

(٢) آية ١٠٣ سورة النساء .  (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام .  (٤) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

(٥) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

سلطانه عليهم حين قال عدو الله إبليس لعنه الله « ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلَصين» [1] قال الله تعالى : «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين» .

قلت : قد بينا أن هذا عامٌ يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدمَ وحواءَ عليهما السلام بسلطانه ، وقد شَوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربّك ؟ حسبما تقدّم فى آخر الأعراف بيانه [2] . ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أى يطيعونه . يقال : توليته أى أطعته ، وتوليت عنه ، أى أعرضت عنه . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أى بالله ؛ قاله مجاهد والضحاك . وقيل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبى . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أى من أجلها . وصار فلان بك عالمـا ، أى من أجلك . أى والذى تولّى الشيطانَ مشركون بالله .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة متقدّمة بشريعة مستأنفة ؛ قاله ابن بحر . مجاهد : أى رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشدّ منها عليهم . والنسخ والتبديل رفعُ الشئ مع وضع غيره مكانه . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة مستوفًى [3] . ﴿قَالُوا﴾ يريد كفار قريش . ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أى كاذبٌ مختلِق ، وذلك لمـا رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبديل البعض بالبعض . وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

---

(١) آية ٣٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٤٨ وما بعدها طبعة ثانية . (٣) راجع ج ٢ ص ٦١

ٱلْقُـدُسِ ﴾ يعنى جبريل، نزل بالقرآن كلّه ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشّعْبيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سـنين، فكان يأتيـه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفى صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » مَلَك لم ينزل إلى الأرض قطّ . كما تقدّم فى الفاتحة بيانه (١) . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى من كلام ربك . ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بما فيه من الحجج والآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى وهو هدى . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف فى اسم هـذا الذى قالوا إنما يعلّمه؛ فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أمِّيٌّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمى؛ فقال الله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾ أى كيف يعلّمه جبر وهو أعجمى هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمدا، فيقول : لا والله، بل هو يعلمنى ويهدينى . وقال ابن إسحاق : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — كثيرا ما يجلس عند المَرْوَة إلى غلام نصرانى يقال له جبر، عبدُ بنى الحضرمى، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعـلم محمدا ما يأتى به إلا جبر النصرانى . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبنى الحضرمى ، كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يلقّنه القرآن ؛ ذكره المـاوردىّ . وذكر الثعلبىّ عن عكرمة وقتـادة أنه غلام لبنى المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنمـا يعلّمه بشر، فنزلت . المهدوىّ عن عكرمة :

(١) راجع جـ ١ ص ١١٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبـد الله بن مسلم الحضرمىّ : كان لنـا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر . كذا ذكر المـاوردىّ والقشيرىّ والثعلبى، إلا أن الثعلبىّ قال: يقال لأحدهما نَبْت و يكنى أبا فُكَيْهة ، والآخر جبر، وكانا صَيْقَلَين[1] يعملان السيوف، وكانا يقرأان كتابا لهم . الثعلبى : يقرأان التوراة والإنجيل . المـاوردىّ والمهدوىّ : التوراة . فكان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يمرّ بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون : يتعـلّم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنَوْا سلمان الفارسى رضى الله عنه؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة آسمه بلعام، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قاله آبن عبـاس . وكان المشركون يرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه و يخرج من عنـده ، فقالوا : إنمـا يعلمه بلعام . وقال القُتَبِىّ : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الكفار : إنما يتعلّم محمـد منه ، فنزلت . وفى رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حو يطب بن عبـد العُزّى و يسار أبو فكيهة مولى آبن الحضرمى ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله،وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَئُوا إلى هؤلاء جميعا، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ؛ لأن سلمان إنما أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهذه الآية مكية.﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال : لحد وألحد، أى مال عن القصد . وقد تقدّم فى الأعراف[2] . وقرأ حمزة «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء؛ أى لسان الذى يميلون إليه و يشيرون أعجمىّ . والعُجْمة : الإخفاء وضدّ البيان . ورجل أعجم وآمرأة عجماء ، أى لا يُفصح؛ ومنه عُجْم الذنب لآستتاره . والعجماء:

---

(١) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٨ طبعة اولى أو ثانية .

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتـكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفرّاء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة و إن كان من العرب ،والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو على :الأعجمى الذى لا يفصح ، سـواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم و إن كان فصيحا . وأراد باللسـان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لسان؛ قال الشاعر :

لســـانُ الشرتهـديها إلينـا ٭ وخُنت وماحسبتك أن تخونا

يعنى باللسان القصيدة . ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعـالى : إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ هـذا جواب وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم. ويقال : كذب فلان ولايقال إنه كاذب؛ لأنّ الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما . فأما النعت فيكون لازما ولهذا يقال : عصى آدمُ ربَّه فغوَى ، ولا يقال : إنه عاصٍ غاوٍ . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « ولا تنقُضُوا الأيمان بعدَ تَوْكيدِها» فكان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وآرتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ومِقْيَس بن صُبابة وعبد الله بن خَطَل[1]، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . وقال الزجاج : « من كفر بالله من بعد إيمانِهِ » بدل ممن يفترى الكذب؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلّقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَن » ابتداء وخبره محذوف، اكتُفِى منه بخبر « من » الثانية؛ كقولك : مَن يأتنا مَن يحسن نكرمه.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت فى عمّار بن ياسر، فى قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمّه سُمَيّة وصُهيبا وبلالا وخبّابا وسالمـا فعذّبوهم، ورُبطت سُمَيــة بين بعيرين ووُجِئ قُبُلُها بحربة ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهًا ، فشكا ذلك إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وســلم : " كيف تجد قلبك " ؟ قال: مطمئن بالإيمان . فقال رســول الله صلى الله عليه وســلم : " فإن عادوا فَعُـدْ " . وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال : أول شهيدة فى الإسلام أم عمار، قتلها أبو جهل، وأول

(١) فى الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو تحريف .

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهـد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخَبّاب ، وصهيب ، وعَمّـار ، وسُمية أم عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسـلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صَهَروهم فى الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبُّهم ويوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبها ويَرْفُث(١) ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها ؛ رضى الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فجعلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَدٌ أحد ، حتى ملّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ(٢) مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذى قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه فى الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالا فأعتقه . وروى ابن أبى نَجيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أن هاجروا إلينا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينـة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهـم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق . وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خُيِّر عمّار بين أمرين إلا اختار أرشـدهما " هـذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إن الجنـة تشتاق إلى ثلاثة علىّ وعمّـار وسلمان بن ربيعـة " . قال الترمذيّ : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثــة — لمـا سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عنـد الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

---

(١) الرفث : الفحش من القول .　　(٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ؛ وهما أبو قبيس والأحمر.

عليه حكم؛ و به جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما آستكرِهوا عليه" الحديث. والخبر و إن لم يصح سنده فإن معناه صحيح بآتفاق من العلماء؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربيّ . وذكر أبو محمـد عبد الحق أن إسناده صحيح ، قال : وقـد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد وابن المنذر فى كتاب الإقناع .

الرابعـــة — أجمع أهل العلم على أن من أكرِه على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبُه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعيّ؛ غير محمـد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدا فى الظاهر، وفيما بينه و بين الله تعالى على الإسـلام، وتَبِين منه آمرأته ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يَرِث أباه إن مات مسلما . وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى : «إِلَّا مَن أُكْرِه» الآية . وقال : «إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»(١) وقال : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ»(٢) الآية . وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»(٢) الآية . فعـذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاريّ .

الخامســـة — ذهبت طائفـة من العلمـاء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوا على السجود لغـير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مســلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمـر وأكل الربا ؛ يروى هذا عن الحسن البصريّ ، رضى الله عنه . وهو قول الأوزاعيّ وسُحْنون من علمائنا . وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير : اُسجد لهذا الصنم و إلا قتلتك . فقال : إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد و يكون نيتـه لله تعالى ، و إن كان لغير القبلة فلا يسجد و إن قتلوه . والصحيح أنه يسجد و إن كان لغـير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ ؛ ففى الصحيح عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران جـ ٤ ص ٥٧ (٢) آية ٩٧ سورة النساء جـ ٥ ص ٣٤٥

وجهه، قال : وفيـه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »(١) فى رواية : ويُوتِر عليها ، غير أنه لا يصلّى عليهـا المكتوبة . فإذا كان هـذا مباحا فى السفر فى حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يَدرأ عنّى سوطين من ذى سـلطان إلا كنت متكلّما به . فقصَر الرخصـة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل فى حكمه . وقالت طائفـة : الإكراه فى الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمـان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول؛ وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار فى رمضان، أن الإثم عنه مرفوع.

السادســـة — أجمـع العلمـاء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجـوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذى نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدى نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

واختلف فى الزنى ، فقال مُطَرِّف وأَصْبَغ وابن عبد الحكم وابن المـاجِشُون : لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحَدّ ؛ وبه قال أبو ثَوْر والحسن. قال ابن العربى : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حدّ عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خُلقية لا يتصوّر الإكراه عليها، وغفل عن السبب فى باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذى أسـقط حكمه ، وإنمـا يجب الحَدّ على شهوة بعث عليها سبب اختيارى، فقاس الشيء على ضـده، فلم يحـل بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم : عليه الحـدّ؛ لأنه إنمـا يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم : لا حدّ عليه. قال ابن خُوَيْزِ منداد : وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن أستحسن ألا يحـدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لا حدّ عليه فى الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار،

---

(١) آية ١١٥ سورة البقرة، جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان .

السابعـــة — اختلف العلمـاء فى طلاق المكره وعتاقـه ؛ فقال الشافعىّ وأصحـابه : لا يلزمه شىء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلىّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عبـاس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعى وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وأجازت طائفة طلاقه ؛ روى ذلك عن الشّعْبِىّ والنَّخَعِىّ وأبى قلابة والزهرى وقتادة ، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة : طلاق المكره يلزم ؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا ، وليس وجوده بشرط فى الطلاق كالهازل . وهذا قياس باطل ؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راضٍ به ، والمكره غير راض ولا نية له فى الطلاق ، وقـد قال عليه السلام : " إنمـا الأعمال بالنيات " . وفى البخارى : وقال ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشىء ؛ و به قال ابن عمر وابن الزبير والشعبى والحسن . وقال الشعبى : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق ، و إن أكرهه السلطان فهـو طلاق . وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللّص يُقْدِم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنـــة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله فى حق وجب عليه ؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيـه عند الفقهاء ؛ لأنه يلزمه أداء الحـق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه ، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن ، و يتبع المشترى بالثمن ذلك الظالم ؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشترى غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشترين يعـلم حال المكره فإنه ضامن لمـا ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلمـا أحدث المبتاع فى ذلك من عتـق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره ، وله أخذ متاعه . قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجَوْر لا يجوز . وقال الأَبْهَرِىّ : إنه إجماع .

التاســعة — وأما نكاح المكره ؛ فقال سُحْنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد . قال محمـد بن سُحنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداقُ مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف و يبطل الفضل . قال محمـد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتـة فى حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية، ولأمره صلى الله عليـه وسلم بالاســتئمار فى أبضاعهن، وقـد تقدّم، فلا معنى لقولهم .

العاشـــرة — فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمَّى من الصداق ودُرِئ عنه الحد. و إن قال : وطئتها على غير رضًا منى بالنكاح فعليه الحـد والصداق المسمَّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمى، وتُحَدّ المرأة إن أقدمت وهى عالمـة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهـة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولهـا الصداق، و يحدّ الواطئ؛ فآعلمه . قاله سحنون .

الحادية عشرة — إذا اسـتكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها؛ لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فإنّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنّ غفور رحيم »(١) يريد الفتيات . و بهذا المعنى حكم عمر فى الوليدة التى استكرهها العبد فلم يحدّها . والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرَهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت آستكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحَدّ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تَدْمَى على أنها أُوتيت(٢)، أوما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمـر بن الخطاب أنه قال : الرجم فى كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أوكان الحَبَل أو الاعتراف . قال ابن المنـذر : وبالقول الأوّل أقـــول .

(١) آية ٣٣ سورة النور .	(٢) عبارة الموطأ : « أو جاءت تدمى إن كانت بكرا أو استغاثت حتى أتيت وعلى ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة — واختلفوا فى وجوب الصداق للستكرهة ؛ فقال عطاء والزُّهْرِىّ : لها صداق مثلها؛ وهو قول مالك والشافعىّ وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وقال الثَّوْرِىّ : إذا أقيم الحدّ على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبى ، و به قال أصحاب مالك وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لما لم يَحِلّ أسلمها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا آحتمل أذية فى تخليصها . والأصل فى ذلك ما خَرّجه البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلىّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّى فقالت اللهم إن كنتُ آمنتُ بك و برسولك فلا تسلّط علىّ هذا الكافر فغُطّ حتى رَكَض برجله"(١) . ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لما لم يكن عليها ملامة، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عند مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر العلماء . قال ابن الماجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصية إذا أكره على اليمين؛ وقاله أصْبَغ . وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس فى فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، و إن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لايشرب خمرا، أولا يفسق ولا يَغُشّ فى عمله ،أو الوالد يحلّف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم؛ و إن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث، قالوا : لأن المكره له أن يورِّىَ فى يمينه كلها، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيّته مخالفة لقوله؛ لأنه كاره لما حلف عليه .

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا، فراجعه فى شرح القسطلانى، كتاب البيوع ج ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق .

الخامسة عشرة — قال ابن العربى : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا فى الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا؛ وهـذه مسئلة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هـذه المسئلة ولا كانوا ! وأىّ فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين فى أنها لا تلزم و بين الحنث فى أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة فى الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف و إلا أخذ له مال كأصحاب المَكْس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء، فقال مالك : لا تَقِيّة له فى ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن الماجشون : لا يحنث و إن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطرِّف، و رواه عن مالك؛ وقاله ابن عبد الحكم وأَصْبَغ .

قلت : قول ابن الماجشون صحيح؛ لأن المدافعة عن المال كالمدافعة عن النفس؛ وهو قول الحسن وقتادة وسيأتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقال : " كُلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . و روى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال : " فلا تُعْطِه مالك " . قال : أرأيت إن قاتلنى؟ قال : " قاتله " قال : أرأيت إن قتلنى؟ قال : " فأنت شهيد " قال : أرأيت إن قتلته؟ قال : " هو فى النار " خرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطرف وابن الماجشون : و إن بدر الحالف بيمينه للوالى الظالم قبل أن يَسْألها ليَذُبّ بها عما خاف عليه من ماله و بدنه فحلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ . وقال أيضا ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، و إنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبة خوف و رجاء النجاة من ظلمه فقد دخل فى الإكراه ولا شىء عليه، و إن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض[1]؛ فإن فى المعاريض لمندوحةً عن الكذب . ومتى لم يكن

(١) المعاريض : التورية بالشىء عن الشىء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا فى المعانى .

كذلك كان كافرا؛ لأن المعـاريض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهى ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبيّ فيقول هو كافر بالنبيّ، مشددا وهو المكان المرتفع من الأرض (١) . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المـائدة، فيقصد أحدَهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه . فإن قيل له : أكفر بالنبيء (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبر ، أى مخبر كان كطليحة (٢) ومُسَيْلِمة الكذاب . أو يريد به النبيء الذى قال فيه الشاعر :

فأصبح رَتْماً دُقاقَ الحَصَى (٣) * مكان النبيء من الكاثب

الثامنة عشرة — أجمع العلمـاء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عنـد الله ممن آختار الرخصة . وآختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحـل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدّة فى ذلك وآختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابن حبيب وسُحنون . وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خِفنا أن يكون آثمـا لأنه كالمضطر . وروى خَبّاب بن الأَرَتّ قال : شكونا إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو متوسّـد بُرْدةً له فى ظل الكعبـة فقلت : أَلَا تَسْتَنْصِرْ لنا أَلَا تدعو لنا ؟ فقال : " قدكان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتِمَّنّ هذا الأمر (٤) حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حَضَرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون " . فوَصْفُه صلى الله عليه وسلم هـذا عن الأمم السالفة على جهة المـدح لهم والصبر على المكروه فى ذات الله ، وأنهـم لم يكفروا فى الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة مَن آثر الضرب

(١) ومنه الحـديث : « لا تصلوا على النبيّ » أى على الأرض المرتفعة المُحَدْوَدِبَة . (٢) هو طليحة آبن خويلد بن نوفل الأسدى؛ ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وآدعى النبوّة ثم أسلم . (٣) الرتم (بالتاء والثاء): الدّق والكسر . ويريد بالنبيء المكان المرتفع . والكاثب : الرمل المجتمع . (٤) يريد الاسلام .

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الأخدود»[1] إن شاء الله تعـالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِيّ قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلِمَة أخذوا رجلين من أصحاب النبيّ صلى الله عليـه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رســول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أنى رســول الله ؟ قال نعم . فخلّى عنــه . وقال للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أنى رسول الله ؟ قال : أنا أصمّ لا أسمع ؛ فقدّمه وضرب عنقه . فجاء هــذا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ ! قال : "وما أهلكك"؟ فذكر الحديث، قال : "أمّا صاحبك فأخذ بالثّقة[2] وأما أنت فأخذت بالرخصة . على ما أنت عليــه الساعة" ؟ قال : أشهد أنك رســول الله . قال : "أنت على ما أنت عليه" . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقــدّم ما للعلماء في هــذا . وذكر موسى بن معاوية أن أبا ســعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : فحلف له ابن أشرس؛ وابن أشرس يومئــذ قد علم موضعه وآواه، فحلفه بالطلاق ثلاثا، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته : اعتزلى فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول: قال مالك إنك حانث . فقــال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، و إنمـا أردت الرخصة، أوكلام هــذا معناه؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصرى إنه لا حنث عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثنى معبــد عن المسيب بن شريك عن أبى شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف لِيَقيه بيمينه ؟ فقال نعم؛ وَلأن أحلف سبعين يمينا

---

(١) هى سورة البروج رقم ٨٥　　(٢) عبارة الدر المنثور : « أما صاحبك فمضى على إيمانه » .

وأحنث أحبّ إليّ أن أدلّ على مسـلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليـد بن عبـد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال : فجلس رجل منهم فى حَلْقة رجاء بن حَيْوة فسمع بعضهم يقع فى الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء فى مجلسك ولم تغيّر ! فقـال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقـال له الوليـد : قل : آلله الذى لا إله إلا هو ، قال : الله الذى لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليـد بالجاسوس فضربه سبعين سوطـا ، فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يستـقى المطر، وسبعون سـوطا فى ظهرى ! فيقول رجاء : سبعون سوطا فى ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختلف العلماء فى حَدّ الإكراه؛ فروى عن عمـر بن الخطاب رضى عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنتُ متكلمـا به . وقال الحسن : التقية جائزة للؤمن إلى يوم القيامة؛ إلا أن الله تبارك وتعـالى ليس يجعل فى القتل تقيّة . وقال النَّخَعِىّ : القيد إكراه، والسجن إكراه . وهـذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لمـا يتوعّد به ، وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . وإكراه السلطان وغيره عنـد مالك إكراه . وتنـاقض الكوفيون فلم يجعـلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمـر وأكل الميتة؛ لأنه يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراها فى إقراره لفلان عنـدى ألف درهم . قال ابن سحنون : وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشـديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أوسجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثَوْر وأكثر العلمـاء .

الموفيـة عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنـك شيء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذى قلت ، وهو فى ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك فى يمينه ولا كذب عليـه فى كلامه . وقال النخعىّ : كان لهم كلام من ألغاز الأيمـان يدرءون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث. قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك فى غير مكر ولا خديعة فى حق . وقال الأعمش : كان إبراهيم النخعى إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس فى مسجد بيته وقال لجاريته : قولى له هو والله فى المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجـيز للرجل من البَعْث إذا عُرضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدى إلا ما سدّد لى غيرى، ولا أركب إلا ما حملنى غيرى؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعنى بقوله « غيرى » اللهَ تعالى ، هو مسدّده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل فى هذا حنثا فى يمينه، ولا كذبا فى كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هـذا فى خديعة وظلم وجُحدان(١) حق فمن اجترأ وفعل أثم فى خديعته ولم تجب عليـه كفارة فى يمينه .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسّـعه لقبول الكفر، ولا يقـدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية . و «صدرا» نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

---

(١) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة فى هذه المادة .

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك الغضب. ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى اختاروها على الآخرة. ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ ﴾ « أنّ » فى موضع خفض عطفا على « بأنهم ». ﴿ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى عن فهم المواعظ. ﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى. ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر فى الآيات. ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم. ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ تقدّم (١).

قوله تعـالى: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله فى عمّار. والمعنى وصبروا على الجهاد؛ ذكره النحاس. وقال قتادة: نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم، وقـد تقدّم ذكرهم فى هـذه السورة (٢). وقيـل: نزلت فى ابن أبى سَرْح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ ذكره النسائى عن عكرمة عن ابن عبـاس قال: فى ســورة النحل « من كفر بالله من بعد إيمـانه إلا من أكره — إلى قوله — ولهم عذاب عظيم » فنسخ، واستثنى من ذلك فقـال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان على مصر، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله تعـالى: يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم فى ذلك . أو ذَكِّرهم « يوم تأتِى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها » أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها ؛ جاء فى الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل فى أمته . وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تاراتٌ لا يُهمّك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبيّ منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدْلِي بالخُلّة فيقول : يارب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك فى كتاب الله ؟ قال : قوله تعالى : « يوم تأتِى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما عمِلت وهم لا يظلمون » . وقال ابن عباس فى هـذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد ؛ فتقول الروح : ربِّ ، الروح منك أنت خلقته ، لم تكن لى يد أبْطُش بها ، ولا رجل أمشى بهـا ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت فدخلت فى هـذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى ؛ فيقول الجسد : ربّ ، أنت خلقتنى بيدك فكنتُ كالخشبة ، ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسعى به ، ولا بصر أبصر به ، ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع النور ، فبه نطق لسانى ، وبه أبصرت عينى ، وبه مشت رجلى ، وبه سمعت أذنى ، فضعِّف عليـه أنواع العذاب ونجنى منه . قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقْعدًا دخلا بستانا فيـه ثمـار ، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمُقْعد لا ينالها ، فنادى المقعدُ الأعمى ايتنى فاحملنى آكل وأطعمك ، فدنا منـه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعـالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَـةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَـا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركى قريش وقال : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف " . فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرق فيهم . ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لا يُهاج أهلها . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر، نظيره « يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ »(١) الآية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع النِّعمة، كالأشُدّ جمع الشِّدة . وقيل : جمع نُعْمَى، مثل بؤسى وأبؤس . وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أى اذاق أهلها . ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى . وقرأه حفص ابن غياث ونصر بن عاصم وابن أبى إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس « والخوفَ » نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على « لباسَ الجوع » وأذاقها الخوف . وهو بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم سراياه التى كانت تُطيف بهم . وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد ؛ أى أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّا كفر أهلها أصابهم القَحْط فكيف بغيرها من القرى . وقد قيل : إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كفرت بأنْعُم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَي النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه مَثَل مضروب بأىّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾

---

(١) آية ٥٧ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذى وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للمشركين ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقّةً عليهم ، وذلك أنهم لما ٱبتُلوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم المِيرَة بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الوَبَر يعالج بالدّم . ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرَّحِم والعفو ، و إن قومك قد هلكوا ؛ فٱدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذِن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم فى « البقرة » القولُ فيها مستوفًى (١) .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

فيــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجْل ، أى لا تقول لأجل وصفكم « الكذب » بنزع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقرئ «الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء ، نعتا للألسنة ، وقد تقدّم (١) . وقرأ الحسن هنا خاصّةً « الكَذِبِ » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتا «لما» ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ . وقيل على البدل من ما ؛ أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم هـذا حلال وهذا حرام لِتفتروا على اللهِ الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله « هذا حلال » إشارة إلى ميتة بطون الأنعـام ، وكل ما أحلّوه . وقوله « وهـذا حرام » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانيــة ــ أسند الدّارِمِىّ أبو محمـد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فُتْيَا الناس أن يقولوا هـذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إيّاكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هـذا . ومعنى هـذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعـالى يخـبر بذلك عنه . وما يؤدى إليـه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره [ كذا ] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيـل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت علىّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجـواب أن مالكا لمّا سمع علىّ بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة[(١)]، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الرّبوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بيّن أن الأنعام والحَرْث حلال لهـذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام[(٢)]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي بتحريم ماحرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشـياء عقوبة لهم؛ كما تقدم في النساء[(٣)] .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ أي الشرك؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم في النساء[(٤)] .

قوله تعـالى : إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ دعا عليه السلام مشركي العرب إلى مِلّة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عِزّهم؛ والأمّة : الرجل الجامع للخـير، وقد تقـدم محامله[(٥)] . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن عبـد الله بن مسعود

---

(١) هي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح .　(٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ٦ ص ١٢ طبعة أولى أو ثانية .　(٤) راجع جـ ٥ ص ٩٢　(٥) راجع جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة ثانية .

قال : يرحم الله معاذا ! كان أُمّة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمّة الذى يعلّم الناس الخير ، و إن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت فى البقرة (١) و « حنيفا » فى الأنعام (٢) .

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا ﴾ أى كان شاكرا . ﴿ لِأَنْعُمِهِ ﴾ الأَنْعُم جمع نِعْمة ، وقد تقدم . ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره . ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب . وقيل الثناء الحسن . وقيل : النبوّة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام فى التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلّا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته و زيارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله و زاده صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . « مِن » بمعنى مع، أى مع الصالحين؛ لأنه كان فى الدنيا أيضا مع الصالحين. وقد تقدم هذا فى البقرة (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قال ابن عمر : أُمِر باتباعه فى مناسك الحج كما علّم إبراهيمَ جبريل عليهما السلام . وقال الطبرى : أُمِر باتباعه فى التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أُمِر باتباعه فى جميع ملته إلا ما أُمِر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعى على ما حكاه الماوردى . والصحيح الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا (٤) » .

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر فى الأنعام فى موضعين ، (جـ ٧ ص ٢٨ ، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما ، و إنما تكلم عليه فى سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٩ فراجعه .
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

مسئلة : فى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول — لما تقدم فى الأصول — والعمل به ، ولا دَرَك(١) على الفاضل فى ذلك ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أُمر بالاقتداء بهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ(٢) » . وقال هنا : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى لم يكن فى شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سَمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمال وترك التبسط فى المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة فى كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء فى كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : " دعهم وما اختاروا لأنفسهم " . وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم فى الجمعة فاختلف اجتهادهم فى تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فألزم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمة . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذى

(١) الدرك : التَّبِعة .　(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

اختلفوا فيه فهدانا الله له — قال يوم الجمعة — فاليوم لنا وغدا لليهود و بعد غد للنصارى".
فقوله : " فهذا يومهم الذى اختلفوا فيـه " يقوّى قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عيّن لهم وعاندوا لمـا قيل « اختلفوا » . وإنمـا كان ينبغى أن يقال لخالفوا فيـه وعاندوا . ومـما يقوّيه أيضا قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " . وهـذا نص فى المعنى . وقـد جاء فى بعض طرقه " فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه " . وهو حجـة للقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد فى يوم الجمعة كما بيناه؛ اختلفوا على نبيّهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أُمِر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود .

قوله تعـالى : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمَره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهى محكمـة فى جهة العصاة من الموحِّدين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أُحُد، ووقع ذلك فى صحيح البخارى وفى كتاب السِّيَر. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالا حسنا؛ لأنها تتدرّج الرتبُ من الذى يُدْعَى ويُوعَظ، إلى الذى يجادل، إلى الذى يجازَى على فعله. ولكن ما روى الجمهور أثبت. روى الدّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عباس قال : لما ٱنصرف المشركون عن قتلى أُحُد ٱنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه، رأى حمزة قد شُقّ بطنه، وٱصطُلِم أنفه، وجُدِعت أذناه، فقال : "لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلا" ثم دعا ببردة وغطّى بها وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليه من الإذْخَر، ثم قدّمه فكبر عليه عشرا، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلّى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : « ٱدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسَنة — إلى قوله — وٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بالله » فصبر رسول صلى الله عليه وسلم ولم يُمَثِّل بأحد. خرجه إسماعيل بن إسحاق من حديث أبى هريرة، وحديثُ ٱبن عباس أكمل. وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت : إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لا يتعدّاه الى غيره. وحكاه الماوردى عن ٱبن سيرين ومجاهد.

الثانيـــة — وٱختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ٱئتمن الظالمُ المظلومَ على مال، هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه، فقالت فرقة : له ذلك، منهم ٱبن سيرين وإبراهيم النخعِيّ وسفيان ومجاهد؛ وٱحتجت بهذه الآية وعموم لفظها. وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك، وٱحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أدّ الأمانة إلى من ٱئتمنك ولا تخن من خانك". رواه الدار قطنى وقد تقدّم هذا فى « البقرة » مستوفًى.[1]

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية .

ووقع فى مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد فى رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الاخر من زوجة الثانى بأن تركها عنـده وسافر ؛ فاستشار ذلك الرجل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر فقال له : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تخن من خانك " . وعلى هـذا يتقوى قول مالك فى أمر المـال؛ لأن الخيانة لاحقة فى ذلك ، وهى رذيلة لا انفكاك عنها ، فينبغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيُشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له ؛ كما لو تمكن الاخذ بالحكم من الحـاكم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة ، نسختها « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

الثالثـــة — فى هـذه الاية دليل على جواز التماثل فى القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها . ومن قتل بحجر قُتل به، ولا يتعدّى قدر الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى(1)، والحمد لله .

الرابعـــة — سمىّ الله تعالى الإذايات فى هـذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هى الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتتناسب دباجة القول، وهذا بعكس قوله : «ومكروا ومكرالله» وقوله : «الله يستهزئ بهم» فإن الثانى هنا هو المجاز والأول هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسئلة واحدة — قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور النـاس على أنها مُحْكَمة . أى اصبر بالعفو عن المعـاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله . ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ ضَيْق جمع ضيقة؛ قال الشاعر :

* كَشَفَ الضَّيقةَ عنا وفَسَحْ(2) *

(1) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية .
(2) هذا عجز بيت للأعشى . وصدره كما فى اللسان وديوانه :

* فلئن ربك من رحمته *

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح فى الضاد لغتان فى المصدر . قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون فى الذى يتّسع و يضيق؛ مثلُ الدار والثوب . وقال ابن السِّكِّيت : هما سواء؛ يقال : فى صدره ضَيق وضِيق . القُتَبِيّ : ضَيْق مخفف ضيّق؛ أى لا تكن فى أمر ضَيّق لخفف؛ مثل هَيّن وهَيْن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر . وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدّم معنى الإحسان . وقيل لهَرِم بن حِبّان عند موته : أوصنا؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إلى سبيل ربك » إلى آخرها .

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

---

# تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وإنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَك »[(١)] نزلت حين جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَفْدُ ثقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ »[(٢)] . وقوله تعالى « إنّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاسِ »[(٣)] الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إن الذين أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِه »[(٤)] الآية . وقال ابن مسعود رضى الله عنه فى بنى إسرائيل والكهف [ ومريم ] : إنهن من العِتاق الأول، وهنّ من تِلادِى؛ يريد من قديم كسبه .

---

(١) آية ٧٦ (٢) آية ٨٠ (٣) آية ٦٠ (٤) آية ١٠٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١)

فيـه ثمـان[1] مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليـه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن فى آخره زائدتين، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحانا، مثل كفّرت اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر :

أقــول لمّـا جاءنى فخـْـرهُ * سـبحانَ مِن عَلْقَمــةَ الفاخِرِ[2]

فإنمـا ذكره على طريق النادر . وقـد روى طلحة بن عبيد الله الفَيّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال : "تنزيه الله من كل سوء" . والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذى من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرْفُصاء، واشتمل الصَّمّاء[3]؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيها؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيهـا .

(١) كذا فى جميع الأصول، و يلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفرى فى منافرته لعامر بن الطفيل، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرأ من علقمة ونخره على عامر (عن الشنتمرى).

(٣) الصماء، ضرب من الاشتمال . واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الاعراب بأكسيتهم، وهو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يردّه ثانيـة من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيـه لغتان : سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى، كما تقدّم(١) . قال :

أَسْرتْ عليـــه من الجَوْزاء سارِيَةٌ * تُزْجِى الشَّمال عليـــه جامدَ الـــبَرد(٢)

وقال آخـــر :

حَىِّ النَّضِـــيرة ربةَ الخِـــدْرِ * أَسْرت إلىّ ولم تكن تَسْرِى(٣)

فجمع بين اللغتين فى البيتين . والإسراء : سير الليل؛ يقال : سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر :

وليلة ذات نَدًى سريتُ * ولم يَلِتْنِى من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أوّل الليل، وسرى سار من آخره؛ والأوّل أعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ بِعَبْده ﴾ قال العلماء : لو كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم اسم أشرفُ منه لسمّاه به فى تلك الحالة العلية . وفى معناه أنشدوا :

يا قومِ قلبى عنـــد زهراءِ * يعـــرفه السامع والرائى
لا تَدْعُنِى إلّا بيا عبـــدها * فإنه أشـــرف أسمـــائى

وقد تقدّم(٤) . قال القُشَيْرِىّ : لمـــا رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعا للأمّة .

الرابعـــة — ثبت الإسراء فى جميع مصنّفات الحديث، ورُوى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتيت بالبراق وهو دابة أبيضُ [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرفه — قال — فركبته حتى أتيت بيت المقدس — قال — فربطته بالحَلْقة التى تربط بها الأنبياء — قال — ثم دخلت المسجد

---

(١) راجع ج ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) البيت للنابغة الذبيانى، من قصيدته التى مطلعها : يا دارمية بالعلياء . (٣) البيت لحسان بن ثابت . (٤) راجع ج ١ ص ٢٣٢ طبعة ثانية أو ثالثـــة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة — قال — ثم عَرج بنا إلى السماء ... " وذكر الحديث .

ومما ليس فى الصحيحين ماخرّجه الآجُرِّىّ والسَّمَرْقَنْدِىّ، قال الآجرى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلةِ أُسْرِىَ به ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أُتيت بدابّة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان(١) وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يسارى يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته فى الحَلْقة التى كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصلّيت فيه فقال لى جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج فقال ذلك داعى اليهود ولو وقفتَ لتهوّدت أمتك — قال — ثم سمعت نداء عن يسارى على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه فقال ذلك داعى النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك — قال — ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لآخترت الدنيا على الآخرة — قال — ثم أُتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لى خذ فآشرب أيّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لى جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمتك ثم جاء بالمعراج الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسن ما رأيتُ أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فآستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد أرسل إليه ؟

---

(١) فى الأصول : « يخطرفان » والتصويب عن الدر المنثور .

قال نعم ففتحوا لى وسلّموا علىّ و إذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معــه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف — قال — وما يعلم جُنُودَ رَبّك إلا هو ... " وذكر الحــديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة و إذا أنا بهارون بن عمران المُحَبّ فى قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صـلى الله عليه وسلم وقال طويل اللحيــة تكاد لحيته تضرب فى سُرّته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم علىّ ورحب بى — فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولوكان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . و روى البزّار أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أُتِى بفرس فحمل عليــه، كلُّ خُطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء فى صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : " بينا أنا نائم فى الحِجْر إذ أتانى آتٍ فحركنى برجله فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليــه السلام قائم على باب المسجد معــه دابة دون البغل وفوق الحمــار وجهها وجه إنســان وخُفّها خُفُّ حافر وذَنَبهــا ذنب ثور وعُرْفها عرف الفرس فلما أدناها منى جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِرى مــن محمد فوالله ما ركبكِ مَلَك مقرب ولا نبيّ مُرْسَل افضــلُ من محمد صــلى الله عليه وســلم ولا أكرم على الله منه قالت قــد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة و إنى أحِبّ أن أكون فى شفاعته فقلت أنت فى شفاعتى إن شاء الله تعــالى ... " الحــديث . وذكر ابو سعيد عبــد الملك بن محمد النّيْسابورى عــن أبى سعيد الخدرى قال : لمــا مر النبيّ صــلى الله عليه وســلم بإدريس عليه الســلام فى السماء الرابعــة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذى وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسِرّتها من عرق واحد فلمــا عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمــع بين الثلج والنار من قالهــا مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهــم آستفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكهل لم يُرَ قَطّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من سرته قـد كاد أن تكون شَمِطَة[1] وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ فى قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها ابو الربيع سليمان ابن سبع بكمالها فى كتاب ( شفاء الصدور ) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنمـا فرضت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فى حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهى ممـا ينبغى الوقوف عليها والبحث عنها، وهى أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيهـا من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعـون الله تعـالى .

فأما المسألة الأولى — وهى هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختَلَف فى ذلك السلف والخلف، فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصُه مضجَعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحـاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقـدس، و إلى السماء بالروح؛ واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعـل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ فى المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقـدس وصلّى فيه ثم أسْرِىَ بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التى أشرنا إليها والآية . وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» يدل على ذلك. ولو كان مناما لمـا كانت فيـه آية ولا معجزة ، ولمـا قالت له أم هانئ : لا تحـدِّث الناس

(١) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد و بياض .

فيكذبوك، ولا فُضّل ابو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشا التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى آرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقد قال له المشركون : إن كنت صادقا فخبّرنا عن عِيرنا أين لقيتَها ؟ قال : " بمكان كذا وكذا مررتُ عليها ففزِع فلان فقيل له : ما رأيت يافلان، قال : ما رأيت شيئا ! غير أن الإبل قد نفرت" . قالوا : فأخبرنا متى تأتنا العير؟ قال : " تأتيكم يوم كذا وكذا " . قالوا : أيَّةَ ساعة ؟ قال : " ما أدرى ، طلوع الشمس من هاهنا أسرع أم طلوع العِيرُ من هاهنا " . فقال رجل : ذلك اليوم ؟ هذه الشمس قد طلعت . وقال رجل : هذه عِيرُكم قد طلعت، وآستخبروا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك . روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد رأيتُنِي في الحِجْر وقريش تسألني عن مَسْرَاى فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبِتْها(١) فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كُرِبت مثله قطّ — قال — فرفعه الله لى أنظر إليه فما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به " الحديث . وقد اعتُرِض قول عائشة ومعاوية : « إنما أسرى بنَفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم » بأنها كانت صغيرة لم تشاهِد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما معاوية فكان كافرا في ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على ( كتاب الشفاء ) للقاضى عياض يجد من ذلك الشفاء . وقد احتجّ لعائشة بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ »(٢) فسماها رؤيا . وهذا يردّه قوله تعالى : « سبحان الذِي أَسْرَى بِعبدِهِ ليلا » ولا يقال في النوم أسرى . وأيضا فقد يقال لرؤية العين : رؤيا، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة . وفى نصوص الأخبار الثابتة دلالةٌ واضحة على أن الإسراء كان بالبدن ، و إذا ورد الخبر بشيء هو مجوّز فى العقل فى قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما فى زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارجُ ، فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام فى الصحيح : " بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث . ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم . والله أعلم .

(١) أى لم أعرفها حق المعرفة ؛ يقال : أثبت الشيء وثابته اذا عرفه حق المعرفة . (٢) آية ٦٠ من هذه السورة .

المسألة الثانية — فى تاريخ الإسراء ، وقـد اختلف العلمـاء فى ذلك أيضا ، واختُلف فى ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرِىَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنـه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الوَقّاصيّ قال : أُسْرِىَ به بعـد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهـاب : وفُرِض الصيام بالمدينة قبـل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرِمت الخمر بعـد أُحُد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس ، وقد فشا الإسلام بمكة فى القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب ، على أن ابن شهاب قـد اختلف عنه كما تقـدّم . وقال الحَرْبِيّ : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علىّ ابن القاسم الذهبى فى تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقـدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبى ، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هـذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهـل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرِج به إلى السماء ، وذلك منصوص فى الصحيح وغيره . وإنمـا اختلفوا فى هيئتهـا حين فرضت ؛ فروى عن عائشـة رضى الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأُقِرّت صـلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشَّعْبِىّ وميمون بن مِهْران ومحمـد بن إسحاق . قال الشعبىّ : إلا المغـرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليـه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعنى فى الإسراء فهمز له بعقبه فى ناحية

الوادى فآنفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضّأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلى ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء. وروى عن ابن عباس أنها فرضت فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبى الحسن البصرى، وهو قول ابن جريج، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك. ولم يختلفوا فى أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها. وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبى المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول: كان أول الصلاة مثنى، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا فصارت سُنّة، وأُقِرّت الصلاة للمسافر وهى تمام. قال أبو عمر: وهذا إسناد لا يحتج بمثله، وقوله «فصارت سُنّة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة فى الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها.

الخامســة — قد مضى الكلام فى الأذان فى «المائدة»[1] والحمد لله. ومضى فى «آل عمران»[2] أن أول مسجد وُضع فى الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجد الأقصى. وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبى ذرّ، وبناء سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمع فى ذلك؛ فتأمله هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدى هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس". خرّجه مالك من حديث أبى هريرة. وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذر صلاة فى مسجد

---

(١) راجع ج ٦ ص ٢٢٤ (٢) ج ٤ ص ١٣٧

لا يصل إليــه إلا برحلة وراحلة فلا يفعـل ، ويصلّى فى مسجده، إلا فى الثـلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رباطا فى ثَغْر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عز وجل . وقد زاد أبو البَخْتَرِىّ فى هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ﴾ سُمِّىَ الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة فى الأرض يعظَّم بالزيارة، ثم قال : ﴿ ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل : بالثمار وبمجارى الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدّسا . وروى معاذ بن جبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى ياشام أنت صفْوَتى من بلادى وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى". ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسـجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ تقدّم (١) .

قوله تعـالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرّمنا محمدا صلى الله عليــه وسلم بالمعــراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيــل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا، معناه أسرينا، يدل عليه ما بعده من قوله : « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » فحمل « وآتينا موسى الكتاب » على المعنى . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . ﴿ وَكِيلًا ﴾ أى شريكا؛ عن مجاهد . وقيل : كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء . وقيل : ربًّا يتوكّلون عليه فى أمورهم؛ قاله الكلبى . وقال الفراء : كافيا ؛ والتقدير : عهدنا إليه فى الكتاب ألا تتخذوا من دونى وكيلا . وقيل : التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

أى يا ذرية من حملنا، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نَجيح . والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوىّ . وقال الماوَرْدِىّ : يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل، والمعنى ياذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا ليذكّرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ « ذَرِّيّة »(١) بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد ابن ثابت . ورُوى عن زيد بن ثابت أيضا « ذِرِّية » بكسر الذال وشدّ الراء . ثم بين أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس ثوبا قال : بسم الله، فإذا نزعه قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال : شُكْرُه إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله . قال سلمان الفارسى : لأنه كان يحمَد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحا عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ . ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل : المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كذا فى نسخ الأصل، ولم نعثر عليه فى المظان .

« ذرية » مفعولا ثانيا لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « وكيلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك فى القراءتين جميعا أعنى الياء والتاء فى « تتخذوا » . ويجوز أيضا فى القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وكيلا » لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعنى وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر فى « تتخـذوا » فى قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرها على البدل من بنى إسرائيل فى الوجهين . فأما « أنْ » من قوله « ألا تتخـذوا » فهى على قراءة من قرأ بالياء فى موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدّم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهى فيكون خروجا من الخبر إلى النهى .

قوله تعـالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِى الكتب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . ومعنى « قَضَينا » أعلمنـا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس : وقال قتـادة : حكمنا؛ وأصـل القضاء الإحكام للشئ والفراغ منـه . وقيل : قضينا أوحينا؛ ولذلك قال : « إلى بنى إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على؛ أى قضينا عليهم وحكمنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنِيّ بالكتاب اللوح المحفوظ . ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس « لَتُفْسَدُنّ » . عيسى الثقفى « لَتَفْسُدُنّ » . والمعنى فى القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ﴿ فِى الأَرْضِ ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ﴿ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ اللام فى « لتفسدن ولتعلن » لام قسم مضمر كما تقـدّم . ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أراد التكبر والبَغْى والطغيان والاستطالة والغَلَبَة والعدوان .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى أولى المرّتين من فسادهم . ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصّر فى المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولوا بأس شديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا فى المرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل؛ ذكره القشيرى أبو نصر . وذكر المهدوِيّ عن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبى نَجِيح عن مجاهد؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق فى خبر فيه طول : إن المهزوم سَنْحَارِيب ملك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتّابه، وبعث ملك بنى إسرائيل واسمه صديقة فى طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح فى رقابهم الجوامع (٢) وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أوّل الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم فى المرة الأولى قتل شعيا نبىّ الله فى الشجرة؛ وذلك أنه لما مات صديقة ملكهم مَرِج (٣) أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بلاق وتاريخ الطبرى ج ٢ قسم أول ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوربا . (٢) الجوامع : الأغلال، والواحد جامعة . (٣) مرج الأمر : فسد واختلط والتبس المخرج فيه .

وتنافسوا على المُلْك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم في قومك أوح على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها . وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيا . وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : « ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » هو سنحاريب من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل . وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم . وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفارا، قاله الحسن . ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا ؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيّ . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة . قال أبو زيد : الحَوْس والجَـوْس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل . وقال الجوهري : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها؛ وكذلك الاجتياس . والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل؛ وهو قول أبي عبيدة . وقال الطبري : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وتردّدوا بين الدُّور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان :

ومنّا الذى لاقى بسيف محمد * فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا؛ قال :

فجُسْنَا ديارهُمُ عَنْـوةً * وأبْنَا بساداتهم مُوثَقينا

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي قضاء كائنا لا خُلف فيه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (٦)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى الدّولة والرجعة؛ وذلك لمّا تبتم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من عدوّكم . والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر :

فأكْرِمْ بقحطانَ من والد * وحِمْــيَرَ أكرم بقوم نفــيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى نفع إحسانكم عائد عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعليها؛ نحو سلام لك، أى سلام عليك . قال :

* فخرّ صريعا لليدين وللفم * [(1)]

أى على اليدين وعلى الفم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى، يعنى وإن أسأتم فإليها، أى فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها ربٌّ يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا

(1) هذا عجز بيت لربيعة بن مُكَدَّم . وصدره :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وقبل هذا البيت :

فصرفت راحلة الظعينة نحوه * عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم

وبعده :

ومنحت آخر بعده جيّاشة * نجلاء فاغرة كشدق الأعجم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة . راجع أمالى القالى ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية .

خطابا لبنى إسرائيــل فى أول الأمر؛ أى أسأتم فحلّ بكم القتل والسّبْىُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُــلُوّ وآنتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيــل فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فآرتقبوا مثله . أو يكون خطابا لمشركى قريش على هذا الوجه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا فى المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السـلام، قتله مَلِكٌ من بنى إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القُتَبِىّ . وقال الطبرى : اسمه هردوس، ذكره فى التاريخ؛ حمله على قتله آمرأة اسمها أزبيل . وقال السدّى : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره فى الأمر، فآستشاره الملك أن يتزوج بنت آمرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له ، و إن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْت من ذهب؛ ففــعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس تتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحلّ لك؛ لاتحلّ لك؛ فلما أصبح إذ دمه يَغْلِى، فألقى عليه التراب فغَلَى فوقه، فلم يزل يلْقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يَغْلِى؛ ذكره الثعلبى وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ فى تاريخه عن الحسين بن علىّ قال : كان ملك من هــذه الملوك مات وترك امرأته وآبنته فورِث مُلْكَه أخوه ، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فآستشار يحيى بن زكريا فى ذلك، وكانت الملوك فى ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له : لا تتزوجها فإنها بَغِىّ؛ فعرفت ذلك المرأةُ أنه قــد ذكرها وصرفه عنها ، فقالت : من أين هذا! حتى بلغها أنه من قِبَــل يحيى ، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه ، فعَمَدت إلى ابنتها وصنّعتها، ثم قالت : اذهبى إلى عمك عنــد الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك و يجلسك فى حجره، و يقول سلينى ما شئت، فإنك لن تسألينى شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولى : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشىء على رءوس الملأ ثم لم يُمْض له نُزِع من ملكه ؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيــه الموت من خروجه من ملكه ، فاختار ملكه فقتــله . قال : فساخت بأمّها الأرضُ . قال ابن جُدْعان : فحــدّثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت لا ، قال : إن زكريا حيث قُتل ابنه ٱنطلق هاربا منهم وٱتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فانطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبة تكفّتها الرياح ، فٱنطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها ، ونظروا بتلك الهُدْبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها .

قلت : وقــع فى التاريخ الكبير للطبرى[1] فحــدثنى أبو السائب قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنْهال عن ســعيد بن جُبير عن ٱبن عباس قال : بعث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا فى اثنى عشر من الحواريّين يعلّمون الناس ، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، قال : وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بُعث يحيى ٱبنُ زكريا فى اثنى عشر من الحواريّين يعلمون الناس ، وكان فيما يعلّمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لهــا كلَّ يوم حاجةٌ يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجةٌ فقــولى : حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقال : سلينى ســوى هذا ! قالت : ماأسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعابه فذبحه ، فندرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تَغْــلِى حتى بعث الله عليهــم بختنصّر فألْقِىَ فى نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهم حتى يسكن ذلك الدم ، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، فى رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيّب : هى دِيَةُ كل نبىّ . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صــلى الله عليه وســلم إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، و إنى قاتل بٱبن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التى فى بيت المقدس سبعون نبيا منهــم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بنــاء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبــة التى تلى المحراب

(١) راجع ج ٣ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوربا .

ممـا يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير . وعن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علي؛ وحمرتها بكاؤها . وعن سفيان بن عُيَيْنة قال : أوحش ما يكون بن آدم فى ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دار هَمّ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثله؛ قال الله تعالى ليحيي فى هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور.

واختلف فيمن كان المبعوث عليهم فى المرة الآخرة؛ فقيل : بختنصر . وقاله القشيرى أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السُّهَيْلِيّ : وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بن مريم عليهما السلام بزمان طويل، وقبل الإسكندر؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا، فهو الذى قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبي : ومن روى أن بختنصّر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السِّيَر والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بنى إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفى عهد إِرْمِيَاء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته فى عهد كوسك(١) سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثا وستين(٢) سنة .

قلت : ذكر جميعه الطبرى فى التاريخ رحمه الله . قال الثعلبي : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى — وبعض

(١) الذى فى تاريخ الطبرى : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه . (٢) فى الطبرى : « ثلثمائة وثلاث سنين » . راجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لمـا قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس، فسار إليهم بأهـل بابل وظهر عليهم بالشأم ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهى لئن اظهرنى الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى ، وأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيهـا دماء تَغْـلِي ، فسألهم فقالوا : دَمُ قربان قربناه فـلم يتقبل منا منـذ ثمانين سنة (١) . قال ما صَدَقتمونى ، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ ، [فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذُبحوا على الدم فلم يهـدأ] (٢) ، فأمر بسبعة آلاف من سَبْيِهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فـلم يَبْرُد ، فقال : يابنى إسرائيل، أصدقونى قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلتُه . فلما رأوا الجَهد قالوا : إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة مِن سَخَط الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان ٱسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قطّ طرفة عين ولا همّ بمعصية . فقال : الآن صدقتمونى ، وخر ساجدا ثم قال : لمثل هذا يُنتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس، وخلا فى بنى إسرائيل وقال : يا نبيّ الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فٱهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحدا. فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتـل وقال : رب ، إنى آمنت بمـا آمن به بنو إسرائيل وصدّقت به ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رءوس الأنبياء : إن هـذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عدوّ الله خردوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإنى لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خَنْدَقًا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر ، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفنى بنى إسرائيل .

(١) فى تاريخ الطبرى ص ٧٢١ : « منذ ثمانمائة سنة » .

(٢) زيادة عن تاريخ الطبرى .

قلت : قد ورد فى هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة ، وقد كتبناه فى ( كتاب التذكرة ) مقطعا فى أبوابٍ فى أخبار المَهْـدِىّ ، نذكر منهـا هناما يبيّن معنى الآية ويفسّرها حتى لا يحتاج معـه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله ، لقـد كان بيت المقدس عنـد الله عظيما جسيم الخطر عظيم القـدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "هو من أجَلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرذ" : وذلك أن سليمان بن داود لمـا بناه سَخّـر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعـادن ، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرذ ، وسخر الله تعـالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفـة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : إن بنى إسرائيـل لمـا عصوا الله وقتلوا الأنبيـاء سلط الله عليهـم بختنصّر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سـنة ، وهو قوله : « فإذا جاء وَعْدُ أولاهُمَا بعثنا عليكم عِبادا لنا أولِى بأسٍ شدِيدٍ فجاسُوا خِلالَ الديارِ وكان وَعْدًا مفعولا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسَبَوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من هـذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلَة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بنى إسرائيـل ويستملكونهم بالخـزى والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل ، وأن يستنقذ مَن فى أيديهم من بنى إسرائيـل ؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى إسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك الحلى الذى كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بنى إسرائيل إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالسَّبْى والقتل ، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » فلمـا رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر ، وهو قوله : «فإذا جاء وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ولِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كما دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ ولِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم ، وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلة حتى أودعه

فى كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهـدى فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسـبعمائة سفينة يُرْسَى(١) بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقـدس وبها يجمع الله الأوّلين والاخرين ... وذكر الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليـه « بعثنا » الاول . ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى بالسَّبي والقتل فيظهر أثر الحزن فى وجوهكم؛ فـ « ليسوءوا » متعلق بمحذوف ؛ أى بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أى ليُذِلّوهم . وقرأ الكسائى « لنسوءَ » بنون وفتح الهمزة، فعلُ مخبر عن نفسه معظِّم؛ اعتبارا بقوله « وقضينا ، و بعثنا ورددنا » . ونحوه عن علىّ . وتصديقها قراءة أُبَىّ « لنسوءنّ » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثّاب وحمـزة وابن عامر « ليسوءَ » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولهـا وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثانى — ليسوء الوعدُ وجوهكم . وقرأ الباقون «ليسوءوا» باليـاء وضم الهمزة على الجمـع ؛ أى ليسـوء العباد الذين هم أولوا بأس شـديد وجوهكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى ليدمّروا و يهلكوا . وقال قُطْرُب : يهدموا؛ قال الشاعر :

فمـا الناس إلا عاملان فعامل * يُتَبِّـرُ ما يَبْنِى وآخر رافـــع

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أى غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

قوله تعـالى : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا ممـا أخبروا به فى كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهـم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهـم الملوك . ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ قال قتـادة :

(١) فى الأصول : « يرى بها على بابى » والتصويب عن الدر المنثور .

فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ فهم يُعطون الجزية بالصَّغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهذا خلاف ما تقدم فى الحديث وغيره . وقال القُشَيْرِىّ : وقد حلّ العقاب ببنى إسرائيل مرتين على أيدى الكفار ، ومرة على أيدى المسلمين . وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هذا يصح قول قتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ أى محبِسًا وسِجْنًا ، من الحَصْر وهو الحبس . قال الجوهرى : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير : البارِيّة . والحصير : الجَنْب ، قال الأصمعىّ : هو ما بين العِرْق الذى يظهر فى جنب البعير والفرس معترِضا فما فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وقماقِمٍ غُلْبِ الرِّقاب كأنهم * جِنّ لدى باب الحصير قيام

ويروى : * ومَقامةٍ غُلْبِ الرقاب ... ... *

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب . وروى عن أبى عبيدة : * ... لدى طرف الحصير قيام *

أى عند طرف البساط للنعمان بن المنذر . والحِصير : المَحْبِس ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » . قال القُشَيْرِىّ : ويقال للذى يُفترش حصير؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصيرا . قال الثعلبى : وهو وجه حسن .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه سبب اهتداء . ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى الطريقة التى هى أسدّ وأعدل وأصوب؛ فـ « التى » نعت لموصوف محذوف، أى الطريقة إلى نص أقوم . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات، وهى توحيد الله والإيمان برسله . وقاله الكلبي والفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ تقدّم (١) . ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى الجنة . ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعيد . وقرأ حمزة والكسائى « ويَبْشُر » مخففا بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر (٢) .

قوله تعالى : وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له : اللّهُمّ أهلكه، ونحوه . ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كدعائه ربّه أن يَهب له العافية؛ فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضله لا يستجيب له فى ذلك. نظيره : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدّم (٣) . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب أليم (٤) » . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح، قال الشاعر وهو ابن جامع :

أطوف بالبيت فيمن يطوف * وأرفع من مئْزرى المُسْبَلِ
وأسجد بالليل حتى الصباح * وأتلو من المُحْكَم المُنْزَلِ
عسى فارجُ الهمّ عن يوسفٍ * يُسَخِّر لى ربّةَ المَحْمِلِ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة .		(٢) راجع جـ ٤ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٤ .		(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ وجـ ٨ ص ٣١٥ طبعة أولى أو ثانية .

قال الجوهري : يقال ماعلى فلان مَحْمِل مثال مجلس أى معتمد . والمَحْمِل أيضا : واحد محامل الحاج . والمِحْمَل مثال المِرْجَل : عِلاقة السيف . وحذفت الواو من « ويدع الإنسان » فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة » (١) « وَيَمْحُ اللهُ البَاطِلَ » (٢) « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤْمِنِينَ » (٣) « يُنَادِ المُنَادِ » (٤) « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » (٥) . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ أى طبعه العَجَلة ، فيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أوّل ماخلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : ياربّ عَجّل قبل الليـل؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن عباس : لمـا انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقـدر؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن مسعود : لمـا دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول : « خلِق الإنسان مِن عجل» ذكره البيهقى . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : ” لمـا صور الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقا لا يتمالك “ وقد تقدّم (٦) . وقيل : سلّم عليه السلام أسيرا إلى سَوْدة فبات يئنّ فسألته فقال : أنيني لشدّة القِدّ والأسر؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ” قطع الله يديك “ فلما أصبحت كانت تتوقّع الآفة؛ فقال عليه السلام : ” إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر “ ونزلت الآية؛ ذكره القشيرى أبو نصر رحمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) آية ١٨ سورة العلق . (٢) آية ٢٤ سورة الشورى . (٣) آية ١٤٦ سورة النساء .
(٤) آية ٤١ سورة ق . (٥) آية ٥ سورة القمر . (٦) راجع جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

" اللَّهُمَّ إنما محمد بشر يغضَب كما يغضَب البشر و إنى قد آتخذت عندك عهدا لن تُخْلِفَنِيه فأيّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُرْبةً تقرّبه بهـا إليك يوم القيامـة " . وفى الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى « وكان الإنسان عجولا » أى يؤثر العاجل و إن قلّ ، على الآجل و إن جلّ .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَـا ٱلَّيْـلَ وَٱلنَّهَـارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْـلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْـلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا (١٢)

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ أى علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم ، و إدباره إلى حيث لا يعـلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر و بالعكس آيةٌ أيضا . وكذلك ضـوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هـذا (١) . ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ ولم يقل : فمحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليـل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما . و «مَحَـوْنَا » معناه طمسنا . وفى الخـبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السـلام فأمرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنـه الضوء وكان كالشمس فى النور ، والسوادُ الذى يُرى فى القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعـل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءًا ، فمحا من نور القمر تسعـة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس ، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا والقمرُ على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق فى علمه أن يكون شمسا مثـل الدنيا على قـدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعـل القمر دون الشمس ؛ فأرسـل جبريلَ عليـه السلام فأمرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضـوءه وبقى نوره ؛ فالسواد الذى ترونه فى القمر أثر المحو ، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار . ذكر

---

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

عنـه الأول الثعلبي والثـاني المهدوي، وسيأتي مرفوعا . وقال علي رضى الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضـوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليـل من النهار . ﴿ وجعلنا آية النهـار مبصرة ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للابصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أي يبصر بهـا . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يبصر بها . وقيـل : هو كقولهم خبيث مخبث إذا كان أصحابه خبثاء . ورجل مضعف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهـار مبصرا إذا كانـ أهله بصراء . ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليـل آكتفاء بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا »[(1)] . ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لمـا عرف الليل من النهار، ولا كان يعرف الحساب والعدد . ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله : « تبيانا لكل شيء »[(2)] « ما فرطنا في الكتاب من شيء »[(3)] . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لمـا أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثـل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كانـ في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العظم ولكن إنمـا يرى صغرهما من شـدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدرى إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تدرى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهـم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهـم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين " الآية .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨٩ سورة النحل .
(٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . راجع جـ ٦ ص ٤٢٠

قوله تعالى : وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذِكر العنق عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة فيها مكتوب شقِيّ أو سعيد . وقال الحسن : « ألزمناه طائره » أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير، أى صار له عند القسمة فى الأزل . وقيل : أراد به التكليف، أى قدرناه إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجر عما زُجِر به أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنه ما روى فى الخبر "اللّٰهُمّ لا خيرَ إلا خيرُك ولا طَيْرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك" . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصن وأبو جعفر ويعقوب « ويَخْرُج » بفتح الياء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛ فـ«كتابا» منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وَثّاب «ويُخْرِج» بضم الياء وكسر الراء؛ وروى عن مجاهد؛ أى يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع، وروى أيضا عن أبى جعفر : « ويُخْرَج » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويُخرج له الطائرُ كتابا . الباقون « ونخرج » بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أى ونحن نخرج . احتج أبو عمرو فى هذه القراءة بقوله « ألزمناه » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر « يُلَقّاه » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء خفيفة، أى يراه منشورا . وقال « منشورا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . وقال

أبو السوّار العدوى وقرأ هذه الآية « وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » قال : هما نشرتان وَطيّة؛ أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأَمْلِ فيها ما شئت ، فإذا متّ طُويت حتى إذا بُعثت نُشرت . ﴿ اقرأ كتابك ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أمّيًّا كان أو غير أُمّيٍّ . ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ أى محاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمه ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المُملِي على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى إنما كلّ أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ تقدّم فى الأنعام (١) . وقال ابن عباس : نزلت فى الوليد ابن المغيرة، قال لأهـل مكة : اتبعون وآكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم، فنزلت هـذه الآية؛ أى إن الوليـد لا يحمل آثامكم وإنمـا إثم كل واحد عليـه . يقال : وَزَرَ يزر وَزْرا ووِزْرَة، أى أثم . والوِزر : الثِّقْل المثقِل والجمـع أوزار؛ ومنـه « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » (٢) أى أثقال ذنوبهم . وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذى يحمل ثِقْل دولته . والهـاء فى قوله كناية عن النفس، أى لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تُلقى ولدها يوم القيامة فتقول : يا بنىّ ! ألم يكن حجرى لك وِطاء، ألم يكن ثديى لك سِقاء، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أُمّهْ ! فتقول : يا بنىّ ! فإن ذنوبى أثقلتنى فآحمل عنى منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عنى يا أمّه ! فإنى بذنبى عنك اليوم مشغول .

---

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٦ ص ٤١٣

مسألة — نزعت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية فى الرّد على ابن عمر حيث قال : إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله . قال علماؤنا : و إنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير، كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم . ولا معارَضة بين الآية والحديث ؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصيّة الميت وسنته ، كما كانت الجاهلية تفعله ، حتى قال طَرَفة :

إذا مِتّ فانعيني بما أنا أهله * وشُقّي علىّ الجيب يابنت مَعْبَد

وقال :

إلى الحَوْل ثم آسم السلام عليكما * ومن يَبْك حولا كاملا فقد اعتذر

و إلى هذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذّب بنَوْحِهم؛ لأنه أهمل نهيَهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيعذّب بتفريطه فى ذلك؛ و بترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »(١) لا بذنب غيره، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ أى لم نترك الخلق سُدًى، بل أرسلنا الرسل . وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح و يحسّن و يبيح و يحظر . وقد تقدّم فى البقرة القول فيه(٢) . والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا؛ أى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا »(٣) . قال ابن عطية : والذى يعطيه النظر أن بعثه آدم عليه السلام بالتوحيد وبثّ المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

---

(١) آية ٦ سورة التحريم .　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٣) آية ٨ سورة الملك .

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا فى الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضى ماتعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوىّ : وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفـترة والأبكم والأخرس والأصم؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فى الدنيا، وتلا الآية؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيـه عن أبى هريرة، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف، وسيأتى مرفوعا فى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى؛ ولا يصح . وقد استدلّ قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسـلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ أخبر الله تعـالى فى الآية التى قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسـل، لا لأنه يقبح منـه ذلك إن فعل، ولكنه وعد منه، ولا خلف فى وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ماقاله تعالى أمر مترفيها بالفِسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير، يعلمـك أن من هلك هلك بإرادته، فهو الذى يسبب الأسـباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ أَمَرْنَا ﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدىّ وأبو رَجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن «أمّرنا» بالتشديد، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه؛ أى سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدىّ: «أمّرنا» بتشديد الميم، جعلناهم

أمراء مسلّطين؛ وقاله ابن عزيز. وتأمّر عليهم تسلط عليهم. وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن مسلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما «آمرنا» بالمد والتخفيف، أى أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائي. وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثّرته؛ ومنه الحديث "خير المال مُهْرَةٌ مأمُورة أو سِكّة مأبورة"[1] أى كثيرة النِّتاج والنَّسل. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد؛ أى أكثرنا. وعن الحسن أيضا ويحيى بن يَعْمَر «أمِرنا» بالقصر وكسر الميم على فَعِلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدوي. وفى الصحاح: وقال أبو الحسن أَمِر ماله (بالكسر) أى كثر. وأَمِر القوم أى كثروا؛ قال الشاعر:

* أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ[2] *

وآمر الله ماله (بالمد). الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ، والفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمرا إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول فى الجاهلية للحيّ إذا كثروا: أَمِر أَمْرُ بنى فلان؛ قال لَبِيد:

كلُّ بنى حُرَّةٍ مَصيرُهُمُ　*　قُلٌّ وإن أكثرَتْ من العددِ
إن يَغْبِطوا يَهْبِطوا وإن أَمِروا　*　يوماً يصيروا للهُلْكِ والنَّكَدِ[3]

---

(١) السكّة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة؛ يقال: أبرت النخلة وأبّرتها؛ فهى مأبورة ومؤبرة. وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له. أراد: خير المال نتاج وزرع. (ابن الأثير).

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره:

* طَرِفون ولّادون كل مبارك *

الطرف والطريف: الكثير الآباء إلى الجد الأكبر. والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر.　(٣) يقول: إن غبطوا يوما فإنهم يموتون. و «يهبطوا» هاهنا يموتوا. ويروى: «إن يغبطوا يهبطوا» يموتوا عبطة؛ كأنهم يموتون من غير مرض. (راجع الديوان).

قلت : وفي حديث هرقل الحديث الصحيح : "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبشة[1]، إنه ليخافه ملك بني الأصفر" أي كثر . وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائي ، والله أعلم . قال المهدوي : ومن قرأ «أَمِر» فهي لغة ، ووجه تعدية «أمِر» أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقربَ شيء إلى العمارة ، فعدّى كما عدّى عمر . الباقون «أَمَرْنا»[2] من الأمر ؛ أي أمرناهم بالطاعة إعذارا وإنذارا وتخويفا ووعيدا . ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا . ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : «أَمَّرْنا» جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أي غير مؤمر . وقيل : معناه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهي قراءة أُبَيّ « بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا » ذكره الماوَرْدِيّ . وحكى النحاس : وقال هارون في قراءة أُبَيّ « وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول » . ويجوز أن يكون « أمرنا » بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المال مُهْرَةٌ مأمورة" على ما تقدّم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : "ارْجِعْن مأزورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أَمَرهم الله ، بمعنى كثرهم ، بل يقال : آمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا « أمرنا » لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمُتْرَف : المنعّم ؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾ أي استأصلناها بالهلاك . ﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم . وفي الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فَزِعا مُحْمَرًّا وجهه يقول : "لا إله إلا الله وَيْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها . قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا

---

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم «ابن أبي كبشة» شبهوه بأبي كبشة ، رجل من خزاعة خالف قريشا في عبدة الأوثان . أو هي كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان نزع إليه في الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية .

(٢) كذا في الأصول .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" . وقد تقدّم الكلام في هذا الباب ، وأن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سببا لهلاك الجميع[1] ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أي كم من قوم كفروا حلّ بهم البَوار . يخوّف كفّار مكة ؛ وقد تقـدّم القول في القرن في أوّل سورة الأنعام[2] ، والحمد لله . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ « خبيرا » عليما بهم . « بَصِيرًا » يُبصر أعمالهم ؛ وقد تقـدّم[3] .

قوله تعـالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ يعني الدنيا ، والمراد الدار العاجلة ؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أي لم نعطـه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبتُه دخولُ النـار . ﴿ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ أي مطردا مبعدا من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسـقين ، والمرائين المداجين ، يلبسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها ، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم . وقد تقدّم في «هود» أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة ؛ فتأمله . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي الدار الآخرة . ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي عمل لهـا عملها من الطاعات . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ أي مقبولا غير

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٥ طبعة ثانية .

مردود . وقيل : مضاعفا، أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، و إلى سبعين و إلى سبعمائة ضعف ، و إلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " .

قوله تعالى : كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أى محبوسا ممنوعا ؛ من حظر يحظر حظرا وحظارا . ثم قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلّ ومكثر . ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للمؤمنين؛ فالكافر و إن وُسّع عليه فى الدنيا مرة ، وقُتّر على المؤمن مرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها . وقوله ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تبقى . ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وليا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

فيـه ست عشرة مسألة :

الأولى — ﴿ قَضَى ﴾ أى أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر . وفى مصحف ابن مسعود « ووصّى » وهى قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلىّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبَىّ بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقت كَتْب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مِهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » (١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك . وقال : لو قلنا هـذا لطعن الزنادقة فى مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغـة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ » (٢) يعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » (٣) يعنى احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله : «قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» (٤) . أى فُرِغ منـه ؛ ومنه قوله تعـالى « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ » (٥) . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ » (٦) . والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعـالى : « إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٧) . والقضاء بمعنى العهـد؛ كقوله تعـالى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَـرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ » (٨) .

فإذا كان القضاء يحتمل هـذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأن الله تعالى لم يأمر بها،

(١) آية ١٣ سورة الشورى . (٢) آية ١٢ سورة فصلت . (٣) آية ١٢ سورة طـه .
(٤) آية ٤١ سورة يوسف . (٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة . (٦) آية ١٠ سورة الجمعة .
(٧) آية ٤٧ سورة آل عمران . (٨) آية ٤٤ سورة القصص .

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلّق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قـد عصيت ربك و بانَتْ منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك عليّ ! فقال الحسن وكان فصيحا : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هـذه الآية : « وقَضَى رَبُّك ألّا تعبدوا إلا إيّاه » .

الثانيـــة — أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال : « وقَضَى رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدُوا إلّا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » . وقال : « أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ » (١) . وفى صحيح البخاريّ عن عبد الله قال: سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أيّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال : " الصلاة على وقتها " قال : ثم أيّ؟ قال : " ثم برّ الوالدين " قال ثم أيّ ؟ قال : " الجهاد فى سبيل الله " فأخبر صلى الله عليـه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتّب ذلك بـ « ثُمّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثـــة — من البِرّ بهما والإحسانِ إليهما ألّا يتعرض لسَبّهما ولا يَعُقُّهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، و بذلك وردت السنة الثابتة؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه" قالوا : يا رسول الله ، وهل يَشْتِمُ الرجل والديه ؟ قال " نعم . يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيَسُبّ أباه ويَسُبُّ أمّه فيسب أمّه " .

الرابعـــة — عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن بِرّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، و إن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أَمْرَهما بالمباح يصيّره فى حق الولد مندوبا إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى نَدْبيّته .

---

(١) آية ١٤ سورة لقمان .

الخامســـة — روى الترمذى عن ابن عمر قال : كانت تحتى امرأة أحبها، وكان أبى يكرهها فأمرنى أن أطلقها فأبيتُ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا عبدالله ابن عمر طلّق امرأتك " . قال هذا حديث حسن صحيح .

السادســـة — روى الصحيح عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : مَن أحقّ الناس بحسن صحابتى؟ قال : " أمّك " قال : ثم مَن؟ قال : " ثم أمّك" قال : ثم من؟ قال : "ثم أمك" قال : ثم من؟ قال : " ثم ابوك ". فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب، لذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمّ ثلاث مرات وذِكْرِ الأب فى الرابعة فقط . و إذا توصّل (١) هذا المعنى شهد له العيان . وذلك أن صعوبة الحمـل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربيـة تنفرد بهـا الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخـلو منها الأب . ورُوى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبى فى بلد السودان، وقد كتب إلىّ أن أقدَم عليه، وأمّى تمنعنى من ذلك؛ فقال له : أطع أباك، ولا تَعْص أمك . فدلّ قول مالك هـذا أن بِرّهما متساوٍ عنده . وقـد سئل الليث عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثى البر . وحديث أبى هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف . وقد زعم المحاسِبى فى (كتاب الرعاية) له أنه لاخلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . والله أعلم .

السابعـــة — لا يختص برّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافـرَين يبرّهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ (٢) » . وفى صحيح البخارىّ عن أسماء قالت : قَدِمتْ أمّى وهى مشركة فى عهد قريش ومدّتهم إذ عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمّى قَدِمت وهى راغبة (٣) أفأصِلُها؟ قال : " نعم صِلِى أمّك ".

(١) كذا فى الأصول . (٢) آية ٨ سورة الممتحنة . (٣) قولها راغبة : أى راغبة فى برى وصلتى، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتنى أمّى راغبة فى عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألت النبىّ صلى الله عليه وســلم أأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ابن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأوّل معلّق والثانى مسند .

الثامنـــة — من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألّا يجاهد إلا بإذنهما . روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليــه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال : " أحَىٌّ والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففيهما فجاهد " . لفظ مسلم . فى غير الصحيح قال : نعم ؛ وتركتهما يبكيان . قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " . وفى خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معى " . ذكره ابن خُوَيْزمنداد . ولفظ البخارىّ فى كتاب برّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السّائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبكيان فقال: "ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما". قال ابن المنذر : فى هــذا الحديث النّهىُ عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع النّفير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بيّن فى حديث أبى قتادة أن رســول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء ... ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رَوَاحة وأن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعــد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس، اخرجوا فأمِدّوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً وركبانا فى حَرٍّ شــديد . فدلّ قوله : " اخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العــذر فى التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع النفير؛ مع قوله عليه السلام: "فإذا استنفرتم فانفُروا".

قلت : وفى هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبىُّ فى كتاب الرعاية .

التاســعة — واختلفوا فى الوالدين المشركَيْن هــل يخرج بإذنهما إذا كان الجهــاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثَّوْرِىّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما . وقال الشافعىّ : له أن يغزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ، ولا اعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السّـعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله عز وجل .

العـاشرة — من تمام بِرّهما صِلة أهل وُدّهما ؛ ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبرّ البر صلةَ الرجل أهل وُدّ أبيه بعد أن يُوَلّىَ". وروى أبو أُسَيد وكان بَدْرِيًّا قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقى من برِ والِدَىّ من بعد موتهما شيء أبَرّهما به ؟ قال : " نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما و إنفاذ عهدهما بعدهما و إكرام صديقهما وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبلهما فهذا الذى بقى عليك ". وكان صلى الله عليه وسلم يُهدى لصدائق خديجة بِرًّا بها ووفاء لها وهى زوجته، فما ظنّك بالوالدين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر؛ فألزم فى هذه الحالة من مراعاة أحوالها أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنهما فى هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه ، فيحتاجان أن يَلِىَ منهما فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يليَا منه؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لها أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالّة البنوّة وقلّة الديانة ، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردَّد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَغِمَ أنفُه رغم أنفه رغم أنفه" قيل : مَن يارسول الله؟ قال : " مَن أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلَيْهما ثم لم يدخل الجنـة " . وقال البخارى فى كتاب بر الوالدين : حدّثنا مسدّد حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبى سعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" رَغِم أنف رجل ذُكرت عنــده فلم يصلّ علىّ . رَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبو يه عنــد الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنــة . ورغم أنف رجل دخل عليــه رمضان ثم ٱنسلخ قبــل أن يُغفر له " . حدّثنا ٱبن أبى أُوَيْس حدّثنى أخى عن سليمان بن بلال عن محمــد بن هلال عن ســعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمىّ عن أبيــه رضى الله عنه قال : إن كعب بن عُجْرة رضى الله عنه قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أحضروا المنبر " فلما خرج رَقِىَ [ إلى ] المنبر، فرقى فى أوّل درجة منه قال آمين ثم رقى فى الثانية فقال آمين ثم لمـا رقى فى الثالثة قال آمين ، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يارسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منك ؟ قال : " وسمعتموه " ؟ قلنا نعم . قال : " إن جبريل عليه الســلام اعترض قال : بَعُــد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رَقِيت فى الثانية قال بَعُــدَ من ذُكرتَ عنــده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت فى الثالثة قال بَعُــدَ من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدُهما فلم يُدخلاه الجنــة قلت آمين " . حدّثنا أبو نعيم حدّثنا ســلمة بن وردان سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : ارتقى رسول الله صــلى الله عليه وســلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يا رسول الله، علام أمّنت ؟ قال : " أتانى جبريل عليــه السلام فقال رَغِم أنف من ذُكرتَ عنــده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبو يه أو أحدهما فلم يدخل الجنــة فقلت آمين " الحــديث . فالسعيد الذى يبادر اغتنام فرصة بِرّهما لئلا تفوته بموتهما فينــدم على ذلك . والشقىّ من عقّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرّهما .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أى لا تقل لها ما يكون فيه أدنى تبرّم . وعن أبى رجاء العُطَارِدِىّ قال : الأُفّ الكلام القَذَع الردىء الخفىّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشــيخ الغائطَ والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول أُفّ . والآية أعمّ من هــذا . والأُفّ والتُّفّ وسخ الأظفار . و يقال لكل ما يُضجر و يستثقل : أُفّ له . قال الأزهرى : والتُّفّ أيضا الشىء الحقــير . وقرئ « أُفٌّ » منوّن

مخفوض؛ كما تُخفض الأصوات وتُنَوّن، تقول : صَهٍ ومهٍ . وفيه عشر لغات : أَفّ، وأُفّ، وأُفّ، وأُفًّا وأُفٍّ، وأُفٌّ، وأُفَّه، و إفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفًا (مخففة الفـاء) . وفي الحديث : " فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف " . قال أبو بكر : معناه استقذار لمـا شَمّ . وقال بعضهم : معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أُخذ من الأَفَف وهو القليل . وقال القُتَبِيّ : أصله نفخك الشيء يَسـقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : الأفّ وسخ بين الأظفار، والتُّفّ قُلامتها . وقال الزجاج : معنى أف النَّتْن . وقال الأَصْمعِيّ : الأف وسخ الأذن، والتّف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذُكر في كل ما يُتأذَّى به . وروى من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من «أف» لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النـار . وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة " . قال علماؤنا : و إنمـا صارت قولة « أف » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية و ردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل . و «أفّ» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَـا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ »[1] أي رَفْض لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهْر : الزجر والغلظة . ﴿ وَقُلْ لَهُـمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أي لَيِّنًا لطيفا، مثل : يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما ويُكنّيهما؛ قاله عطاء . وقال ابن البَدّاح التُّجِيبيّ[2] : قلت لسعيد بن المسيّب كلّ ما في القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وقل لهما قولا كريما » ما هـذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قولُ العبـد المذنب للسيد الفَظّ الغليظ .

الرابعة عشرة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُـمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلّل الرعيـة للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

---

(١) آية ٦٧ سورة الأنبياء . (٢) كذا في الأصول . والذي في ابن جرير والدر المنثور : «أبو الهدّاج» .

المسيّب . وضرب خَفْضَ الجنـاح ونصبه مثلا لجناح الطـائر حين ينتصب بجناحه لولده .
والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِل ذُلًّا وذِلّة ومَذلة فهو ذالّ وذليل .
وقرأ سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّل» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم؛
من قولهم : دابّة ذَلول بينـة الذِّل . والذِّل فى الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغى
بحكم هـذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه فى خير ذِلة ، فى أقواله وسكناته ونظره ،
ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هى نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب فى هـذه الآية للنبيّ صلى الله عليه وسـلم والمراد به أمتـه؛
إذ لم يكن له عليه السلام فى ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذلّ فى قوله تعالى : «واخْفِض
جَناحَك لِمَنِ اتّبَـعكَ مِن المؤمِنِين » (١) وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيـده . و « مِن »
فى قوله : « مِنَ الرَّحْمةِ » لبيان الجنس ، أى إن هـذا الخفض يكون من الرحمـة المستكنّة
فى النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده
بالترحّم على آبائهـم والدعاء لهم، وأنْ ترحمهما كما رحماك وترْفُق بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِيَـاك
صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما ، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكَسَواك،
فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدَّ الذى كنت فيه من الصغر، فتَلِى منهما ما وَلِيَا منك،
ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم . قال صلى الله عليه وسلم : " لا يَجْزِى ولد والدًا إلا أن يجده
مملوكا فيشترِيَه فيُعْتِقه " . وسيأتى فى سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾ خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة
الأبوين وتعبهما فى التربيـة، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما، وهـذا كله فى الأبوين
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبَى، كما تقدم (٢) .
وذُكر عن ابن عبـاس وقتادة أن هـذا كله منسوخ بقوله : « ما كانَ لِلنّبِيّ والذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ — إلى قوله — أَصْحَابُ الجَحِيم » فإذا كان والدا المسلم ذِمّيَّيْن استعمل

(١) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحم لهما بعــد موتهما على الكفر، لأن هــذا وحده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لاسيما وقد قيل إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سـعد بن أبي وقّاص، فإنه أسـلم، فألقت أمه نفسها في الرّمْضَاء متجرِّدة، فذكر ذلك لسعد فقـال : لِتَمُتْ، فنزلت الآية . وقيـل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من أمسى مُرْضِيًا لوالدَيْه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُسْخِطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يارسول الله، وإن ظلماه ؟ قال : "وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه" . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنــه قال : جاء رجل إلى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : يا رسـول الله، إن أبي أخذ مالي . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم للرجل : " فأتني بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فآساله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه " فلمـا جاء الشيخ قال له النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سـله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إيهِ(1)، دعنا من هــذا . أخبرني عن شيء قلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أذناك " ؟ فقال الشيخ : والله يارسول الله، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقــد قلتُ في نفسي شيئا ما سمعته أذناي . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

(1) إيهِ (بكسر الهاء) : كلمة استزادة واستنطاق . وإذا قلت « إيهًا » بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك، وتنون فيقال إيهًا » . وحكى عن الليث : « إيه وإيه في الاستزادة والاستنطاق . وإيهِ وإيهًا في الزجر، كقولك : إيه حسبك، وإيهًا حسبك » .

غَذَوْتُكَ(١) مولودا ومُنْتُــك(٢) يافعا * تُعَـلّ بمـا أجْنِى عليك وتُنْهَلُ
إذا ليـلةٌ ضافَتْك(٣) بالسُّقم لم أَبِتْ * لسُقْمك إلا ساهرا أتملمــلُ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى * طُرِقتَ به دونى فعَيْنِى تَهْمُــلُ
تخاف الرَّدَى نفسى عليك وإنهـا * لتعــلم أن الموت وقتٌ مؤجل
فلما بلغتَ السنّ والغايةَ التى * إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ
جعلتَ جزائى غِلظــة وفظاظة * كأنك أنت المُنْعِمُ المتفضِّــلُ
فليتَك إذ لم تَــرْعَ حقّ أبوّتى * فعلتَ كما الجار المُصاقِب يفعل
فأوْليتنى حـــقّ الجوار ولم تكن * علىّ بمـال دون مالك تبْخَــلُ

قال : فحينئذ أخذ النبىّ صلى الله عليه وسلم بتلابيب آبنه وقال : " أنت ومالك لأبيك " .
قال الطبرانى : اللَّخْمِىُّ لا يروى — يعنى هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرّد به عبيد الله بن خلصة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ أى من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برّهما رياء . وقال ابن جُبير : يريد البادرة التى تبدر، كالفَلْتة والزَّلة، تكون من الرجل إلى أبويه او أحدهما، لا يريد بذلك بأسا؛ قال الله تعالى : ﴿ إن تَكُونُوا صالِحِينَ ﴾ أى صادقين فى نيــة البرّ بالوالدين فإن الله يغفر البادرة . وقوله : ﴿ فإنّه كانَ للأوّابِينَ غَفُوراً ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الأبيات فى أشعار الحماسة لأمية بن أبى الصلت . قال التبريزى : « وتروى لابن عبد الأعلى . وقيل لأبى العباس الأعمى » . (٢) فى الأصول : «وصنتك» . وفى أشعار الحماسة : «وعلتك» أى قمت بمؤونتك . و « يافعا » شابا . و « تعل » من عله يعله، سقاه ثانية . و «أجنى» أكسب . و « تنهل » من أنهله، سقاه أول سقية . (٣) فى الحماسة :

اذا ليــلة نابتك بالشكو لم أبت * لشكواك ... ... ... الخ .

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيِّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وقال ابن عباس رضي الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها . وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . وهذه الأقوال متقاربة . وقال عَون العُقَيليّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا . وفي الصحيح : " صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفِصال "(١) . وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع .

قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أي كما راعيت حق الوالدَيْن فصِل الرحم ، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل . وقال عليّ بن الحسين في قوله تعالى « وآتِ ذا القُرْبَى حقّه » : هم قرابة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال ، أي من سهم ذَوِي القربى من الغَزْو والغنيمة ، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم . وألحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾ أي لا تُسرف في الإنفاق في غير حق . قال الشافعيّ رضي الله عنه : والتبذير إنفاق المال في غير حقه ، ولا تبذير في عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعُه في غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : « إنّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشياطين » وقوله

---

(١) هي أن تحمى الرمضاء ، وهي الرمل ، فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها .

« إخوان » يعنى أنهم فى حكمهم ؛ إذ المبــذّر ساعٍ فى إفساد كالشياطين، او أنهـم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهـم، أو أنهم يُقرَنون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ أى آحذروا متابعته والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الآنفراد، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثـــة ــ من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذّر . ومن أنفق رِبْح ماله فى شهواته وحَفِظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذّر، ويُحجر عليـه فى نفقته الدرهم فى الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

قوله تعـالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُـمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَـةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمهم . وإنمـا يجوز أن تُعرض عنهم عند عجـزٍ يَعرِض وعائق يعوق، وأنت عنـد ذلك ترجو من الله سـبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال فقُلْ لهم قولا ميسورا .

الثانيـــة ــ فى سبب نزولها؛ قال ابن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسـئلون رسول الله صلى الله عليه وسـلم فيأبَى أن يعطيَهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المـال فى فساد،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

فكان يُعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى « وإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا فى ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنًا ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ٱبتغاءَ رحمةٍ من ربّك ترجوها » . والرحمة الفَيْءُ .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أى يسِّر فقرهم عليهم بدعائك لهم . وقيل : أُدْعُ لهم دعاءً يتضمّن الفتح لهم والإصلاح . وقيل : المعنى "وإما تعرضن" أى إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدٍ فقل لهم قولا ميسورا ؛ أى أحسن القول وابسط العذر، وادع لهم بسَعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ ؛ فإن ذلك يعمل فى مَسَرّة نفسه عمل المواساة . وكان عليه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطِى سكت انتظارا لرزق يأتى من الله سبحانه وتعالى كراهة الردّ ، فنزلت هذه الاية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال : "يرزقنا الله وإياكم من فضله" . فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير فى «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل . و« قولا ميسورا » أى ليّنا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كالميمون ، أى وعدا جميلا ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

إلّا تكن وَرِقٌ يوما أجود بها * للسائلين فإنى ليّن العُود

لا يَعْدَم السائلون الخيرَ من خلقى * إمّا نوالى وإمّا حسنُ مردودى

تقول : يَسَرت لك كذا إذا أعددته .

قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شىء من ماله ؛ فضرب له مثل الغَلّ الذى يمنع من التصرف باليـد . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : ضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد ٱضْطَرّت أيديَهما إلى ثُدِيِّهِمَا وتَرَاقِيهما فجعل المتصدِّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت[1] عنـه حتى تَغْشَى أناملَه وتَعْفُوَ أثره[2] وجعل البخيلُ كلمـا همّ بصدقة قَلَصت[3] وأخذت كلُّ حَلْقـة بمكانها . قال أبو هريرة رضى الله عنـه : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول[4] بأصبعيه هكذا فى جيْبه فلو رأيتَه يُوَسِّعها ولا تتوسّع[5] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضرب بَسْطَ اليـد مثلا لذهاب المـال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهـذا كله خطاب للنبىّ صـلى الله عليه وسـلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء فى القرآن ؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسـلم لمـا كان سيّدَهم وواسطتَهم إلى ربهم عبّر به عنهم على عادة العرب فى ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئا لغد، وكان يجوع حتى يشدّ الحجـر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون فى سـبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط فى الإنفاق، وإخراج ما حَوَته يده من المـال مَن خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده؛ فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى خاصّة نفسه ، علّمه فيه كيفية الإنفاق ، وأمره بالاقتصاد . قال جابر وٱبن مسعود : جاء غلام إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمى

---

(١) أى انشرت عنه الجبة . (٢) أى أثر مشيه لسبوغها . (٣) أى انضمت وارتفعت .

(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول : قال بيده، أى أخذ. وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) جواب لو محذوف ؛ أى لتعجبت .

تسألك كذا وكذا . فقال : " ما عنـدنا اليوم شيء " . قال : فتقول لك اكسُنى قميصَك ؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس فى البيت عُريانا . وفى رواية جابر : فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول صلى الله عليه وسـلم يخرج ، واشتغلت القلوب . فدخل بعضهم فإذا هو عار ؛ فنزلت هذه الآية . وكل هذا فى إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدّم .

الثالثـــة — نهت هـذه الآية عن استفراغ الوجد (١) فيما يطرأ أوّلا من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتى بعد ذلك لا شيء له ، أو لئلا يضيّع المنفِق عياله . ونحوُه من كلام الحكمة : مارأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيَّع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تُتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف ، كما يكون البعير الحسير ، وهو الذى ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنـه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٢) » أى كليل منقطع . وقال قتادة : أى نادما على ما سلف منك ؛ فجعله من الحسرة ، وفيه بُعدٌ ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحسران ولا يقـال محسور . والملوم : الذى يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكَ (٣) يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْـدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

---

(١) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة . (٢) آية ٤ سورة الملك . (٣) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر فى النسخ التى بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ .

وعبارة ابن جرير الطبرى فى كلامه على الآية كما وردت فى تفسيره : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليـه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، و يقدر على من يشاء ، يقول : و يقتر على من يشاء منهم فيضيق عليـه . « إنه كان بعباده خبـيرا » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذى تصلحه السعـة فى الرزق وتفسده ، ومن الذى يصلحه الاقتار والضيق و يهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم . يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيـه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم » .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

فيــه مسألتان :

الأولى — قد مضى الكلام فى هذه الآية فى الأنعام، والحمد لله (١). والإملاق : الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أى لم يبق له إلا المَلَقات؛ وهى الحجارة العظام المُلْس. قال الهُذَلِى يصف صائدا :

أُتِيحَ لهـا أُقَيْـدِرُ ذو حَشِيف * إذا سامَتْ على المَلَقَـات ساما

الواحدة مَلَقـة . والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير . والحَشِيف من الثيـاب : الخَلَق . وسامت مرّت . وقال شَمِر : أملق لازمٌ ومتعـدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده . قال أَوْس :

* وأَمْلَق ما عندى خطوب تَنَبَّلُ (٢) *

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ خِطْـًٔا ﴾ « خطـئا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر . وقرأ ابن عامر « خَطَأً » بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهى قراءة أبى جعفر يزيد . وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطئ » إذا أتى الذنب على عمـد . قال ابن عرفة : يقال خَطِئ فى ذنبه خَطَأً إذا أَثِم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلَ خطأ عامدا أو غير عامد . قال : ويقال خَطِئ فى معنى أخطأ . وقال الأزهرى : يقال خَطِئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ، مثلُ أَثِم يَأثَم إثمـا . وأخطأ إذا لم يتعمّد، إخطاء وخطأ . قال الشاعر :

دَعِينى إنمـا خَطَئِى وصَوْبِى * علىّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ (٣)

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) صدر البيت :

* لمـا رأيت العُدْم قيّد نائلى *

(٣) فى الأصول : « وان ما أهلكت مالى » . والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام فى ترجمة أوس بن غَلْفاء، ولسان العرب فى مادة « صوب » . وقبل هذا البيت :

ألا قالت امامة يوم غَوْل * تُقَطَّع يابن غلفـاء الحبال

يقول : وان الذى أهلكت إنمـا هو مال، والمـال يستخلف ولم أتلف عرضا .

وغول : مكان كان فيه وقعة للعرب لضبّة على بنى كلاب . (راجع معجم ياقوت) .

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدّ الصواب . وفيه لغتان : القصر وهو الجيد ، والمدّ وهو قليل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كَثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهًا ، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطا . قال أبو عليّ : هى مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر :

تَخَاطَأت النَّبْـلُ أحشاءَه * وأُخِّر(1) يـومِى فـلم أَعْجَـلِ

وقول الآخر فى وصف مَهاة :

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه * وخرطومُه فى مَنْقع الماء راسبُ

الجوهرى : تخاطأه أى أخطأه؛ وقال أوْفَى بن مطر المـازنى :

ألَا أبلغـا خُلّـتى جابرًا * بأنّ خليلك لم يُقتَـل

تخـاطأت النبـل أحشاءه * وأُخِّر(1) يومى فـلم يَعْجَـل

وقرأ الحسن «خَطَاء» بفتح الخـاء والطاء والمد فى الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هـذا فى اللغة وهى غلط غير جائز . وقال أبو الفتح : الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا «خَطًى» بفتح الخاء والطاء منوّنة من غير همز .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢)

فيه مسئلة واحدة :

قال العلماء : قوله تعـالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى يمد ويقصر، لغتان . قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و﴿ سَبِيلًا ﴾ نصب على التمييز؛ التقدير : وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدّى إلى النار . والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفى قبحه لا سيما بحليلة الجـار . وينشأ عنـه استخدام ولد الغير

(1) أخر : بمعنى تأخر ، ويجوز « أُخِّر » .

واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط الميـاه . وفى الصحيح أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أتى بآمرأة مُجِحّ (١) على باب فسطاط فقال : " لعـله يريد أن يُلِمّ بهـا " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " لقد هَمَمْتُ أن ألْعَنه لَعْنًا يدخل معه قبره كيف يُورِّثه وهو لا يَحِلّ له كيف يستخدمه وهو لا يَحِلّ له " .

قوله تعـالى : وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَـدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْـلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُـورًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) قد مضى الكلام فيه فى الأنعام.

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أى بغير سبب يوجب القتل . ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أى لمستحق دمه . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: الولىّ يجب أن يكون ذكرا؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق فى قوله تعالى: « فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الولىّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حق فى القصاص لذلك ولا أثر

---

(١) قوله « أتى بامرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و « المجح » (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أَمَة فلان؛ أى مَسْبيته . ومعنى « يلم بها » : أى يطؤها ، وكانت حاملا مسبية، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... الخ » معناه : أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى، ويحتمل أنه كان ممن قبله . فعلى تقدير كونه من السابى يكون ولدا له ، و يتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان هـو ولا السابى لعدم القرابة، بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه و يجعله ابنا له و يورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه ، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقى الورثة . وقد يستخدمه استخدام العبيد و يجعله عبدا يتملكه ، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه اذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفا من هذا المحظور . ( راجع شرح النووى على صحيح مسلم ، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية ) .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

لعفوها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولى الوارث؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»(١)، وقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»(٢)، وقال: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ»(٣) فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولى فى ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته فى كتب الخلاف. ﴿سُلْطَانًا﴾ أى تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدّية؛ قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعى. وقال ابن وهب قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربى: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبى حنيفة: القتل خاصّةً. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعىّ. وقد مضى فى سورة «البقرة»(٤) هذا المعنى.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثانى — لا يقتل بدل وَلِيّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث — لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهىٌّ عنه. وقد مضى فى «البقرة»(٤) القول فى هـذا مستوفًى. وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بالياء، يريد الولى، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى «تسرف» بالتاء من فوق، وهى قراءة حُذيفة. وروى العــلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل. والمعنى عندنا فلا تسرف أيهــا القاتل. وقال الطبرىّ: هو على معنى الخطاب للنبىّ صــلى الله عليه وســلم والأئمــة من بعده. أى لا تقتلوا غير القاتل. وفى حرف أُبَىٍّ «فلا تسرفوا فى القتل».

(١) آية ٧١ سورة التوبة. (٢) آية ٧٢ سورة الأنفال. (٣) آخر سورة الأنفال.
(٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية.

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي مُعانا، يعنى الولىّ . فإن قيل : وكم من وَلِىّ مخذول لا يصل إلى حقّه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه فى قراءة أُبَىّ « فلا تسرفوا فى القتل إن وَلِىّ المقتول كان منصورا » . قال النحاس : الأبْيَنُ بالياء ويكون للولىّ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولىّ . وقد يجوز بالتاء ويكون للولىّ أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هـذا أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل، وهى مكية .

قوله تعـالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾

فيـه مسألتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[1] .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾[2] قد مضى الكلام فيه فى غير موضع . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونَهَى عنـه فهو من العهد . ﴿إِنَّ الْعَهْـدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ عنه ، فحذف؛ كقوله : «وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال : نقضت، كما تسأل المَوْءُودة تبكيتا لوائدها .

قوله تعـالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقـدم الكلام فيه أيضا فى الأنعام[(1)] . وتقتضى هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقـد مضى فى سورة «يوسف» فلا معنى للإعادة[(2)] . والقُسطاس والقِسطاس ( بضم القاف وكسرها ) : الميزان بلغـة الروم ؛ قاله ابن عُزَيز . وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهـد : القسطاس العـدل ، وكان يقول : هى لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زِنوا بمَعْدَلة فى وزنكم . وقرأ بن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر «القُسطاس» بضم القاف . وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وفاءُ الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة . قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " لا يقدر رجل على حرام ثم يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

قوله تعـالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يَعْنيك . قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر ، وسمعتُ وأنت لم تسمع ، وعلمتُ وأنت لم تعـلم ؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما . قال مجاهد : لا تذُمّ أحدا بمـا ليس لك به علم ؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هى شهادة الزور . وقال القُتَبى : المعنى لا تتبع الحَدْس

(1) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .		(2) راجع جـ ٩ ص ٢٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

والظنون؛ وكلها متقاربة . وأصـل القَفْو البُهْت والقذفُ بالباطل؛ ومنـه قوله عليه الصلاة والسـلام : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفى من أبينا " أى لا نَسُبّ أمنـا . وقال الكُمَيت : —

فـلا أرمى البرىء بغـير ذنب * ولا أَقْفُو الحـواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أَقْفُوه، وقُفْتُـه أَقُوفُه، وقَفَّيتـه إذا ٱتَّبعت أثره . ومنـه القافة لتتبعهم الآثار وقافية كلّ شيء آخره ، ومنه قافية الشّعر؛ لأنها تقفو البيت . ومنه ٱسم النبيّ صلى الله عليـه وسـلم المُقَفّى؛ لأنه جاء آخر الأنبيـاء . ومنـه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشَّبَه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعـل ذلك . وتقول : فَقَوْت الأثر، بتقـديم الفاء على القـاف . ابنُ عطيـة : ويشبه أن يكون هـذا من تلعّب العرب فى بعض الألفاظ ،كما قالوا : رَعَمْلِي فى لَعَمْرِى . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنهـا قالت : قفا وقاف، مثـل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثـل جَبَذ وجَذَب . وبالجمـلة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشـبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفَآد » بفتح الفـاء، وهى لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانيـــة — قال ابن خُوَيْزِمنداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمـا قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلّ على جواز ما لنا به علم؛ فكلّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به ، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يُسَمَّى علما ٱتساعا . فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفـرع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىّ مسرورا تَبرُق أسارير وجهه فقال : " ألم تَرَىْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رءوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض " . وفى حديث يونس بن يزيد : " وكان مُجَزِّز قائفا " .

الثالثــة — قال الإمام أبو عبـد الله المـازَرِى : كانت الجاهليـة تقـدح فى نسب أسامة لكونه أسـود شديد السـواد ، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضى عِيَاض : وقال غير أحمد كان زيد أزهرَ اللون ، وكان أسامة شديد الأُدْمة؛ وزيد بن حارثة عربىّ صريح من كَلْب، أصابه سِباء، حسبما يأتى فى سورة « الأحزاب »(١) إن شاء الله تعالى .

الرابعــة — استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد، بسرور النبىّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف؛ وما كان عليه السلام بالذى يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة و إسحاق والثَّوْرِىّ وأصحابهم متمسّكين بإلغاء النبىّ صلى الله عليه وسلم الشبه فى حديث اللّعان؛ على ما يأتى فى سورة « النور » إن شاء الله تعالى .

الخامســـة — واختلف الآخذون بأقوال القافـة ، هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأوّل — قول الشافعىّ ومالك رضى الله عنهما فى رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعىّ رضى الله عنه؛ لأن الحديث الذى هو الأصل فى الباب إنمـا وقع فى الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذى خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليـه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفَى بقول واحد من القافة أو لابُدّ من اثنين لأنها شهادة. و بالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . و بالثانى قال مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما آفتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته"

(١) راجع المسألة الخامسة من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين ... » آية ٤

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ فى الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزى ؛ كما قال : « ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(١) ، وقوله « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٢) . وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها فى هذه الآية مسئولة ، فهى حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله فى قوله تعالى «رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ» : إنما قال : « رأيتهم » فى نجوم ، لأنه لما وصفها بالسجود وهو من فعل مَن يعقل عبّر عنها بكناية مَن يعقل ؛ وقد تقدم(٣) . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبرى :

ذُمّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى * والعيش بعد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هذا نَهْىٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع . والمَرَح : شدّة الفرح . وقيل : التكبر فى المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء فى المشى . وقيل : هو البطر والأَشَر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمود ؛ فالتكبّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففى الحديث الصحيح "لَلّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل ..." الحديث . والكسل

---

(١) آية ٦٥ سورة يس . (٢) آية ٢٠ سورة فصلت . (٣) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

مذموم شرعا والنشاط ضـدّه . وقد يكون التكبر وما فى معناه محمودا ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أسـند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن الغَيْرة مايبغض الله عز وجل ومنها مايحب الله عز وجل ومن الخُيَلاء مايحب الله عز وجل ومنها مايبغض الله فأما الغيرة التى يحب الله الغَيْرةُ فى الدِّين والغيرة التى يبغض الله الغيرةُ فى غير دينه والخيلاء التى يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذى يبغض الله الخيلاء فى الباطل " وأخرجه أبو داود فى مصنَّفه وغيره . وأنشـــدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتهـا قوم همو منـك أرفع
و إن كنتَ فى عزٍّ وحِرْز ومَنْعة * فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانيـــة — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية ، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى . وأما الرجل يستريح فى اليوم النادر(١) والساعة من يومه ، يُجِمّ فيهـا نفسه فى التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شـغل من البر، كقراءة علم أو صلاة ، فليس بداخل فى هذه الآية .

قوله تعـالى : ﴿ مَرَحًا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بنـاء آسم الفاعل . والأول أبلغ ، فان قولك : جاء زيد ركْضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضا ؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعنى لن تتولّج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك . و يقال : خرق الثوب أى شـقه ، وخرق الأرض قطعها . والخَرْق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك ، أى بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ ، بل أنت عبد ذليل ، محاط بك من تحتك ومن فوقك ، والمحاط محصور ضعيف ؛ فلا يليق بك

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى اليوم البارد » .

التكبر . والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهرى : معناه لن تقطعها . النحاس : وهذا أبين؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهى الصحراء الواسعة . ويقال: فلان أخرق من فلان، أى أكثر سفرا وعزة ومنعة . ويروى أن سَبَأ دوّخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسَهْلا وجبلا، وقتل سادة وسبي — وبه سُمِّيَ سبأ — ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إنى لما نلت مالم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هـذه النعم، فلم أر أوقع فى ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّل عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح، نعوذ بالله من ذلك .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقـدّم ذكره ممـا أمر به ونَهَى عنـه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمـع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق « سـيِّئُهُ » على إضافة سَيِّئ إلى الضمير، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان . والسيِّئ : هو المكروه، وهو الذى لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآى من قوله : « وقَضَى ربُّك — إلى قوله — كان سيِّئُه » مأمورات بهـا ومنهيات عنها ، فلا يخـبر عن الجميع بأنه سيّئة فيدخل المأمور به فى المنهىّ عنـه . واختار هـذه القراءة أبو عبيد . ولأن فى قراءة أُبَىّ « كلُّ ذٰلك كان سيئاته » فهـذه لا تكون إلا للإضافة . وقـرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سيئةً » بالتنوين ؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنـه سيئة . وعلى هـذا انقطع الكلام عنـد قوله : « وأَحْسَـنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْشِ » ، ثم قال : « كُلُّ ذلك كان سيّئةً » بالتنوين . وقيل : إن قوله « ولا تقتلوا أولادَكم » إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيـه، فجعلوا « كلا » محيطا بالمنهىّ عنه دون غيره . وقوله : « مكروها » ليس نعتا لسيئة، بل هو بدل منـه؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مكروها » خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ ، و « سيئة » محمول على المعنى فى جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ . وقال بعضهم : هو نعت لسيئة؛ لأنه لمـا كان

تأنيثها غير حقيق جاز أن توصف بمذكر . وضعّف أبو على الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده مذكرا، وإنما التساهل أن يتقدّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو فى صيغة ما يسند إلى المذكّر؛ ألا ترى قولَ الشاعر :

فـلا مزنةٌ ودَقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقـل إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو علىّ : ولكن يجـوز فى قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى فى « عند ربك » ويكون « عند ربك » فى موضع الصفة لسيئة .

الخامســـة — استدلّ العلماء بهذه الآية على ذم الرَّقْص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قـد نصّ القرآن على النّهى عن الرقص فقال : « ولا تمش فى الأرض مَرَحًا » وذم المختال . والرقصُ أشـد المرح والبطر . أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمـر لاتفاقهما فى الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشِّعر معـه على الطُّنبور والمزمار والطّبل لاجتماعهما . فـا أقبح من ذى لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص و يصفّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصواتٌ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسـؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدّارين ، يَشْمُس[1] بالرقص شمس البهـائم ، و يصفّق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ فى عمرى ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمـه الله : ولقد حدّثنى بعض المشايخ عن الإمام الغزالى رضى الله عنـه أنه قال : الرقص حمـاقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب . وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيـان فى « الكهف[2] » وغيرها[3] إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمست الدابة : شردت وجمحت .          (٢) فى المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم ... » آية ١٤          (٣) فى أول سورة لقمان .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

الإشارة بـ« ذلك » إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التى نزل بها جبريل عليه السلام . أى هذه من الأفعال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعانى المحكمة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « ولا تجعل » على ما تقدّم من النواهى . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر . والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى . وقد تقدّم فى هذه السورة[1] . ويقال فى الدعاء : اللهم ٱدْحر عنا الشيطان؛ أى أبعده .

قوله تعـالى : أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

هذا ردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ؛ وكان لهم بنات أيضا مع البنين؛ ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم و بينه . ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً ﴾ أى فى الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بيّنا . وقيل كررنا . ﴿ فى هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل « فى » زائدة، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن؛ مثلُ « وأَصْلِحْ لِى فى ذُرِّيَّتِى » أى أصلح ذريتى . والتصريف : صرف الشيء من جهة إلى جهة . والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة؛ أى غايرنا بين المواعظ ليذّكروا و يعتبروا و يتّعظوا . وقراءة العامة « صَرّفنا »

---

(١) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

بالتشـديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله « في هـذا القرآن » يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبي : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب : لقوله تعـالى « صرفنا » معنيان ، أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومُحْكَما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخـا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ، مثل تصريف الرياح من صَبًا ودَبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من المـاضي والمستقبل والأمر والنهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثاني أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما ، نحو قوله « وقرآنا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليـه السلام إليك .

﴿ لِيذَّكَّرُوا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي « ليَذْكُروا » مخفَّفا ، وكذلك في الفرقان « ولقد صَرَّفناهُ بَيْنَهُم لِيَذْكُروا »(١) . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ، لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا . قال المَهْدوِيّ : من شدّد « لِيَذَّكَّروا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُروا » . ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »(٢) والثاني — « وَاذْكُرُوا ما فِيهِ »(٣) . ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أي تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ، وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعـالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ » وهو ردّ على عُبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون » بالياء . الباقون « تقولون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ يعني الآلهـة . ﴿ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سـعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه : المعنى إذًا لطلبوا

(١) آية ٥٠ . (٢) آية ٥١ سورة القصص . (٣) آية ٦٣ سورة البقرة .

طريقا إلى الوصـول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهـم شركاؤه . وقال قَتادة : المعنى إذًا لأبْتَغتْ الآلهة القُرْبة إلى ذى العرش سبيلا ، والتمست الزُّلْفة عنده لأنهم دونه ، والقوم آعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا آعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّسـه ومجده عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدّم (١) .

قوله تعـالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لمـا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعـد ذلك الأشـياء كلّها فى قوله : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هـذا العموم ، هل هو مخصّص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محـدَث يشهد على نفسـه بأن الله عن وجل خالق قادر . وقالت طـائفة : هـذا التسبيح حقيقة ، وكلّ شىء على العموم يسبّح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون » الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم، ومعناه الخصوص فى كل حَىٍّ ونامٍ، وليس ذلك فى الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح . وقال يزيد الرَّقَاشِىّ للحسن وهما فى طعام وقد قُدِّم الخوان : أيسبّح هـذا الخوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرّة ؛ يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خِوانا مدهونا .

(١) راجع ج ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : ويستدلّ لهذا القول من السُّنّة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرين فقال : " إنهما لَيُعَذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنَّميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول " قال : فدعا بعَسِيب رَطْب فشقّه اثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : "لعلّه يخفّف عنهما ما لم يَيْبَسَا". فقوله عليه الصلاة والسلام . " ما لم ييبسا " إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبّحان، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفى مسند أبى داود الطّيالسى : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : " لعـله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شىء " . قال علماؤنا : ويستفاد من هـذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفف عنهـم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هـذا المعنى فى ( كتاب التذكرة ) بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثانى لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شىء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهـذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعـالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ»(١)، وقـوله : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »(٢) — على قول مجاهـد — ، وقوله : « وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا »(٣) . وذكر ابن المبارك فى ( دقائقه ) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبـل يقول للجبل : يا فلان، هل مرّ بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرّ به . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا » الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه، هل مرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر اللهَ عليـك ؟ فمِن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

---

(١) آية ١٧ سورة ص . (٢) آية ٧٤ سورة البقرة . (٣) آية ٩٠ سورة مريم .

الله عليه وسلم : "لا يَسمع صـوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" . رواه ابن ماجه فى سننه ، ومالك فى موطّئه من حديث أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنــه . وخرّج البخارىّ عن عبــد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . فى غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضى الله عنه قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن" . قيل : إنه الحجر الأسود، والله أعلم . والأخبار فى هــذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جمــلة منها فى اللّمع اللؤلؤية فى شرح العشرنيات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور فى هذا الباب خرّجه البخارى فى مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك فى جماد واحد جاز فى جميع الجمادات ، ولا آستحالة فى شيء من ذلك ؛ فكل شيء يسبح للعموم . وكذا قال النَّخَعِىّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجّوا بالأخبار التى ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت * وتَســتقر حَشَــا الرائى بتَرْعَادِ

أى يقول من رآها : ســبحانَ خالِقها . فالصحيح أن الكل يســبّح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأىّ تخصيص لداود ، وإنمـا ذلك تســبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصّت السنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء فالقول به أَوْلى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمــرو ويعقوب وحفص وحمــزة والكسائى وخَلَف «تفقهون» بالتاء لتأنيث الفاعل . الباقون باليــاء، واختاره أبو عبيــد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث . ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده فى الدنيا . ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أقبلت العَوْراءُ أمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلة وفى يدها فِهْر (١) وهى تقول :

* مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وأمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا (٢) *

والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد فى المسجد ومعه أبو بكر رضى الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها لن ترانى" وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال . وقرأ « وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مَسْتُورًا » . فوقفت على أبى بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر، أُخبِرتُ أن صاحبك هجانى ! فقال : لا وربِّ هذا البيت ما هجاك . قال : فولّت وهى تقول : قد علمتْ قريش أنى ابنة سيدها . وقال سعيد بن جُبير رضى الله عنه : لما نزلت «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» جاءت امرأة أبى لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضى الله عنه، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذيّة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بينى وبينها " فلم تره . فقالت لأبى بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدّقه؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أمَا رأتك؟ قال: "لا . ما زال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت". وقال كعب رضى الله عنه فى هذه الآية : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التى فى الكهف « إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفِى آذانِهِمْ وَقْرًا (٣) » ، والآية التى فى النحل

---

(١) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل : هو الحجر مطلقا .	(٢) هذا ما ورد فى سيرة ابن هشام . والذى فى نسخ الأصل : مذمما أبينا * ودينه قلينا	(٣) آية ٥٧

« أولئكَ الَّذِينَ طَبعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ »(١) ، والآية التى فى الجاثية(٢) « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً(٣) » الآية . فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين . قال كعب رضى الله تعالى عنه : فحدثت بهن رجلا من أهــل الشأم ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا ، ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال الثعلبي(٤) : وهذا الذى يروونه عن كعب حدثت به رجلا من أهل الريّ فأسر بالدَّيْلَم ، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهن لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : و يزاد إلى هذه الآى أولُ سورة يس إلى قوله «فهم لايبصرون» . فإن فى السيرة فى هجرة النبيّ صلى الله عليــه وسلم ومقامِ عليّ رضى الله عنه فى فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفْنة من تراب فى يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : « يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . — إلى قوله — وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هــذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور(٥) من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أنى هربت أمام العــدو وانحزت إلى ناحية عنــه ، فلم ألبث أن خرج فى طلبي فارسان وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فعبرا عليّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيبْلُه(٦) ، يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرونى ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيــل : الحجاب

(١) آية ١٠٨ (٢) فى الأصـول : « فى الشورى » وهو خطأ . (٣) آية ٢٣
(٤) فى بعض الأصول : «الكلبي» . (٥) كذا فى الأصول . (٦) ضبطناها بذلك لأنها ينطق بها فى الاسبانية «ديبلو» (بكسر الدال وفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم اللام) .

المستور طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة . وقال الحسن : أي أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك و بينه حجاب في عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل آمرأة أبي لهب وحُوَيطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأول بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان : أحدهما — ان الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثاني — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ « أكنة » جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء . وقد تقدم في « الأنعام »[1] . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوه ﴾ أي لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم والمعاني . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي صمما وثقلا . وفي الكلام إضمار، أي أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أي قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجَوْزاء أَوْس بن عبد الله : ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نُفُورًا » . وقال علي بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا في البسملة . ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعني بذلك المشركين . وقيل الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد؛ فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « وَلَّوْا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧)

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة في قوله « به » أي يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور ؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أي متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: " قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم " فأبَوْا ، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النَّجْوَى اسم للمصدر؛ أي وإذ هم ذو نجوى، أي سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغيرة وأمثالها . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أي مَطْبُوبا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحورا » أي مخدوعا ؛ مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »(١) أي من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : «مسحورا» معناه أن له سَحْرًا ، أي رِئة ، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بملَك . وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سَحْره . ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر . قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

(١) آية ٨٩ سورة المؤمنون .

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعين لأمرٍ غَيْبٍ(١) * ونُسْحَر بالطعام وبالشَّراب

أى نُغَــذَّى ونُعَلَّل . وفى الحــديث عن عائشــة رضى الله عنها أنهــا قالت : مَن هــذه التى تُسامِينى من أزواج النبى صلى الله عليــه وسلم ، وقد تُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليــه وسلم بين سَحْرِى ونَحْرِى(٢) .

قوله تعـالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَـبِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى حِيلة فى صــدّ الناس عنك . وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلا ، أى إلى الهدى . وقيل : مخرجا ، لتناقض كلامهم فى قولهم : مجنون ، ساحر ، شاعر .

قوله تعـالى : وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًـا جَـدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى قالوا وهم يتناجَوْن لمــا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث : لو لم يكن مسحورا مخدوعا لمــا قال هذا . قال ابن عباس : الرُّفات الغبار . مجاهد : التراب . والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء ، كالفُتات والحُطام والرُّضاض ؛ عن أبى عبيــدة والكسائىّ والفرّاء والأخفش . تقول منه : رُفِتَ الشيء رَفْتًا ، أى حُطِم ؛ فهو مرفوت . ﴿ أَئِنَّـا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ « أئنا » اســتفهام والمراد به الجَحْد والإنكار . و « خلقا » نصب لأنه مصدر ، أى بعثا جديدا . وكان هذا غايةَ الإنكار منهم .

---

(١) أوضع الرجل فى السير إذا أسرع . وقوله «لأمر غيب» يريد الموت ، وأنه قد غيّب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب. (٢) تريد أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها (وهو الرئة).

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجـارة أو حديدا فى الشـدّة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم . وقال علىّ بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ فى الإلزام. وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم. وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون. النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنمـا المعنى أنهم قـد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبُعثتم كما خُلقتم أول مرة. ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أُمَيّة بن أبى الصلت :

* وللمَوْتُ خَلْق فى النفوس فظيع *

يقول . إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنّكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأتكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . وفى الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة فى صـورة كَبْش أَملَح فيذبح بين الجنة والنار" . وقيل : أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم؛ قاله الكلبى. ﴿ فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم وأنشأكم . ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى يحرّكون رءوسهـم استهزاء ؛ يقال :

نَغَض رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضاً ونُغوضا؛ أى تحرّك . وأنغض رأسه أى حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » .

قال الراجـــز :

* أنغض نحوى رأسه وأقنعا (١) *

ويقال أيضا : نغض فلان رأسه أى حركه؛ يتعـدّى ولا يتعدّى ، حكاه الأخفش . ويقال : نَغَضت سِنّه ؛ أى تحركت وانقلعت .

قال الراجـــز :

* ونغضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخـــر :

* لما رأتنى أنغضتْ لِى الرأسا *

وقال آخـــر :

لا ماء فى المَقْراة إن لم تنهض * بمَسَـدٍ فوق المَحَـالِ النُّغَّض

المحال والمحالة : البكرة العظيمة التى يستقَى بهـا الإبل . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أى البعث والإعادة وهـذا الوقت . ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ أى هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٢) » . و « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (٣) » . وكل ما هو آت فهو قريب .

قوله تعـالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج . وقيل : بالصيحة التى يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : ” إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم “ . ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى باستحقاقه الحمـد على الإحياء .

(١) أقنع فلان رأسه : وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء .　(٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب .　(٣) آية ١٧ سورة الشورى .

وقال أبو سهل : أى والحمد لله؛ كما قال :

فإنى بحمـد الله لا ثوب فاجر * لبِسْتُ، ولا من غَدْرة أتقنّع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم. قال سعيد بن جُبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمـدك؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمـده » بأمره؛ أى تقرّون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيــل : المعنى بقدرته . وقيــل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ فى الصور إنمــا هو سبب لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنمــا هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » وقال فى آخره « وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(١).﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكفّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون؛ فذلك قوله تعالى : «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا(٢) » فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صِيح بأهــل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقرت فى أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : «وَتَظُنُّون إن لبثتم إلا قليلا» فى الدنيا لطول لبثكم فى الآخرة .

قوله تعــالى : وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ تقــدّم إعرابه(٣) . والآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه، وسبّه عمر وهمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبادِى يقولوا التى هِى أحسن » ذكره الثعلبىّ والمــاوَرْدىّ

(١) آية ٧٥ سورة الزمر . (٢) آية ٥٢ سورة يس . (٣) راجع ج ٩ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

وابن عطية والواحدي . وقيل : نزلت لما قال المسلمون : إيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : " لم أُومَرْ بعدُ بالقتال " فأنزل الله تعالى « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » ؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادي الذين اعترفوا بأني خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) . وقال الحسن : هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامةً في المؤمن والكافر، أي قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّةً، بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح واطّراح نزغات الشيطان، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " وكونوا عباد الله إخوانا " . وهذا أحسن، وتكون الآية محكمــة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدّم في آخر الأعراف ويوسف(٢) . يقال : نزغ بيننا أي أفسد؛ قاله اليزيدي . وقال غيره : النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أي شديد العداوة . وقد تقدّم في البقرة(٣) . وفي الخبر " أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرّش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان " . فهذا من بعض عداوته .

---

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وجـ ٩ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ هذا خطاب للشركين، والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جُريج . و « أعلم » بمعنى عليم ؛ نحو قولهم : الله أكبر، بمعنى كبير . وقيـل : الخطاب للؤمنين ؛ أى إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم ؛ قاله الكلبي . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أى وما وكّلناك فى منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم ؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :

ذكرت أبا أَرْوَى فبتّ كأننى ❊ بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل .

قوله تعـالى : وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أعاد بعد أن قال : « ربكم أعلم بكم » ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين فى أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم ؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) . وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول فى هـذا فى « البقرة »(٢) . ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنمـا هو دعاء وتحميد وتمجيد . أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو فى مُحاجّة اليهود .

قوله تعـالى : قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾

(١) آية ١٤ سورة الملك . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِه ﴾ لما ابتليت قريش بالقَحْط وشَكَوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أى ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعنى الملائكة وعيسى وعزيرا . ابن مسعود : يعنى الجن . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أى القحط سبع سنين، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقَم إلى الصحة .

قوله تعالى : أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أولئك » مبتدأ « الذين » صفة « أولئك » وضمير الصلة محذوف؛ أى يدعونهم . يعنى أولئك المدعوون . و ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر، أو يكون حالا ، و « الَّذِين يَدْعُون » خبر؛ أى يدعون إليه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مسعود « تدعون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر . ولا خلاف فى « يبتغون » أنه بالياء . وفى صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبد الله بن مسعود فى قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوَسِيلة » قال : نفر من الجن أسلموا وكانوا يُعبدون ، فبَقِىَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . فى رواية قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و [ الإنس ](١) الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره الماوردى . وقال ابن عباس ومجاهد : عُزير وعيسى . و « يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى فى طلب الجنة، وهى الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم فى « ربهم » تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعا . وأما « يدعون » فعلى العابدين . « ويبتغون » على المعبودين . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

بدلا من الضمير فى « يبتغون » ، والمعنى يبتغى أيهم أقرب الوسيلة إلى الله . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى مخوفا لا أمان لأحد منه ؛ فينبغى أن يُحذر منه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعالى : وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى مخربوها . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا فى قرية أذن الله فى هلاكهم . وقيل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوّى ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »(١) . أى فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بها العذاب . ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللوح . ﴿ مَسْطُورًا ﴾ أى مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة وهو فى الأصل مصدر . والسَّطَر ( بالتحريك ) ، مثله . قال جرير :

من شاء بايعتـه مالى وخُلعته * ما تكمل التَّيْمُ(٢) فى ديوانهم سَطَرَا

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال . والسطر جمع أسطار ؛ مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسطر وسطور ؛ مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

---

(١) ٥٩ سورة القصص . (٢) فى ديوان جرير : « ما تكمل الخُلْج » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التى اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم . قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرهما . فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا . وقد تقدّم فى « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتُنتحّى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال : " إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا . وإن شئت استأنيت بهم " . فقال : " لا ، بل استأن بهم " . و « أن » الأولى فى محل نصب بوقوع المنع عليهم، و «أن» الثانية فى محل رفع . والباء فى « بالآيات » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء ؛ فالمعنى المبالغة فى أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أى آية دالة مضيئة نيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدّم ذلك (١) . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فآستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول — العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذّبين . الثانى — أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب ، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك ؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الذّريع (٢) ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ و جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى السريع الفاشى لا يكاد الناس يتدافنون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة ، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم ؛ أى أن الله سيهلكهم . وذكره بلفظ الماضى لتحقق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى « أحاط بالناس » أى أحاطت قدرته بهم ، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته ؛ قاله مجاهد وابن أبى نَجيح . وقال الكلبيّ : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه ؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا ، بل عليك التبليغ ، فبلغ بجدّك فإنا نعصمك منهم ونحفظك ، فلا تَهَبْهم ، وآمض لما آمرك به من تبليغ الرسالة ، فقدرتنا محيطة بالكل ؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لمّا بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » قال : هى رؤيا عَيْن أُرِيها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به إلى بيت المقدس . قال : « والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ » هى شجرة الزَّقُّوم . قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث صحيح . وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد ابن جُبير والضحاك وابن أبى نَجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِىَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدَيْبِيَة ، فَرُدّ فآفتتن المسلمون لذلك ، فنزلت الآية ، فلما كان العام المقبل دخلها ، وأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ »(1) . وفى هذا التأويل ضعف ؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يَنْزُون

(1) آية ٢٧ سورة الفتح .

على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك فقيل : إنمـا هى الدنيا أعطوها، فسُرِّىَ عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة . وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنمـا هذه الرؤيا هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أميـة ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علىّ فى خطبته فى شأن بيعته لمعاوية : «وإنْ أَدْرى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكم ومتاعٌ إلى حينٍ»(1) . قال ابن عطية : وفى هذا التأويل نظر، ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . وفتنتُها أنهم لمـا خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعـرف الزقوم إلا التمر والزبد . ثم أمر أبو جهـل جارية فأحضرت تمـرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقَّموا . وقد قيـل : إن القائل ما نعـلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرَى حيث قال : كثّر الله من الزقوم فى داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيّه عليـه السلام أنه إنمـا جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليَكْفر من سبق عليه الكفر ويصدّق من سبق له الإيمـان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق . فقيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير .

---

(1) آية ١١١ سورة الأنبياء .

قلت : ذكر هـذا الخبر ابن إسحاق ، ونصـه : « قال كان من الحديث فيما بلغنى عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخُدْرِىّ وعائشة ومعاوية بن أبى سفيان والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الزُّهْرِىّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأمّ هانئ بنت أبى طالب ، ما اجتمع فى هذا الحديث ، كُلٌّ يحدّث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم ، وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل فى قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق وكان من أمر الله تعالى على يقين ؛ فأسرى به صلى الله عليـه وسلم كيف شاء وكما شاء ليُرِيَه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغنى عنه يقول : أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق — وهى الدابة التى كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها فى منتهى طرفها — فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يُرى الآيات فيما بين السماء والأرض ، حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِىَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فسمعت قائلا يقول حين عُرِضت علىّ إن أخذ المـاء فغرق وغرِقت أمّته وإن أخذ الخمر فغَوِىَ وغَوَتْ أمتـه وإن أخذ اللبن فهُدِىَ وهُدِيَتْ أمتـه قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لى جبريل هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد" .

قال ابن إسحاق : وحدّثت عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا نائم فى الحِجْر جاءنى جبريل عليه السلام فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عُدت لمضجَعِى فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجَعِى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار فى فخـذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضـع حافره فى منتهى طَرْفه فحملنى عليـه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته " .

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت عن قتادة أنه قال : حُدِّثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَس(١) فوضع جبريل يده على مَعْرَفَته ثم قال ألا تستحي يا بُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ٱرفضّ عَرَقًا ثم قَرّ حتى ركبته " .

قال الحسن في حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [ جبريل ] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أُتِيَ بإناءين : في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . قال : فقال له جبريل : هُدِيت الفِطْرة وهُدِيت أمّتك وحُرِّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غَدَا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البَيِّنُ ! والله إن العِير لتُطرد شهرا من مكة إلى الشأم ، مدبرةً شهرا ومقبلةً شهرا ، فيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فٱرتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا في المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبيّ الله ، أحدّثتَ هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال " نعم " قال : يا نبيّ الله ، فصفه لي فإني قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لي حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر رضي الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

(١) شمست الدابة والفرس تشمس : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

وصف له منه شـيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسـول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه : " وأنت يا أبا بكر الصدّيق " فيومئذ سماه الصدّيق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فِتنةً لِلنّاسِ والشجرةَ الْمَلْعُونَةَ فِى القرآنِ ونُخَوِّفُهم فما يَزِيدُهم إلا طُغْيَانًا كبيرا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيـه من حديث قتادة . وذكر باقي الإسراء عمن تقـدّم في السيرة . وقال ابن عباس : هـذه الشجرة بنو أميّـة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم نفى الحَكَم . وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقـد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنة الله (١) . ثم قال : « والشّجرةَ الملعونة فِى القرآنِ » ولم يجر في القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هـذا على قول العرب لكل طعـام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هي هـذه الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتله ، يعني الكَشُوث . ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أى بالزّقوم . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف إلا الكفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ تقـدّم ذكر كون الشـيطان عدوّ الإنسان ، فانجرّ الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بتمادى هؤلاء المشركين وعتوّهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبَى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى :

(١) هذه عبارة الفخر الرازى . والذى فى الأصول : « فأنت قطط من لعنة الله » . والقطط : القصير الجعد من الشعر ، وشعر الزنجى .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقــدّم القول فى خلق آدم فى « البقرة ، والأنعام » مستوفًى (١) . ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أى قال إبليس . والكاف توكيد للمخاطبة . ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى فضلته علىّ . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدّم هـذا فى الأعراف . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ ، لم فضلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هذا الذى كرمته علىّ لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ فى قول ابن عباس : لأستولِيَنّ عليهم . وقاله الفراء . مجاهد : لأحتوِيَنّهم . ابن زيد : لأضلنهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم . وروى عن العـرب : اِحْتَنَكَ الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه . وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودَنّهم حيث أردت . من قولهم : حنكت الفـرس أحنِكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت فى فيه الرسن . وكذلك احتنكه . والقول الأوّل قريب من هذا ؛ لأنه إنمـا يأتى على الزرع بالحَنَك . وقال الشاعر :

أشـكو إليك سَنَةً قـد أجحفت ✽ جهدا إلى جهــدٍ بنا وأضعفت
✽ واحتنكت أموالنا واجتلفت (٢) ✽

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (٣) » وإنما قال إبليس ذلك ظنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَـا (٤) » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عزمًا .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُـمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٧ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أى أذهبت .		(٣) آية ٢٠ سورة سبأ .		(٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ هـذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقـد أنظرناك . ﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛ عن مجاهـد وغيره . وهو نصب على المصدر ، يقال : وفَرته أفِره وَفْرًا ، ووَفَر المـال بنفسه يفِر وفورا فهو وافر؛ فهو لازم ومتعدّ .

قوله تعـالى : وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أى ٱستزِلّ وٱستخِفّ؛ وأصله القطع، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع (١) . والمعنى استزِلّه بقطعك إياه عن الحق . وٱستفَزّه الخوفُ أى ٱستخفه . وقعـد مُسْتَوْفِزًا أى غير مطمئن . « وٱسْتَفْزِز » أمر تعجيز، أى أنت لا تقـدر على إضلال أحد، وليس لك على أحد سلطان فٱفعل ما شئت .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوتُه كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛ عن ابن عبـاس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهـو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وولد قابيل أسفله، وفيهم بنات حسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن ٱنحدروا فزَنَوْا؛ ذكره الغزنوىّ . وقيل : « بصوتك» بوسوستك .

الثالثـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق؛ يقال : أجلب إجلابا . والجَلَب والجَلَبَة : الأصوات؛ تقول منه : جلّبوا بالتشديد . وجَلَب الشيء يجلِبه ويجلُبه جلْبًا وجَلَبا . وجلبت الشى إلى نفسى واجتلبته بمعنًى . وأجلب على العدوّ إجلابا؛ أى جمّع عليهم . فالمعنى أجمِـع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

---

(١) لم نجد فى كتب اللغة « تفزز الثوب » بزايين بهذا المعنى، وانمـا هو « تفزر » بزاى ثم راء . فليلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورَجَّالته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مَشَتْ في معصية الله ، وكلّ مال أصيب من حرام ، وكلّ ولد بَغِيَّـة فهو للشيطان . والرَّجْل جمع راجل ؛ مثـل صَحْب وصاحب . وقرأ حفص « ورَجِلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعــة — ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أي اجعـل لنفسك شركة في ذلك . فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيـل : هي التي أصابوها من غير حِلّها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحـام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم . والأولاد قيـل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنـه أيضا هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبـد الشمس ونحوه . وقيـل : هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ، كصنع النصـارى بأولادهم بالغمس في المـاء الذي لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (١) » وسيأتي . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فيكم مُغَرِّبين " قلت : يارسول الله ، وما المغرّبون؟ قال : " الذين يشترك فيهم الجن " . رواه الترمذي الحكيم في ( نوادر الأصول ) . قال الهَرَوِي : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذي الحكيم : فالجن مسامّاة (٢) بابن آدم في الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوّج فيهم ، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبأ أحد أبويها من الجن . وسيأتي بيانه إن شاء الله تعـالى .

---

(١) آية ٥٦ ، ٧٤ سورة الرحمن . (٢) المساماة : المباراة .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أى مَنِّهِـم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم . يقويه قوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »(١) أى باطلا . وقيـل « وَعِدْهُمْ » أى عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء . وهـذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن آتبعـه .

السادســـة — فى الآية ما يدلّ على تحـريم المزامير والغناء واللّهو ؛ لقوله : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعـله وما يستحسنه فواجب التنزه عنـه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زَمّارة فوضع أصبعيه فى أذنيـه ، وعدل راحلتـه عن الطريق وهو يقول : يانافع ! أتسمع؟ فأقول نعم ؛ فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [ صوت ] زَمّارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «لقمان» إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقـدّم الكلام فيه(٢) . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعـالى : رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

(١) آية ١٢٠ سورة النساء . (٢) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ ﴾ الإزجاء : السوق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا »(١) . وقال الشاعر(٢) :

يأيها الراكب المُزْجِى مطيّته * سائل بنى أسد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمع، وقد تقدّم(٣) . والبحر الماء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هذا الاسم على الملح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدّم(٤) . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ﴾ «الضر» لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجرى . وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ « ضل » معناه تلف وفُقد، وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلها من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلا ، وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا من عصمه الله؛ فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعالى : أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

---

(١) آية ٤٣ سورة النور .
(٢) هو رويشد بن كثير الطائى ؛ كما فى اللسان .
(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .
(٤) راجع ج ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بين أنه قادر على هلاكهم فى البر وإنْ سَلِموا من البحر . والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أى غارت حدقتها فى الرأس . وعَيْنٌ من المـاء خاسفة أى غار ماؤها . وخَسَفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخَسِيف البئر التى تحفر فى الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصير بعد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبرّ جانب . وقيـل : إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيـه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يعنى ريحا شديدة ، وهى التى ترمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار؛ قاله أبو عبيـدة والقُتَبِيّ . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تَحصِبهم ، كما فُعـل بقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبَرَد : حاصب ، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضا . قال لَبِيد :

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها ⁂ أذيالَهـا كُلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ

وقال الفَرَزْدَق :

مستقبلين شَمَال الشام يضربنـا ⁂ بحاصب كنَدِيف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعـالى : أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ يعنى فى البحر . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تكسر بشدة ؛ من قَصَف الشيءَ يَقصِفه؛ أى كسره بشـدة . والقصف : الكسر؛ يقال : قصفت الريح السفينة . وريح قاصف :

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَف الرعدُ وغيرهُ قصيفا . والقَصيف : هشيم الشّجر . والتقصّف التكسر . والقصف أيضا : اللّهو واللعب، يقال : إنها مُوَلَّدة . ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَخْسِفَ بِكُم » « أو نُرْسِلَ عليكم » « أن نُعيدكم » « فنُرْسِل عليكم » « فنُغرقكم » بالنون فى الخمسة على التعظيم، ولقوله : « علينا » الباقون بالياء ؛ لقوله فى الآية قبل : « إياه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة و رُوَيْس ومجاهد « فتغرقكم » بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فيغرّقكم » بالياء مع التشديد فى الراء . وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفى كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكةُ فى البر، والعاصفَ المغرقةُ فى البحر ؛ حكاه الماوردى . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من الثأر . وكذلك يقال لكل من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع ؛ ومنه « فاتّباع بالمعروف» (١) أى مطالبة .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

فيه ثلاث مسائل (٢) :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ الآية . لما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا . « كرمنا» تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفى النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم فى البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان ، و يلبسون الثياب و يأكلون المركّبات من الأطعمة . وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئاً أو طعاما غير

---

(١) آية ١٧٨ سورة البقرة .	(٢) يلاحظ أن المسائل أربع .

مركب . وحكى الطبرى عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيــده وسائر الحيوان بالفم . وروى عن ابن عباس ، ذكره المهـدوى والنحاس ؛ وهو قول الكلبى ومقاتل ؛ ذكره المـاوردى . وقال الضحاك : كرّمهــم بالنطق والتمييز . عطاء : كرّمهم بتـعديل القامة وآمتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلّى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال باللّحى والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبرى : بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذى يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، و به يُعرف الله ويُفهم كلامه ، و يوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لمـا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس ، ومثـال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سـليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدّم من الأقوال بعضــه أقوى من بعض . وقد جعل الله فى بعض الحيوان خصالا يفضل بهـا ابن آدم أيضا ؛ كجرى الفرس وسمعه و إبصاره ، وقوّة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . و إنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانيـــة — قالت فرقة : هـذه الآية تقتضى تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون فى قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »(١) . وهذا غير لازم من الآية ، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان ، والجن هو الكثير المفضول ، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول ، ولم تتعرض الآية لذكرهم ، بل يحتمل أن الملائكة أفضـل ، ويحتمل العكس ، و يحتمل التساوى ، وعلى الجمـلة فالكلام لا ينتهى فى هــذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من الكلام فى هـذا كما تحاشوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر " لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضـلونى على يونس بن متّى " . وهـذا ليس بشىء ؛ لوجود

---

(١) آية ١٧١ سورة النساء .

النص فى القرآن فى التفضيل بين الأنبياء . وقد بيناه فى « البقـرة »(١) ومضى فيهـا الكلام فى تفضيل الملائكة والمؤمن(٢) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعنى لذيذ المطاعم والمشارب . قال مقاتل : السمن والعسـل والزبد والتمر والحَلْوى ، وجعـل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِـيلًا ﴾ أى على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز و إصابة الفِراسة .

الرابعـــة — هـذه الآية ترد ما روى عن عائشـة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِحْرِمُوا أنفسكم طَيِّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى فى العروق منها" . و به يستدِلّ كثير من الصُّوفيـة فى ترك أكل الطيبات ، ولا أصـل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تقرر فى غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطُّوسىّ قال : كان سهل يقتات ورق النَّبْق مدة ، وأكل دُقاق ورق التين ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النُّـون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلمـا كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحًا كان معى ، وقلت : هَلُمَّ . فقال لى : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفلح ! فنظرت إلى مِزْوَده و إذا فيه قليل سَوِيق شعير يَسَفّ منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا ممـا يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهـذا ممـا لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعـالى أكرم الآدمىّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمـة الدواب فى أكل التبن ، وأما سَوِيق الشعير فإنه يورث القُولَنْج(٣) ، و إذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَرِيش فإنه ينحرف مزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والملح يابس قابض يضر الدماغ والبصر . و إذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قووِمت حكمة البارئ سبحانه بردّها ، ثم يؤثر ذلك فى البدن ، فكان هـذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البـدن

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ طبعة أولى أو ثانية .		(٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) القولنج : مرض مِعَوِىّ مؤلم يعسر معه خروج الثُّفل والريح . معرّب .

مطيّة الآدمىّ ، ومتى لم يرفُق بالمطيّة لم تُبَلِّغ . وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حُوَّارَى ، فقيل له : هـذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنـا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صَبَرنا صبر الرجال . وكان الثورى يأكل اللحم والعنب والفالوذج[1] ثم يقوم إلى الصلاة . ومثل هـذا عن السلف كثير . وقـد تقدم منه ما يكفى فى المـائدة[2] والأعراف[3] وغيرهما . والأول غُلُوٌّ فى الدِّين إن صح عنهم « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ[4] » .

قوله تعـالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يوم نَدْعُوا كل أناسٍ بإمامهم » قال : " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويُمَـدّ له فى جسمه ستون ذراعا ، ويُبَيَّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنـا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا — قال — وأما الكافر فيُسَوَّد وجهه ويُمَدّ له فى جسمه ستون ذراعا على صـورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هـذا ! اللهم لا تأتنا بهـذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللّهُمّ أخزه . فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ونظير هذا قـوله : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّـةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[5] » . والكتاب يسمى إماما ، لأنه يُرجع إليـه فى تعرّف أعمالهم . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : « بإمامهم » أى بكتابهم ، أى بكتاب كلّ إنسان منهم الذى فيـه عمله ؛ دليـله « فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » . وقال ابن زيد : بالكتاب المنزّل عليهم . أى يدعى كل إنسان

---

(١) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل . وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية) .
(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦٠ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) آية ٢٧ سورة الحديد . (٥) آية ٢٨ سورة الجاثية .

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يأهل القرآن، ماذا عملتم، هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا . وقال مجاهد: «بإمامهم» بنبيّهم ، والإمام من يؤتمّ به . فيقال : هاتوا متّبِعِى إبراهيم عليه السلام، هاتوا متّبعى موسى عليه السلام، هاتوا متبعى الشيطان، هاتوا متبعى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم. وقاله قتادة . وقال علىّ رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : «يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامِهم» فقال : "كلٌّ يدعى بإمام زمانهم وكتابِ ربِّهم وسنّةِ نبيِّهم فيقول هاتوا متبعى إبراهيم هاتوا متبعى موسى هاتوا متبعى عيسى هاتوا متبعى محمدا — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعى الشيطان هاتوا متبعى رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة". وقال الحسن وأبو العالية : «بإمامِهم» أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس. فيقال : أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم؛ فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به فى الدنيا : ياحنفىّ، ياشافعىّ، يامعتزلىّ، ياقدرىّ، ونحوه؛ فيتبعونه فى خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ...، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلّى والصوّام، وعكسه الدّفاف[(1)] والنمام . وقال محمد بن كعب : « بإمامِهم » بأمهاتهم . وإمام جمع آمّ . قالت الحكماء : وفى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها — لأجل عيسى . والثانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفى هذا القول نظر؛ فإن فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان" خرّجه مسلم والبخارى . فقوله : "هذه غَدْرة فلان بن فلان"

---

(١) الدفاف : الضارب بالدف . وفى الأصول : « الزفاف » بالزاى المعجمة .

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن فى الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يردّ على من قال : إنما يُدْعَوْن بأسماء أمهاتهم لأن فى ذلك سَتْرًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوّى قول من قال : « بِإِمَامِهِم » بكتابهم . ويقوّيه أيضا قوله : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »(١) . ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل الذى فى شقّ النواة . وقد مضى فى « النساء »(٢) .

قوله تعالى : وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ أى فى الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق . ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿أَعْمَىٰ﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ — إلى — تفضيلا »(٣) . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أُمْهِل فيها وفُسِّح له ووُعِد بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هذه الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله بعثه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « ونحشره يوم القيامة أعمى »(٤) الآيات . وقال : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ »(٥) . وقيل : المعنى فى قوله « فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ » فى جميع الأقوال : أشدّ عَمًى ؛ لأنه من عَمَى القلب ، ولا يقال مثله فى عَمَى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خِلقة بمنزلة

---

(١) آية ١٢ سورة يس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٦٦ وما بعدها .
(٤) آية ١٢٤ سورة طه . (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

اليـد والرِّجْل ، فلم يقل ما أعمــاه كما لا يقال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيــه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعــله عَمِىَ وعَشِىَ . وقال الفراء : حدثنى بالشأم شيخ بصرى أنه سمع العــرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما فى المعــالى لكم ظل ولا ثمــر　*　وفى المخازى لكم أشباح أشياخ
أما الملوك فأنت اليوم ألأمهــم　*　لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّــاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائىّ وخلَف الحرفين « أعمى » و «أعمى» وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثانى . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يعنى أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعــالى : وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

قال ســعيد بن جبير : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا . فحدّث نفسه وقال : " ما علىّ أن أُلِمّ بها بعد أن يَدَعُونى أستلم الحجر والله يعلم أنى لها كاره " فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هــذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فسألوه شَطَطًا وقالوا : متّعنا بآلهتنا ســنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبىّ صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهِى عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خَلَوْا برسول الله صلى عليه وســلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيّدنا يا سيّدنا؛وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون،

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الاية . ومعنى ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أى يزيلونك . يقال : فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهَرَوِىّ . وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى حكم القرآن؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . ﴿ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أى لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحَرِّم وادينا كما حرّمت مكة، شجـرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عذرا لك . ﴿ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لاتخـذوك خليلا، أى والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة ( بالضم ) وهى الصداقة لممايلته لهم . وقيل : « لاتخذوك خليلا » أى فقيرا . مأخوذ من الخَلّة ( بفتح الخاء ) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَـدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِـدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أى على الحق وعصمناك من موافقتهم . ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى تميل . ﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى ركونا قليلا . قال قتادة : لمـا نزلت هـذه الآية قال عليه السلام : " اللّهُمَّ لا تَكِلْنِى إلى نفسى طرفة عين " . وقيل : ظاهر الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسـلم و باطنه إخبار عن ثقيف . والمعنى : و إن كادوا ليركنونك ، أى كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا ؛ كما تقول لرجل : كدت تقتل نفسك، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوىّ . وقيل : ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك مَيل إلى موافقتهم، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيرى . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هـذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعـالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذقناك مثلى عذاب الحياة فى الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »[1] وضعف الشيء مثله مرتين. وقد يكون الضعف النصيب؛ كقوله عز وجل : «لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أى نصيب . وقد تقدّم فى الأعراف[2] .

قوله تعالى : وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية ؛ حسبما تقدّم فى أوّل السورة . قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم ، فإن كنت نبيًّا فآلحق بها ؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك فى قلبه لما يحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غَنْم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك لا يريد إلا الشام ، فلما نزل تبوك نزل « وإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة ، وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج ، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية ، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة ، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ »[3] أى أرض مصر؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[4] يعنى مكة . معناه : همّ أهلها بإخراجه ؛ فلهذا أضاف إليها[5] وقال « أخرجتك » . وقيل : همّ الكفار كلهم أن يستخفوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله ، ولو أخرجوه

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٠ سورة يوسف .
(٤) آية ١٣ سورة محمد . (٥) فى الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يمهلوا، وهو معنى قوله : ﴿ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وقرأ عطاء ابن أبي رَباح « لايُلَبَّثون » الباء مشددة . « خلفك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعـدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائيّ « خلافك » واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ »(١) ومعناه أيضا بعدك؛ قال الشاعر :

عَفَت الديار خـلافهم فكأنمـا * بسط الشَّـواطِبُ بينهن حَصِـيرَا

بسط البواسط؛ في المـاورديّ . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منـه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية . وقيل : « خلفك » بمعنى بعـدك . « وخلافك » بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباريّ . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني — ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعـالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أي يعذَّبون كسنة من قد أرسلنا؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل؛ قاله الفرّاء . وقيل : انتصب على معنى سنّنا سنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقـدير لايلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «إلا قليلا» و يوقف على الأول والثاني . « قبلك من رسلنا » وقف حسن . ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي لاخُلف في وعدها .

قوله تعـالى : أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(١) آية ٨١ سورة التوبة .

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لمـا ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثـله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ »(١) . وتقدم القول فى معنى إقامة الصلاة فى أول سورة البقرة(٢) . وهذه الآية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء فى الدُّلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كبد السماء؛ قاله عمر وابنـه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علمـاء التابعين وغيرهم . الثانى — أن الدلوك هو الغروب؛ قاله علىّ وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب، وروى عن ابن عباس . قال المـاوردىّ : من جعل الدُّلوك اسما لغروبهـا فلأن الإنسـان يدلُك عينيه براحته لتبينّها حالة المغيب ، ومن جعـله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشـدة شعاعها . وقال أبو عبيـد : دلوكها غروبهـا . ودلَكَتْ بَرَاحِ يعنى الشمس؛ أى غابت . وأنشد قُطْرب :

هـذا مُقامُ قَدَمَىْ رَباحِ * ذَبَّب حـتى دَلَكَتْ بَرَاحِ

براح (بفتح الباء) على وزن حَزام وقطام ورَقَاش آسم من أسماء الشمس . ورواه الفـرّاء (بكسر البـاء)(٣) وهو جمـع راحة وهى الكف؛ أى غابت وهو ينظر إليها وقد جعـل كفّه على حاجبه . ومنه قول العَجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا * أدفعهـا بالراح كى تَزَحْلَفَـا

قال آبن الأعرابىّ : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه . قال : والزَّحْلَفة كالدّحرجـة والدفع؛ يقال : زحلفتُـه فتَزَحْلَف . ويقال : دلكت الشـمس إذا غابت . قال ذو الرُّمَّة :

مصابيح ليست باللّواتى تقودها * نجومٌ ولا بالآفـلات الدّوالكِ

---

(١) آية ٩٧ سورة الحجر .	(٢) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .	(٣) أى باء الجر .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — فى اللغـة — فأول الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب . ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها فى حالة مَيل . فذكر الله تعالى الصلوات التى تكون فى حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل فى ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة فى غَسَق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهـذا دلوك كله؛ قاله الأوزاعىّ وأبو حنيفة فى تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعىّ فى حالة الضرورة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ٱبن قَيْس الرُّقَيّات :

إن هـــذا الليل قد غَسَقا * واشتكيْتُ الهَـمّ والأَرَقا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظلّت تجـــود يداها وهى لاهية * حتى إذا جنح الإظلام والغَسق

يقال : غسق الليـل غسوقا . والغَسَق ٱسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت ، تَغْسِق . وغَسَق الجرح غَسَقانا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذّن ، أى أخر المغرب إلى غَسَق الليل . وحكى الفراء : غَسَق الليـل وأغسق ، وظَـلِم وأظلم، ودجا وأدجى ، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش . وكان الربيع بن خُثيم يقول لمؤذنه فى يوم غَيْم : أغسق أغسق . يقول : أخر المغرب حتى يَغسِق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثـــة — اختلف العلماء فى آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيّن فى إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشـمس ، وهو الظـاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه أيضا ، و به قال الثورى . وقال مالك فى الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حىّ وأحمد و إسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبى موسى ، وفيه : ان النبىّ صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب فى اليوم الثانى فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينــة و إمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لمـا قبــله . وزعم ٱبن العربىّ أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله فى موطّئه الذى أقرأه طول عمره وأملاه فى حياته .

والنكتة فى هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى فى النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوًا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر فى تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت : القول بالتّوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندى عن أبى الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَـلّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن و إن كان التاريخ معـلوما ؛ فإن الجمـع ممكن . قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية فى وقت المغرب ، ولذلك ٱتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليهـا فى حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب فى مسجد جمـاعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التّوسـعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض و يصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج . وعبّر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقر عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة فى الصبح قـدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصَّل ، ويليها فى ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة فى المغرب وتوسطها فى العصر والعشاء . وقـد قيل فى العصر : إنهـا تخفَّف كالمغرب . وأما ما ورد فى صحيح مسـلم وغيره من الإطالة فيما استقر فيه التقصير، أو من التقصير فيما استقرت فيه الإطالة ؛ كقراءته فى الفجر المعوذتين — كما رواه النَّسائىّ — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور فى المغـرب ، فمتروك بالعمل . ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه فى العشاء فافتتح سورة البقرة . خرّجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أيها الناس إن منكم منفِّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصـغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" . وقال : "فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ماشاء" . كله مسطور فى صحيح الحديث .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمّى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلمـاء فى القراءة فى الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفذّ فى كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة فى جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب فى ركعة واحدة؛ قاله المُغيرة وسُحْنُون . وعنه أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة . وهو أشـذّ الروايات عنه . وحُكى عن مالك أيضا أنها تجب فى نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعىّ . وعن الأوزاعىّ أيضا وأيوب أنهـا تجب على الإمام والفَـذّ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولى الشافعىّ . وقد مضى فى (الفاتحة)(1) مستوفًى .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وقرآنَ الفجرِ إن قرآن الفَجْرِ كان مشهودًا » قال : "تشهده

(1) راجع جـ ١ ص ١١٧ وما يليها طبعة ثانية أو ثالثة .

ملائكة الليل وملائكة النهار" هذا حديث حسن صحيح . ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهـار في صلاة الصبح " . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ولهذا المعنى يُبَكِّر بهذه الصلاة، فمن لم يبكر لم تشهد صـلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهـذا المعنى أيضا قال مالك والشافعيّ : التغليس بالصبح أفضـل . وقال أبو حنيفـة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ؛ فإن فاته ذلك فالإسفار أَوْلَى من التغليس . وهـذا مخالف لمـا كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس ،وأيضا فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعـــة — استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليـه وسلم : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهـار" على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر" الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ « من » للتبعيض . والفاء في قوله « فتهجّد » ناسـقة على مضمر، أي قم فتهجد . ﴿ به ﴾ أي بالقرآن . والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام، وهجد سهر؛ على الضد . قال الشاعر :

ألا زارتْ وأهلُ مِنًى هجود * وليْت خيـالها بمِنًى يعـود

آخـــر :

ألَا طرقتنا والرفاق هجـود * فباتت بِعَلّاتِ النوال تجود(1)

يعني نيـاما . وهجد وتهجد بمعنًى . وهجّدته أى أنمته ، وهجّدته أى أيقظته . والتهجّد التيقظ بعـد رَقْدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لها . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضى من حديث الحجاج بن عمرو صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد ! إنمـا التهجد الصلاة بعـد رَقْدة ثم الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهجود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سَهِر ، وألقى الهجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذى يُلقِى الهجود الذى هو النـوم عن نفسه . وهـذا الفعل جارٍ مجـرى تحوّب وتحرّج وتأثّم وتحنّث وتقذّر وتنجّس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(2) » معناه تنـدمون ؛ أى تطرحون الفكاهـة عن أنفسكم ، وهى انبساط النفـوس وسرورها . يقال رجل فكِه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى فى الآية : ووقتا من الليل اسْهر به فى صلاة وقراءة .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أى كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء فى تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمتـه ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نافلة لك » أى فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفى هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين : أحدهما — تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة . الثانى — قوله صلى الله عليه وسلم : " خمس صلوات فرضهن الله على العباد " ، وقوله تعالى : " هن خمس وهن خمسون لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ " وهـذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روى عنه عليه السلام :

---

(1) العَلّة ( هنا ) : ما يتعلل به ؛ مثل التَّعِلّة . (2) آية ٦٥ سورة الواقعة .

" ثلاث علىّ فريضة ولأمتى تطوع قيام الليل والوتر والسواك " . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت فى الابتداء واجبــة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعــد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مبيّنا فى سورة « المُزَّمِّل » إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب و يكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليــه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوع بمــا ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة فى الدرجات . وغيره من الأمة تطوعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية ؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة .

الثالثـــة — قوله تعــالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُــودًا ﴾ اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأول — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة ؛ قاله حُذيفة بن اليَمَان . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن النــاس يصيرون يوم القيامة جُثًا [1] كل أمة تتبــع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود . وفى صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج النــاس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذريتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لهــا ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لهــا ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لهــا ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وســلم فأُوتَى فأقول أنالها " وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى قوله : « عسى أن يبعثك ربُّك مقاما محمودا » ســئل عنها قال : " هى الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) جثا ( جمع جُثوة كخطوة وخطا ) أى جماعات .

الرابعـــة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: " أنا سيد ولد آدم ولا فخر ". قال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات : العامة ، وشفاعة فى السبق إلى الجنة ، وشفاعة فى أهل الكبائر . ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط : العامة، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار . وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء . وقال القاضى أبو الفضل عِياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات : العامة. والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب . الثالثة فى قوم من موحِّدِى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومَن شاء الله أن يشفع ويدخلون الجنة . وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنىّ على التحسين والتقبيح . الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين . الخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها ، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل .

الخامســـة — قال القاضى عِياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات . ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ماعرف من دعاء السلف والخلف . روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وآبعثه مقاما محمودا الذى وعدتَه حلّت له شفاعتى يوم القيامة " .

القول الثانى — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهـذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمـد ويشفع . روى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمـد ولا فخر وما من نبىّ يومئـذ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائى" الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبرى عن فرقة، منها مجاهد، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيّه؛ وروت فى ذلك حديثا . وعَضَد الطبرىّ جواز ذلك بشطط من القول، وهو لايخرج إلا على تلطّف فى المعنى، وفيـه بُعْدٌ . ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى، والعـلم يتأوّله . وذكر النقاش عن أبى داود السِّجِسْتَانىّ أنه قال : من أنكر هـذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأوّل القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العـلم : أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعـالى : « وُجُوهٌ يومئـذٍ ناضِرَةٌ . إلى ربِّها ناظِرَةٌ »(١) قال : تنتظر الثواب؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ٱبن شهاب فى حديث التنزيل. وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يُجلسه على العرش . وهـذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلّها والعرشَ قائمـا بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها، بل إظهارا لقـدرته وحكمته، وليُعـرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمـة، وخلق لنفسه عرشا استوى عليـه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء فى الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) آية ٢٢ سورة القيامة .

كما أخبر عن نفسه بلا كَيْف . وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مُخرجا له عن صفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه . وأما قوله فى الإخبار : " معه " فهو بمنزلة قوله : « إن الذين عِند ربك »(١) ، و «رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فى الجَنَّةِ»(٢) ، « وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ »(٣) ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان .

الرابـع — إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه فى ( كتاب التذكرة ) والله الموفق .

السادسـة — اختلف العلماء فى كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود على قولين : أحدهما — أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثانى — أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلّهم فيه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و « عسى» من الله عز وجل واجبة . و « مقاما » نصب على الظرف . أى فى مقام أو إلى مقام . وذكر الطبرى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى". فالمقام الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعالى : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾

قيل : المعنى أمتنى إماتة صدق، وابعثنى يوم القيامة مبعث صدق؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودا » . كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لِيُنجز له

(١) آخر سورة الأعراف . (٢) آية ١١ سورة التحريم . (٣) آخر سورة العنكبوت .

الوعد . وقيل : ادخلني في المأمور وأخرجني من المنهيّ . وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين و إدخاله موضع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت « وقل رب أدخلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبُوك وقد قال المنافقون : « لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »(١) يعني إدخال عز و إخراج نصر إلى مكة . وقيل : المعنى أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوة مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق إذا أمتّني؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله : « أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مباركا »(٢) أي إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهي قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مَدخل » و « مخرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج ؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي . وقال ابن عباس : أدخلني القبر مدخل صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث . وقيل : أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ؛ أي لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل : الآية عامة في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال ، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة . فهي دعاء، ومعناه : رب أصلح لي ورِدْي في كل الأمور وصَدَري . وقوله : ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشعبيّ وعكرمة : أي حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لَيَنْزِعنّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

قوله تعالى : وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

---

(١) آية ٨ سورة المنافقون .	(٢) آية ٢٩ سورة المؤمنون .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخاريّ والترمذيّ عن ابن مسعود قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُباً ، فجعل النبيّ صـلى الله عليه وسـلم يطعنها بمخصرة فى يده — وربما قال بعود — ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " لفظ الترمذيّ . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا فى حديث مسلم « نُصُبًا » . وفى رواية صنما . قال علماؤنا : إنمـا كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون فى يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : " فجعل يطعنها بعود فى يده " يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنما فى وجهه خرّ لقفاه ، أو فى قفاه خرّ لوجهـه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضى عِياض . وقال القشيريّ : فمـا بقى منها صنم إلا خرّ لوجهه ، ثم أَمَر بها فكسرت .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليـل على كسر نُصُب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفى معنى الأصنام الصُّـوَرُ المتَّخَذة من المَدَر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيـه إلا اللهو المنهيّ عنـه . ولا يجوز بيع شيء منـه إلا الأصنام التى تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص ، إذا غُيِّرت عما هى عليـه وصارت نُقـرا[1] أو قطعا فيجوز بيعها والشِّراء بها . قال المهلّب : وما كسر من آلات الباطل وكان فى حبسها بعـد كسرها منفعةٌ فصاحبها أَوْلَى بها مكسورة ؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة فى المـال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضى الله عنه . وقد همّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل فى العقوبة فى المـال مع قوله عليه السلام فى الناقة التى لعنتها صاحبتها :

---

(١) النقرة : السبيكة .

" دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنهـا تأديبا لصاحبتها ، وعقوبة لهـا فيما دعت عليـه بمـا دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبناً شِيب بماء على صاحبه .

الثالثـــة — ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ عيسى بن مريم حكما عادلا فليكسرنّ الصليب وليقتلنّ الخنزير وليضعنّ الجزية ولتتركنّ القلاص[1] فلا يُسعى عليها " الحديث . خرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبيّ صلى الله عليه وسلم الستر الذى فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها و يوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هـذه الصور يعذبون يوم القيامة و يقال لهم : أحيوا ما خلقتم ؛ وحسبك! وسيأتى هـذا المعنى فى « النمـل » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أى الإسلام . وقيل : القرآن ؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قيل الشرك . وقيل الشيطان ؛ قاله مجاهـد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيـه . « وزهق الباطل » : بطـل الباطل . ومن هـذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقـال زَهقت نفسه تَزهَق زهوقا ، وأزهقتها . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أى لا بقاء له ، والحق الذى يثبت .

قوله تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

فيــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « و يُنزِل » بالياء خفيفة ، ورواها المروزىّ عن حفص . و « مِن » لابتـداء الغاية ، و يصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيـه شفاء من القرآن . وفى الخـبر " من لم يَستَشفِ بالقرآن

(١) القلاص ( بكسر القاف جمع القلوص بفتحها ) وهى الناقة الشابة .

فلا شفاه الله ". وأنكر بعض المتأولين أن تكون « من » للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه ان بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعّض؛ فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئا شفاء؛ ما فيه كله شفاء .

الثانيـــة — اختلف العلماء في كونه شـــفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثاني — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرُّقَى والتعوذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدارقطنيّ — عن أبي ســعيد الخُدْريّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سَرِيّة ثلاثين راكبا قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا؛ قال : فلُدِغ ســيد الحيّ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يَرْقِي من العقرب ؟ في رواية ابن قَتّــة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم، ولكن لا أفعــل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمــد لله رب العــالمين » ســبع مرات فبرأ . في رواية سليمان بن قتة عن أبي سعيد : فأفاق وبرأ . فبعث إلينا بالنُّزل وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : "وما يدريك أنها رقية" قلت : يا رســول الله، شيء أُلقِيَ في رُوعِي . قال : "كلوا وأطعمونا من الغنم" خرّجه في كتاب السنن . وخرّج في (كتاب المــدبّج) (١) من حديث السَّرِيّ بن يحيى قال : حدثني المعتمر بن ســليمان عن ليث بن أبي ســليم عن الحسن عن أبي أُمامة عن رســول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : " ينفــع بإذن الله تعــالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحُمّى والنَّفْس أن تكتب بزعفران أو بمشق — يعني المَغْرة — أعوذ بكلمات الله التــامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والغــامّة ومن شر العين اللامّة ومن شر حاسد إذا حســد ومن أبي فَروة وما ولد " . كذا قال، ولم يقل من شر أبي قِتْرة (٢) . العين اللامّة : التي تصيب بسوء . تقول : أُعيذه من كل هامّة لامّة . وأما قوله :

(١) في بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .
(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية إبليس .

أعيــذه من حادثات اللّمة فيقــول : هو الدهر . ويقال الشــدة . والسامة : الخــاصة . يقال : كيف السامة والعامة . والسامة السم . ومن أبي فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربهم عز وجل فقــالوا : وَصَبٌ بأرضنا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فآمسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقيــة محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صَفَدا[(١)] ". ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التى فيها تصريف الرياح وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها ، وخواتيم ســورة البقرة من موضع « لله ما فى السموات وما فى الارض » إلى آخرها ، وعشرا من أوّل « آل عمران » وعشرا من آخرها ، وأوّل آية من النساء ، وأوّل آية من المــائدة ، وأوّل آية من الأنعــام ، وأوّل آية من الأعراف ، والآية التى فى الأعراف « إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّــمَوَاتِ وَالْأَرْضَ[(٢)] » حتى تختم الآية ، والآية التى فى « يونس » من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِــحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ[(٣)] » ، والآية التى فى طه « وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِــحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى[(٤)] » ، وعشرا من أول الصافات ، و « قل هو الله أحد » ، والمعوّذتين . تكتب فى إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حثوات ثم يتوضأ منــه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجى به ثم يصلى ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل ؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام ، قدر ما يكتب فى كل يوم كتابا . فى رواية : ومن شر أبى قِتْرة وما ولد . وقال : " فآمسحوا نواصيكم" ولم يشك . وروى البخارى عن عائشة أن النبى صــلى الله عليه وسلم كان يَنْفُث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أنفُث عليــه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت[(٥)] الزهرى كيف كان ينفث ؟ قال : كان يَنْفُث على يديه ثم يمسح بهما وجهــه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(١) الصفد : العطاء .　　(٢) آية ٥٤　　(٣) آية ٨١　　(٤) آية ٦٩

(٥) السائل هو عروة بن الزبير راوى الحديث .

المعوِّذتين وتَفَـل أو نَفَث . قال أبو بكر بن الأنبارى : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تفَل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فإن يَبْرأ فلم أنفِث عليــه ﴿ وإن يُفْقَـد فحـقَّ له الفُقود

وقال ذو الرُّمّة :

ومِن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحَوْلِ فـوقه ﴿ متى يَحْسُ منــه مائحُ القوم يَتْفُـلِ (١)

أراد ينفخ بريق . وسيأتى ما للعلماء فى النفث فى سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثــة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره الرُّقَى إلا بالمعوِّذات . قال الطبرى : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله فى الدِّين؛ إذ فى نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا وإما منسوخا؛ لقوله عليه السلام فى الفاتحة "ما أدراك أنها رُقية" . وإذا جاز الرق بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما فى الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليه السلام أنه قال : "شـفاء أمتى فى ثلاثٍ آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من مِحجم" . وقال رجاء الغَنَوِىّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعــة — وٱختلف العلماء فى النُّشْرة، وهى أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالمـاء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر؟ قال : لا بأس به، وما ينفع لم يُنه عنه . ولم ير مجاهد أن تُكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين فى إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المـازَرِىّ أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسُمِّيت بذلك لأنهـا تنشر عن صاحبها أى تَحُلّ . ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخَعِىّ، قال النَّخعِىّ : أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه مايجىء به القرآن فهـو

(١) العرمض : الخضرة التى تعلو الماء، وهى الرمض والعلق والطحلب . والماتح (بالهمز) : الذى ينزل البئر فيملأ الدلو . والماتح (بالتاء) : الذى يجذب الدلو .

إلى أن يعقب بلاء أقرب منـه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنسا فقال : ذكروا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر آبن عبدالله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النُّشْرة فقال : "من عمل الشيطان". قال آبن عبد البر . وهذه آثار لينة ولها وجوه محتمله ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما فى كتاب الله وسنة رسوله عليـه السلام ، وعن المداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهى غسالة شيء له فضل ، فهى كوضوء رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالرُّقَى مالم يكن فيـه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل " .

قلت : قد ذكرنا النص فى النشرة مرفوعا وأن ذلك لايكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه .

الخامســـة — قال مالك : لابأس بتعليق الكتب التى فيها أسمـاء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرّك بها إذا لم يُرِد معلِّقُها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن ينزل به شيء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلّق على الصحيح من البهائم أو بنى آدم شيء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلّق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبرء من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذى وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبـد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فَزِع أحدكم فى نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون " . وكان عبد الله يعلّمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليـه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من علّق شيئا وُكِل إليه" . ورأى آبن مسعود على أم ولده تميمة مربوطة فجَبَـذَها جَبْذا شديدا فقطعها وقال : إن آل آبن مسعود لأغنياءُ عن الشّرك ، ثم قال : إن التمائم والرُّقَى والتِّوَلَة من الشرك . قيـل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحبّبت به لزوجها . وروى عن عقبـة بن عامر الجهنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " من علق تميمة فلا أتم الله له

ومن علق وَدَعة فلا وَدَع الله له قلبا". قال الخليل بن أحمد : التميمة قِلادة فيها عُوَذ، والوَدَعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة فى كلام العرب القِلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق فى الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل . فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق وَدَعة — وهى مثلها فى المعنى — فلا ودَع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافى والمبتلى، لا شريك له . فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك فى جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعد نزول البلاء فليس من التمائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأوّل أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكُهّان ؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقا وغير معلق لا يكون شِرْكا، وقوله عليه السلام : "من علّق شيئا وُكِل إليه" فمن علّق القرآن ينبغى أن يتولاه الله ولا يَكِله إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوب إليه والمتوكَّل عليه فى الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيِّب عن التعويذ أيعلّق ؟ قال : إذا كان فى قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن عليّ فى التعويذ يعلق على الصبيان . وكان ابن سِيرين لا يرى بأسا بالشيء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضّل به تعالى من الثواب فى تلاوته؛ كما روى الترمذيّ عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الۤمۤ حرف بل أَلِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ". قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدّم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قتادة : ماجالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »(١) . وقيل : شفاء في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أي هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل: نزلت في الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نأى بجانبه » أي تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه؛ والمعنى : بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل؛ يقال : نأى الشيء أي بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أي بَعُدت . وأنأيته فانتأى؛ أي أبعدته فبَعُد . وتناءَوْا تباعدوا . والمُنْتَأَى : الموضع البعيد . قال النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي ✱ وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النَّوء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس نوءٌ؛ وهو من الأضداد . وقرئ « ونِئى » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامة « نأى » في وزن رأى . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ أي إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة فصلت .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِـهِ ﴾ قال ابن عبـاس : ناحيتـه . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حِدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : جِبلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِل عليه . وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشـكل عنده وأولى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لستَ على شَكْلِى ولا شاكلتى . قال الشاعر :

كل آمرئ يشبهه فعله * ما يفعل المرء فهو أهله

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب . كقوله تعـالى : « وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »(١) . والشِّكل ( بكسر الشـين ) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشكل . وهـذه الأقوال كلّها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على مايشاكل أصله وأخلاقه التى ألفها ، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوِىّ . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « اهدى سبيلا » أى أسرع قبولا . وقيـل : أحسن دينا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصـديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : «قلْ كلٌّ يعمل على شَاكِلتِه» فإنه لايشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . وقال عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيـه آية أرجى وأحسن من قوله تعـالى : « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحِيم . حمٓ . تنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليم . غافِرِ الذنب وقابِلِ التوب شدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّول »(٢) قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للؤمنين . وقال عثمان آبن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ »(٣) . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

---

(١) آية ٥٨ سورة ص . (٢) أول سورة غافر . (٣) آية ٤٩ سورة الحجر .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١) » .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢) » .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخارىّ ومسلم والترمذىّ عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى حَرْث وهو متكئ على عسِيب إذ مَرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح . فقال: ما رابكم (٣) إليه ؟ وقال بعضهم : لايستقبلكم بشىء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح فأمسك النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئا ؛ فعلمتُ أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : « وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخارىّ . وفى مسلم : فأسكتَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا .
وقد ٱختلف الناس فى الروح المسئول عنه ، أىّ الروح هو؟ فقيل : هو جبريل ؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل القرآن ، على ما يأتى بيانه فى آخر الشُّورَى . وقال علىّ بن أبى طالب : هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف لسان ، فى كل لسان سبعون ألف لغة ، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات ، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبرىّ . قال ابن عطية : وما أظن القول يصحّ عن علىّ رضى الله عنه .

قلت : أسند البيهقى أخبرنا أبو زكريا عن أبى إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفى حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علىّ بن أبى طلحة عن ابن

(١) آية ٥٣ سورة الزمر . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام . (٣) أى ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشىء تكرهونه .

عباس فى قوله : « و يسألونك عن الروح » يقول : الروح مَلَك . و بإسناده عن معاوية بن صالح حدّثنى أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سَمُرة عمن حدّثه عن علىّ بن أبى طالب أنه قال فى قوله تعالى : «و يسئلونك عن الروح» قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه . و روى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . وقال الخطابى : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذى يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وكيف آمتزاجه بالجسم وآتصال الحياة به ، وهذا شىء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق كخلق بنى آدم وليسوا ببنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإبهام لقوله : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » ...(١) أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى ، مُبْهِمًا له وتاركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن عِلم حقيقةِ نفسه مع العلم بوجودها . و إذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ آختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هذا هى قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » و رواها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : المراد العَالَم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم » . وقد قالت اليهود للنبىّ صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله فغُلِبوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى بعض الأحاديث : "كُلًّا" يعنى أن المراد بـ « ـما أوتيتم » جميع

(١) مكان هذه الأصفار فى جميع نسخ الأصل : «دليل على خلق الروح» . ولم نر لهذه الجملة فى سياق الكلام معنى.

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك . فقال : "كُلًّا" . وفي هذا المعنى نزلت « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ » (١) . حكى ذلك الطبري رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن ٱثنين وأمسك عن واحدة فهو نبيّ ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي . وقال في الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدويّ وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتّصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أي ولو شئتُ أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي ناصرا يردّه عليك . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأوّل . وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ جعلك سيّد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أَوْحينا إليك » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحْوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

(١) آية ٢٧ سورة لقمان .

شدّاد بن مَعْقِل قال قال عبد الله — يعنى ابن مسعود — : إن هذا القرآن الذى بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم . قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله فى قلوبنا وثبتناه فى مصاحفنا! قال: يسرى عليه فى ليلة واحدة فينزع ما فى القلوب ويذهب ما فى المصاحف ويصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِىّ كدوىّ النحل، فيقول الله ما بالك . فيقول : يارب منك خرجت وإليك أعود، أُتْلَى فلا يُعمل بى، أُتْلَى ولا يعمل بى.

قلت : قد جاء معنى هـذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدرس الإسلام كما يدرس وَشْىُ الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيسرى على كتاب الله تعالى فى ليلة فلا يبقى منه فى الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة" . قال له صِلة (1) : ما تغنى عنهم لا إله إلا الله! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؛ فأعرض عنه حذيفة؛ ثم ردّدها ثلاثا، كل ذلك يُعرِض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلة ! تنجيهم من النار، ثلاثا . خرجه ابن ماجه فى السنن . وقال عبد الله بن عمر : خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس ما هذه الكتب التى تكتبون أ كتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه" قالوا : يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : "من أراد الله به خيرا أبقى فى قلبه لا إله إلا الله" ذكره الثعلبىّ والغزنوىّ وغيرهما فى التفسير .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨)

(1) هو صلة بن زفر العبسى، أحد رجال سند الحديث .

أى عوينا ونصيرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أول الكتاب[(١)]. والحمد لله. و ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم فى «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:

لئن كان ما حُدِّثتِــهِ اليوم صادقا * أَقُم[(٢)] فى نهـار القَيْظ للشمس باديَا

قوله تعـالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَـدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهى وأقاصيص الأوّلين، والجنـة والنار والقيامة . ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ يريد أهـل مكة ، بيّن لهم الحقّ وفتـح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقت تبيّنِ الحق . قال المهدوىّ : ولا حجة للقدرىّ فى قولهم : لا يقال أبى إلا لمن أبَى فِعْل ما هو قادر عليه ؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمـان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل .

قوله تعـالى : وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) رواية خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعمائة : « أصم فى نهار القيظ ... » الخ .

قوله تعــالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ الآية نزلت فى رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبى سفيان والنضر بن الحارث، وأبى جهل وعبد الله بن أبى أمية، وأميّة بن خلف وأبى البَخْتَرِىّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لمـا عجزوا عن معارضــة القرآن ولم يرضَوْا به معجزة، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعــد غروب الشمس عند ظهــر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صــلى الله عليه وســلم — فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذَرُوا فيــه، فبعثوا إليــه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فآتهم، فجاءهم رســول الله صلى الله عليه وســلم وهو يظن أن قد بدَا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو، وكان رســول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم و يَعِزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، و إنا والله ما نعــلم رجلا من العــرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقــد شتمتَ الاباء وعبْت الدين وشتمت الآلهــة وسفّهت الأحلام وفرقت الجماعة، فمـا بَقِىَ أمر قبيح إلا قــد جئته فيما بيننا و بينــك، أوكما قالوا له . فإن كنت إنمـا جئت بهــذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، و إن كنت إنمـا تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، و إن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، و إن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن رَئِيًّا — فربمـا كان ذلك بذلنا أموالنـا فى طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منــه أو نُعذر فيك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مابى ماتقولون ماجئتُ بمـا جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثــنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشــيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربى ونصحتُ لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة و إن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم " أوكما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يامحمد، فإن كنت غير قابل منا شيئا ممـا عرضناه عليــك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقلّ ماء ولا أشــدّ عيشا منا، فَسَلْ لنا ربَّك الذى بعثك بمـا بعثك به، فليسيِّر

عنا هذه الجبال التى قد ضيّقت علينا، وليَبْسُط لنا بلادنا وليخْرِق لنا فيها أنهارا كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيّ بن كلاب ؛ فإنه كان شيخَ صِدْق فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ماسألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه : " مابهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثنى به وقد بلّغتكم ماأرسلتُ به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردّوه علىّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم ". قالوا : فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ! سَلْ ربك أن يبعث معك ملَكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وآسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغى ؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربّه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا — أوكما قال — فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظّكم فى الدنيا والآخرة وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى و بينكم " قالوا : فأسْقِط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل ؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل " قالوا : يا محمد ، فما عَلِم ربّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ماجئتنا به . إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، و إنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، و إنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قَبِيلا . فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له : يامحمد ! عرض عليك

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بهـا منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ماتخوّفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أوكما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وَأَيْمُ اللهِ لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رســول الله صلى الله عليه وســلم إلى أهله حزينا آسِفًا لِمـا فاته ممـا كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولِمـا رأى من مباعدتهم إياه؛ كلّه لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدىّ عن عكرمة عن ٱبن عباس : فأنزل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعول، من نَبَع يَنْبَع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائىّ « تَفْجُرَ لنـا » مخفّفة، وٱختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجّر الأنهار أنه مشدّد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانيــة بعدها الأنهار وهى جمع ، والتّشديد يدل على التكثير . أجيب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . الينبوع عين المـاء، والجمع الينابيع . وقرأ قتادة « أو يكون لك جنة » . ﴿ خِلَالَهَا ﴾ أى وسطها . ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهـد « أو يَسْقُطَ السماءُ » على إسناد الفعل إلى السماء . ﴿ كِسَفًا ﴾ قطعا؛ عن ابن عباس وغيره . والكِسَف (بفتح السين) جمع كِسفة، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « كِسْفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحدا، ومن قرأ كِسَفًا جعـله جمعا . قال المهدوىّ : ومن أسـكن السين جاز أن يكون جمـع كِسْفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشىء إذا غطّيته . فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهرىّ : الكِسْفة القطعة من الشىء؛ يقال: أعطنى كِسْفة من ثوبك ، والجمـع كِسْف وكِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي معاينـة؛ عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهـد : هو جمع القبيلة؛ أي بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ أي من ذهب؛ عن ابن عبـاس وغيره . وأصله الزينـة . والمُزَخْرَف المزيّن . وزخارف المـاء طرائقه . وقال مجاهـد : كنت لا أدرى ما الزُّخْرُف حتى رأيته في قراءة ابن مسعود « بيتٌ مِن ذَهَبٍ » أي نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى . ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي تصعد؛ يقال : رَقِيت في السُّلَّم أرْقَى رَقْياً ورُقِيًّا إذا صعِدت . وارتقيت مثله . ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي من أجل رُقِيِّك ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مُضِياً ، وهوى يهوى هُوِياً ، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ أي كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »(١) . ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أي قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يُعترض عليـه في فعل . وقيل : هـذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون «قل» على الأمر؛ أي قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أي ما أنا ﴿ إِلَّا بَشَرًا رَسُـولًا ﴾ أتبع ما يوحَى إليّ من ربّى ، ويفعل الله ما يشاء من هـذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا ، وغلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتمونى ، وليس لى أن أتخـيّر على ربى ، ولم تكن الرسـل قبْلى يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلى سبيلهم ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم ، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها ، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل مايقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل ، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أومن حتى أُوتَى بآية خلاف ماطلب غيرى . وهذا يـؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس . وإنما التدبير إلى الله تعالى .

---

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ يعنى الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه . ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ جهلا منهم . ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ أى الله أجل من أن يكون رسوله من البشر . فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد ، وغفلوا عن المعجزة . فـ« أَنْ » الأولى فى محل نصب بإسقاط حرف الخفض . و« أنْ » الثانية فى محل رفع بـ« منع » أى وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعالى : قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعالى أن المَلَك إنما يُرسل إلى الملائكة ؛ لأنه لو أرسل ملكا إلى الآدميّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التى خُلق عليها ، و إنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » (١) وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنتُ إلا بشرا رسولا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله . فنزل « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا » .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ أى لو هداهم الله لاهتدوا . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى لايهديهم أحد . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل فى الدنيا بمن يبالَغ فى هَوانه وتعذيبه . وهـذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يا رسـول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهـه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يُمْشِيَه على وجهـه يوم القيامة " : قال قتادة حين بلغه : بَلَى وعِزّةِ رَبِّنـا . أخرجه البخارىّ ومسلم . وحسـبك . ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أى عُمْىٌ عما يسرّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هـذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم فى النار، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»[(١)]، وتكلموا؛ لقوله تعالى : « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا »[(٢)]، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »[(٣)] . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[(٤)] صاروا عُمْيًا لايبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون . وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى مستقرّهم ومقامهم . ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) آية ٥٣ سورة الكهف . (٢) آية ١٣ سورة الفرقان . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طَفئت، وأخبيتُها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تتلهب . وسكون التهابها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تَخْبُو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »(1) .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقديم وتأخير، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدّة قيامهم فى الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شك فيه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغى أن يُشَكّ فيه .

قوله تعالى : قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(1) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أى خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النعم، وهذا أعم . ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم : « لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا » حتى نتوسّع فى المعيشة . أى لو توسعتم لبخلتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته . الثانى — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى فى وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق فى هـذه الآية بمعنى الفقر ؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغـة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ أى بخيلا مضيقا . يقال : قَتَر على عياله يَقْتِر و يَقْتُر قَتْراً وقُتُورا إذا ضيق عليهم فى النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات . وآختلف فى هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت فى المشركين خاصّة؛ قاله الحسن . والثـانى — أنها عامة، وهو قول الجمهور؛ وذكره المـاوردىّ .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ آختلف فى هذه الآيات ؛ فقيل : هى بمعنى آيات الكتاب ؛ كما روى الترمذىّ والنسائىّ عن صَفوان بن عَسّال المُرادىّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبىّ نسأله ؛ فقال : لا تقل له نبىّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تَسْرِقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تَفِرّوا من الزحف — شك شعبة — وعليكم [يا معشر] اليهود خاصّـةً ألا تعدوا فى السبت “ فقبلا يديه ورجليـه وقالا : نشهد أنك نبىّ . قال :

"فما يمنعكما أن تسلما" قالا : إن داود دعا الله ألا يزال فى ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى فى البقرة[1] . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصّلات . وقال الحسن والشعبيّ : الخمس المذكورة فى «الأعراف»[2]؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون . وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هى الخمس التى فى « الأعراف » والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم . وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله .

﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدّم بيانه فى يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة مايقول محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ﴾ أى ساحرا بغرائب أفعالك؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضع الفاعل؛ كما تقول : هذا مشئوم وميمون، أى شائم ويامن . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا؛ وقد تقدّم . وعن ابن عباس وأبى نَهِيك أنهما قرأا « فَسَأَلَ بَنِي إِسرائيل » على الخبر؛ أى سأل موسى فرعونَ أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

## قوله تعالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ ﴾ يعنى الآيات التسع . و « أنزل » بمعنى أوجد . ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٦٧

وقراءة العامة « علمتَ » بفتح التاء ، خطابا لفرعون . وقرأ الكسائى بضم التاء ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه ؛ وقال : والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذى علم ، فبلغت ابنَ عباس فقال : إنها « لقد علمتَ » ، واحتج بقوله تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا »(١) . ونسب فرعون إلى العناد . وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى الذى احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : علمت أنا ، وهو الرسول الداعى ، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن علىّ لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هى عن كُلثوم المرادىّ وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائى . وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض . وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون فى يوم شاتٍ وعليه قطيفة له ، فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان ، فرأى فرعون جانبى البيت بين فُقْمَيْهَا ، ففزع وأحدث فى قطيفته . ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق . والثبور : الهلاك والخسران أيضا . قال الكُمَيْت :

ورأتْ قُضاعة فى الأيا * مِن رأىَ مَثْبُورٍ وثابر

أى مخسور وخاسر ، يعنى فى انتسابها إلى اليمن . وقيل : ملعونا . رواه المِنْهال عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تَغْلِب . وأنشد :

يا قومنا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهًا * إنّ السَّفاه وإن البَغْىَ مثبورُ

أى ملعون . وقال ميمون بن مِهران عن ابن عباس : « مثبورا » ناقص العقل . ونظر المأمون رجلا فقال له : يامثبور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل : مثبور ؛ فسألته فقال : حدثنى ميمون بن مِهران ... فذكره . وقال قتادة هالكا . وعنه أيضا والحسن ومجاهد : مهلكا . والثُّبُور : الهلاك ؛ يقال : ثَبَرَ الله العدوّ ثبورا أهلكه . وقيل : ممنوعا

(١) آية ١٤ سورة النمل .

من الخير . حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يَثْبُره ثَبْراً . قال ابن الزِّبَعْــرَى :

إذ أُجارِى الشيطان فى سَنَن الغَـ * ـىِّ ومن مال مَيْـلَه مثبور

الضحاك : «مثبورا» مسحورا . ردّ عليه مثل ما قال له بآختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : « مثبورا » مخبولا لا عقل له .

قوله تعـالى : فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إغراقه ﴿ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ آسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشأم ومصر . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا يحاز أحد منكم إلى قبيلته وحَيّه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتّى . والمعنى واحد . قال الجوهرى : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقـال : جاء القوم بلَفّهم ولفِيفهم، أى وأخلاطهم . وقوله تعـالى « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لَفِيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وفلان لفيف فلان أى صديقـه . قال الأصمعى : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبى : «فإذا جاء وعد الآخرة» يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء .

قوله تعـالى : وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع الى القرآن . ووجه التكرير فى قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأوّل : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثانى : ونزل وفيه الحق؛ كقوله خرج بثيابه ، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء فى «وبالحق» الأوّل بمعنى مع ، أى مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسـيفه أى مع سـيفه . « وبِٱلحق نزل » أى بمحمد صـلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه؛ كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل .

قوله تعـالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآنا» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس « فَرَقناه » بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقرأ ٱبن عباس وعليّ وابن مسعود وأُبَيّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشّعْبِيّ « فرّقناه » بالتشديد، أى أنزلناه شيئا بعد شيء لا جملةً واحدة؛ إلا أن فى قراءة ابن مسعود وأُبَيّ «فرقناه عليك» .

واختلف فى كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل : فى خمس وعشرين سنة . ابن عبـاس : فى ثلاث وعشرين . أنس : فى عشريـن . وهذا بحسب الخلاف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا فى «البقرة» . ﴿ عَلَى مُكْثٍ ﴾ أى تطاولٍ فى المدّة شيئا بعد شيء . ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أى أنزلناه آية آية وسورةً سورة . وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْث» أى على ترسّل فى التلاوة وترتيـل؛ قاله مجاهد وٱبن عباس وابن جريج . فيعطى القـارئ القراءة حقّها من

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد[1] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مُكْث » إلا ابن مُحَيْصن فإنه قرأ « مَكْث » بفتح الميم . ويقال . مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكْث » على تثبّت وترسّل .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أى أنزلناه نجمًا بعد نجم[2]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

قوله تعـالى : قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ فى قول ابن جُرَيج وغيره . قال ابن جُرَيج : معنى « إذا يتلى عليهم » كتابهم . وقيـل القرآن . ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وقيل : هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبىّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل وورقة بن نَوْفل . وعلى هـذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمّةُ محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْلِه » . ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى القرآن فى قول مجـاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : «سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولا» . وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليـه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لا محـالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبـله

(١) فى نسخ الأصل : « المؤدى » . (٢) أى نزل آية آية .

محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في « قبله » عائد على القرآن حسب الضمير في قوله « قل آمنوا به » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم، واستأنف ذكر القرآن في قوله : « إذا يتلى عليهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٠٨)

دليل على جواز التسبيح في السجود . وفي صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده وركوعه "سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي" .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١٠٩)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل . وفي مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال : من أوتي من العلم ما لم يبكه لخليق ألا يكون أوتي علما؛ لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبري أيضا . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللحيين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللحى؛ أي يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على؛ تقول سقط لفيه أي على فيه . وقال ابن عباس : «ويخرون للأذقان سجدا» أي للوجوه، وإنما خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان . قال ابن خويزمنداد : ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه؛ فيقال : خر لوجهه ساجدا وإن كان لم يسجد على خده ولا عينه . ألا ترى إلى قوله :

* فخر صريعا لليدين وللفم *

فإنما أراد : خر صريعا على وجهه ويديه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليـل على جواز البكاء فى الصـلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته فى دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت الْبُنَانِيّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبيّ صـلى الله عليه وسلم وهو يصـلى وبجوفه أَزِيز كأزيز الْمِرْجل من البكاء . وفى كتاب أبى داود : وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

الثالثــة — واختلف الفقهاء فى الأنين؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثورى . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنحُ والأنين والنفخ لا يقطع الصـلاة . وقال ابن القاسم : يقطع . وقال الشـافعيّ : إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصـلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبى يوسف أن صـلاته فى ذلك كلّه تامةٌ ؛ لأنه لا يخـلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعــة — قوله تعـالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ تقـدّم القـول فى الخشـوع فى « البقرة »(١) ويأتى .

قوله تعـالى : قُـلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَـلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَـرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَـبِيلًا (١١٠)

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا اللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ سبب نزول هـذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يدعو "يا ألله يا رحمن" فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجّد رسول الله صـلى الله عليه وسلم ليلةً فقال فى دعائه : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

من المشركين ، وكان باليمـامة رجل يسمى الرحمن، فقال ذلك السـامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمـامة . فنزلت الآية مبيِّنة أنهما اسمان لمسمًّى واحد ؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك . وقيـل : كانوا يكتبون فى صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ »(١) فكتب رسول الله صـلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هـذا الرحيم نعرفه فما الرحمن؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسما هو فى التوراة كثير ، يعنون الرحمن؛ فنزلت الآية . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى » أى التى تقتضى أفضـل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسنُ الأسماء إنمـا يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنصّ عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسانا شريفة ، وهى بتوقيف لا يصح وضع اسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبما بيناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول — ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسـلم مُتَوارٍ بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَـبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعـالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَـا » عن أصحابك . أسمعهـم القرآن ولا تجهـر ذلك الجهر . ﴿ وَٱبْتَـغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخارىّ ومسلم والترمذىّ وغيرهم . واللفظ لمسلم . والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا بَرَد : خفت . قال الشاعر :

لم يبـق إلا نَفَس خافت * ومُقْـلَةٌ إنسانهـا باهت
رَثَى لهـا الشامت مما بها * ياوَيْحَ من يَرْثِى له الشّامت

(١) آية ٣٠ سورة النمل .

الثـانى — ما رواه مسـلم أيضا عن عائشة فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها » قالت : أنزل هذا فى الدعاء .

الثـالث — قال ابن سِيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهّدهم فنزلت الآية فى ذلك .

قلت : وعلى هـذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقـد قال ابن مسعود : من السّنة أن تخفى التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابــع — ما روى عن ابن سِيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنـه كان يُسِر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما فى ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنمـا أناجى ربى ، وهو يعـلم حاجتى إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوَسْنان ؛ فلما نزلت هـذه الآية قيل لأبى بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبرى وغيره .

الخامس — ما روى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوىّ . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة فى النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلى مخير فى الجهر والسر فى الليل والنهار، وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها فى القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لا ترائى بصلاتك تحسّنها فى العلانية ولا تسيئها فى السر . وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانيــة — عبّر تعـالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصـلاة فى قوله : « وقرآن الفجـر إن قرآن الفجـر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهى من جملة أجزائها ؛ فعبر بالجزء عن الجملة و بالجملة عن الجزء على عادة العرب فى المجاز وهو كثير ؛ ومنه الحديث الصحيح : " قَسَمتُ الصلاة بينى و بين عبدى " أى قراءة الفاتحة على ما تقدّم .

قوله تعـالى : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم أفذاذا : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له فى ملكه ولا فى عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولِيٌّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ » يعنى لم يُذَلّ فيحتاج إلى وَلِيّ ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى عظّمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شيء . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء * محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى الصلاة قال : " الله أكبر " وقد تقدّم أوّل الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هى خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبدالله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفى الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وقل الحمد لله الذى » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتَخِرّ الجبال هَدًّا " . وجاء فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحى الذى لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده .

# تفســير ســورة الكهف

وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة أن أوّل السورة نزل بالمدينة إلى قوله « جُرُزًا »[1] ، والأوّل أصح . وروى فى فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعْطِىَ نورا بين السماء والأرض ووُقِىَ بهـا فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أُدلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك مَلأ عِظَمُها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك" . قالوا : بلى يا رسول الله؟ قال : "سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووُقِىَ فتنة الدجال" ذكره الثعلبيّ ، والمهدوِى أيضا بمعناه . وفى مسند الدّارِمِىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال : من قرأ سورة الكهف ليـلة الجمعة أضـاء له من النور فيما بينـه وبين البيت العتيق . وفى صحيح مسلم عن أبى الدّرْدَاء أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : "من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصم من الدجال" . وفى رواية "من آخر الكهف" . وفى مسلم أيضا من حديث النواس بن سِمْعان "فمن أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" . وذكره الثعلبىّ . قال : سَمُرة بن جُنْدُب قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قرأ عشر آيات من ســورة الكهف حِفْظًا لم تضره فتنة الدجال" . ومن قرأ السورة كلهـا دخل الجنـــة .

قوله تعـالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبى مُعَيْط إلى أحبار يهودَ وقالوا لهما :

(١) آيـــة ٨

سَلاهم عن محمد وصِفَا لهم صِفَته وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووَصَفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب . وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نَبَؤه . وسلوه عن الروح ، ماهي ؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش ! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أَمَرُونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتم عنه غدا" ولم يستثن[(1)] . فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليه في ذلك وَحْيًا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف[(2)] أهل مكة وقالوا : وَعَدَنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ؛ وحتى أحزن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجلِ الطواف والروح . قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " لقد احتبست عني

(1) أي لم يقل — صلى الله عليه وسلم — إن شاء الله .　　(2) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن .

يا جبريل حتى سُـؤت ظنًّا" فقال له جبريل : « وما نتنزّلُ إلّا بأمرِ ربّك له ما بيْنَ أيدينا وَمَا خَلفَنا وما بيْنَ ذلك وما كانَ ربُّك نَسِـيًّا »(١) ، فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذِكْر نبوّة رسـوله صلى الله عليه وسـلم لمـا أنكروا عليـه من ذلك فقال : « الحمـد لله الذى أنزل على عبده الكتاب» يعنى محمدا ، إنك رسول منّى ، أى تحقيق لمـا سألوا عنه من نبوّتك . « ولَمْ يجعَـلْ لَهُ عِوجًا قيِّمًا » أى معتدلًا لا اختلاف فيه . « لِيُنْـذِرَ بأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ » أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وعذابا أليمـا فى الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الصّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسنًا مَاكِثِينَ فِيـهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئتَ به مما كذّبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « ويُنْذِرَ الذين قالوا اتّخذ اللهُ وَلَدًا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنـات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ولَا لِآبائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهـم وعَيْبَ دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَـةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إنْ يَقُولُونَ إلّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِـعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثارِهِمْ إنْ لم يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مُهْلِك نفسك ، فيما حدّثنى أبو عبيدة . قال ذو الرُّمّة :

ألا أيّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه * بشىء نَحَتْـه عن يَدَيْه المَقادِرُ(٢)

وجمعها باخعون وبَخَعة . وهـذا البيت فى قصيدة له . وتقول العرب : قد بَخَعْتُ له نُصْحِى ونَفْسى ، أى جَهَدت له . « إنّا جعلنا ما على الأرض زِينَةً لها لِنَبْـلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَـلًا » قال ابن إسحاق : أى أيّهم أتبع لأمرى وأعمـل بطاعتى . « وإنّا لجاعلون ما عليها صَعِيدًا جُرُزًا » أى الأرض ، وإن ما عليها لفانٍ وزائل ، وإن المرجع إلىّ فأجْزى كلًّا بعمله ؛ فلا تأس ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسـمع فيها . قال ابن هشام : الصّعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعُد . قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْيًا صغيرا :

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) مطلعها :

لِمَيَّةَ أطلال بحُزْوَى دوائر * عَفَتْها السوافى بعدنا والمواطر

كأنه بالضُّحا تَرمي الصعيدَ به * دبّابةٌ في عِظام الرأس خُرْطومُ (١)

وهذا البيت في قصيدة له (٢). والصعيد أيضا : الطريق ، وقد جاء في الحديث : "إياكم والقعودَ على الصُّعُدات" يريد الطرق . والجُرُز : الأرض التي لا تنبت شيئا ، وجمعها أجراز . ويقال : سَنَةٌ جُرُز وسِنُون أجراز ؛ وهي التي لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جُدوبة ويبس وشِدّة . قال ذو الرمّة يصف إبلا :

طَوَى النَّحْزُ والأجراز ما في بطونها * فما بَقِيتْ إلا الضّلوع الجراشِعُ (٣)

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحابَ الْكَهْفِ والرَّقيم كانوا مِن آياتنا عَجَبًا » أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حججي ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذي رُقِم بخبرهم ، وجمعه رُقُم . قال العجّاج :

* ومُسْتَقَرّ المصحف المُرَقَّم *

وهذا البيت في أُرْجوزة له (٤) . قال ابن إسحاق : ثم قال « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا على آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » . ثم قال : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » أي بصدق الخبر « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أي لم يشركوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : والشَّطَط الغُلُوّ ومجاوزة الحق . قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزَّيْت والفُتُلُ

---

(١) يعني بالدبابة : الخمر . والخرطوم : الخمر وصفوتها .　(٢) مطلعها :

أعن ترسَّمتَ من خرقاء منزلة * ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٣) النحز : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ؛ الواحد جرشع .　(٤) مطلعها :

يا دار سَلْمى يا آسلمي ثم آسلَمي * بسَمْسَم أو عن يمين سَمْسَم

وهذا البيت فى قصيدة له . قال ابن إسحاق[1] : « هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ » . قال ابن هشام : تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر . وقال أبو الزحف الكُلَيْبِيّ[2] يصف بلدا :

جَذْبُ[3] المُنَدَّى عن هَوانَا أَزْوَرُ * يُنْضِى المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان[4] البيتان فى أرجوزة له . و« تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . قال ذو الرُّمَّة :

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضن أقواز مُشْرِفٍ * شِمالا وعن أيمانهن الفوارسُ[5]

وهذا البيت فى قصيدة[6] له . والفَجْوة : السَّعة، وجمعها الفجاء . قال الشاعر :

ألبستَ قومَك مَخْزاة ومنقصةً * حتى أُبيحوا وحَلُّوا فَجْوة الدار

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم فى صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

---

(١) مطلعها : ودّع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) فى اللسان مادة « سمهدر » أنه أبو الزحف الكليني . واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله : « قوله الكليني نسبة لكلين كأمير بلدة بالرى » . ومما يقوى أنه الكليبي ( بالباء ) ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفى ابن عم جرير الشاعر . ومن البين أن جريرا من بنى كليب . (٣) قبله :

* ودون لَيلَى بلد سَمَهْدَرُ *

وبلد سمهدر : بعيد مضلة واسع . والمندّى : حيث يرتع ساعة من النهار . والأزور : الطريق المعوج . وأنضى البعير : هزله بكثرة السير . والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل ، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع . والعشنزر : الشديد .

(٤) يعنى بالبيتين هنا شطرى الرجز .

(٥) القوز ( بالفتح ) : العالى من الرمل كأنه جبل . والفوارس : رمال بالدهناء . (٦) مطلعها :

أم تسأل اليوم الرسوم الدوارس * بحُزْوَى وهل تدرى القفار البسابسُ

الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبسى واسمه عبد بن وهب[(١)] :

بأرضٍ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها * علىّ ومعـروفى بها غير مُنْكَرِ

وهـذا البيت فى أبيات له . والوصيد أيضا الفناء ، وجمعه وصائد ووُصُـد ووُصْدان . « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا — إلى قوله — الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان والملك منهـم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا . سيقولون » يعنى أحبـار اليهود الذين أمروهم بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ » أى لا تكابرهم . « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْـدِيَنِى رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـذَا رَشَدًا » أى لا تقولنّ لشىء سألوك عنه كما قلت فى هـذا إنى مخبركم غدا ، واستثن مشيئة الله ، واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهـدينى ربّى لخبر ما سألتمونى عنه رَشدا ، فإنك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك . « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا » أى سيقولون ذلك . « قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَـا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِـعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا » أى لم يخف عليه شىء مما سألوك عنه .

قلت : هـذا ما وقع فى السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه[(٢)] . ويأتى خبر ذى القرنين ، ثم نعود إلى أوّل السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائىّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأوّلين أن فى أوّل هذه السورة تقديما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجا . و « قَيِّماً » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قَيِّماً . وقول الضحاك فيه حُسْن ، وأن

(١) فى سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .
(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوربا ، ج ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبى .

المعنى : مستقيم[١] ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيما » على الكتب السابقة يصدّقها . وقيل : « قَيِّماً » بالحجج أبدا . « عِوَجًا » مفعول به ؛ والعِوج ( بكسر العين ) فى الدِّين والرأى والأمر والطريق . و بفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار ؛ وقد تقدّم[٢] . وليس فى القرآن عِوج ، أى عيب ، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلافًا كَثِيراً[٣] » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا ؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ[٤]» قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عِوَجا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودّى للصديق تكرُّمًا * ولا خير فيمن كان فى الودّ أعْوَجَا

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ أى لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار، أى لينذر الكافرين عقاب الله . وهذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدْنه » باسكان الدال و إشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . الباقون « لدُنْهُ » بضم الدال و إسكان النون وضم الهاء . قال الجوهرى : وفى « لدن » ثلاث لغات : لَدُن ، ولَدَى ، ولَدُ . وقال :

* مِن لَدُ لَحْيَيْه إلى مُنْحُوره[٥] *

المُنْحُور لغة فى المَنْحَر .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهى الجنة . ﴿ مَاكِثِينَ ﴾ دائمين . ﴿ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لا إلى غاية . وإن حملتَ التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى « بأن » . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدِّى إلى الجنة .

---

(١) أى معنى قوله «قيما» . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٢ سورة النساء راجع جـ ٥ ص ٢٨٨ (٤) آية ٢٨ سورة الزمر . (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث . وصدره كما فى اللسان :

* يستوعب البوعين من جريره *

والمنحور ( بالحاء المهملة وضم الميم ) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهرى واللسان مادة « نخر ، ولدن » بالخاء المعجمة ؛ وهو الأنف . وقد استدرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبويه « الى منحوره » بالحاء . وصف الشاعر بعيرا أو فرسا بطول العنق ؛ فجعله يستوعب من حبله الذى يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره . والبوع : الباع . والجرير : الحبل .

قوله تعالى : وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار فى أول السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ «من» صلة ، أى ماهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أى أسلافهم . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ «كلمة» نصب على البيان ؛ أى كبرت تلك الكلمة كلمةً . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق «كلمةٌ» بالرفع ؛ أى عظمت كلمة ؛ يعنى قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشىء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسنّ . ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ أى ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ « باخع » أى مُهلك وقاتل ؛ وقد تقدّم . « آثارِهِمْ » جمع أثَر ، ويقال إثْر . والمعنى : على أثر تولّيهم و إعراضهم عنك . ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أى القرآن . ﴿ أَسَفًا ﴾ أى حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ « ما » و « زينــةً » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه . وقال ابن جُبير عن ابن عباس : أراد بالزينــة الرجال ؛ قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهـا » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النِّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب . والقول بالعموم أَوْلى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط فى التسلية؛ أى لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك آمتحانا واختبارا لأهلها؛ فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانيــة — معنى هــذه الآية ينظر إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الدنيـا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيهـا فينظر كيف تعملون" . وقوله صلى الله عليه وسلم : "إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخْـرِج الله لكم من زَهرة الدنيا" قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : "بركات الأرض" خرجهما مسـلم وغيره من حديث أبى سـعيد الخُدْرِىّ . والمعنى : أن الدنيا مستطابة فى ذوقها معجبة فى منظرها كالثمر المُسْتَحْلَى المُعْجِب المرأى ؛ فآبتلى الله بهـا عباده لينظر أيّهم أحسن عملا . أى من أزهد فيها وأترك لهـا ؛ ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زيّنــه الله إلا [ أن ] يعينــه على ذلك . ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخارى : اللَّهُمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بمـا زيّنته لنا ، اللَّهُمّ إنى أسألك أن أنفقه فى حقه . فدعا الله أن يعينه على إنفاقه فى حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : "فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيــه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذى يأكل ولا يشبع" . وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بمـا يحصل له منها بل همّتــه جمعها ؛ وذلك لعــدم الفهم عن الله تعـالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدمَ السلامة غالبة ، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه

الله بما آتاه . وقال ابن عطية : كان أبي رضي الله عنه يقول في قوله « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذٌ بحقّ و إنفاقٌ في حق مع الإيمان ، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه .

قلت : هذا قول حسن ، وجيز في ألفاظه بليغ في معناه ، وقد جمعه النبيّ صلى الله عليه وسلم في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثَّقَفِيّ لما قال : يارسول الله ، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — في رواية : غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " خرّجه مسلم . وقال سفيان الثّورِيّ : « أحسن عملا » أزهدهم فيها . وكذلك قال أبو عصام العسقلاني : « أحسن عملا » أترك لها . وقد اختلفت عبارات العلماء في الزهد ؛ فقال قوم : قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء ؛ قاله سفيان الثّورِيّ . قال علماؤنا : وصدق رضي الله عنه ! فإن من قَصُر أملُه لم يتأنّق في المطعومات ولا يتفنّن في الملبوسات ، وأخذ من الدنيا ما تيسّر ، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ . وقال قوم : بُغْضُ المحمدة وحُبّ الثناء . وهو قول الأوزاعِيّ ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد ؛ أحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه . وهو قول فُضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس ، والزهدُ في الدنيا الزهد في لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليه من أخذها ؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك ؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت . والقول الأوّل يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعالى : وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

تقدّم بيانه (١) . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به ؛ كأنه قُطع نباته . والجَرْز : القطع ؛ ومنه سنة جُرُز . قال الراجز :

* قد جَرَفَتْهنّ السُّنونُ الأَجْرَاز *

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء .

والأرض الجُرُز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعني يوم القيامة، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتَر فيها . النحاس : والجرز في اللغــة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : يقال جَرِزَت الأرضُ تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجُرُز[1] .

قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنهـا بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام في لعلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبري : وهو تقرير للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهـد وقتادة وابن إسحاق . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْية فُقِدوا ، وعن ذي القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوَحْي على ما تقدّم . فلمـا نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرَّقِيم كانوا من آياتنا عجبا ؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا ، بل في آياتنا ماهو أعجب من خبرهم . الكلبي : خَلْقُ السموات والأرض أعجبُ من خبرهم . الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجُنيد : شأنك في الإسراء أعجب . المـاورديّ : معنى الكلام النفي ؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : النَّقْب المتّسع في الجبـل ؛ وما لم يتّسع فهـو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القـرآن أعلمه إلا أربعـة : غِسْـلين وحَنَان والأوّاه والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقـال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

(١) في الكلمة أربع لغات : جُرُز، جُرْز، جَرْز، جَرَز .

منهـا . وقال مجاهد : الرقيم وادٍ . وقال السّدى : الرقيم الصخرة التى كانت على الكهف . وقال ابن زيد : الرقيم كتاب عَمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصــته . وقالت فرقة : الرقيم كتاب فى لوح من نُحاس . وقال ابن عباس : فى لوح من رَصاص كُتب فيــه القوم الكفارُ الذين فر الفتية منهم قصتَهم وجعلوها تاريخا لهم ؛ ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، و بين من كانوا . وكذا قال الفــراء، قال : الرقيم لوح من رَصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم وممن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرخين للحوادث، وذلك من نبــل المملكة ؛ وهو أمر مفيد . وهــذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم ؛ ومنه كتاب مرقوم . ومنــه الأرقم لتخطيطه . ومنــه رَقْمة الوادى ؛ أى مكان جَرْيِ المــاء وانعطافه . وما روى عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كَعْب . والقول الثانى يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده . وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب الكهف فقال : إن الفتيــة فُقِدوا فطلبهم أهــلوهم فلم يجــدوهم فرُفع ذلك إلى الملك فقال : ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله فى خِزانته؛ فذلك اللوح هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنَيْن كانا فى بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم فى لوح من رصاص ثم جعلاه فى تابوت من نُحاس وجعلاه فى البنيان؛ فالله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيــه الشرع الذى تمســكوا به من دين عيسى عليــه السلام . وقال النقاش عن قَتــادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشَّعْبىّ : الرقيم كلبهم . وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذى أقامه الخَضِر . وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذى انطبق عليهم؛ فذكر كلٌّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفى هــذا خبر معروف أخرجه الصحيحان(١)، وإليــه نحا البخارى . وقال قوم : أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشىء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة بالروم فيها غار فيــه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هــذا هم

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٨ ص ٨٩ طبع الاستانة . وشرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١٧، جـ ٥ ص ٥٠٩ وجـ ٩ ص ٥ طبع بولاق .

فِتْيَة آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف . والله أعلم . وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف ؛ مأخوذ من رَقْمة الوادي وهي موضع المـاء ؛ يقال : عليك بالرَّقْمة ودع الضِّفّة ؛ ذكره الغزنوي . قال ابن عطية : وبالشام على ماسمعت به من ناس كثير [ كهف ] فيه موتى ، يزعم مجاوروه أنهـم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبنـاء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة . وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشة كهف فيـه موتى ومعهم كلبٌ رِمّة ، وأكثرهم قد تجرد لحمه وبعضهم متماسك ، وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة[1] . ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف ، دخلتُ إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بنـاء رُومي يسمى الرقيم ، كأنه قصر مُخْلَق قد بقي بعض جدرانه ، وهو في فلاة من الأرض خَرِبة ، وبأعلى غَرناطة مما يلي القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيُوس ، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها .

قلت : ماذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنمـا هم غيرهم ؛ لأن الله تعـالى يقول في حق أصحاب الكهف : « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِـمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُـمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًـا » . وقال ابن عباس لمعاوية لمـا أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ؛ وسيأتي في آخر القصة . وقال مجاهد في قوله « كانوا من آياتنا عَجَباً » قال : هم عَجَبٌ . كذا روى ابن جُريج عنه ؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون عنـده أنهم عَجَب . وروى ابن نجيح عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعـالى : إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَـةُ إِلَى ٱلْـكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَـا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ رُوي أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر ، ويقـال فيه دقينوس . وروى أنهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين

(١) الأثارة : البقية .

بالذهب ذوى ذوائب، وهم من الروم واتبعـوا دين عيسى . وقيـل : كانوا قبـل عيسى ، والله أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس . وقيل هى طَرَسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًّا، فرُفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا، ومرُّوا براعٍ معه كلب فتبعهم فآوَوْا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا؛ فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا فى دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش أو من مؤمنى الأمم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرُفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهـم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضرهم الملك إلى مجلسـه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهتـه، وتوعّدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روى: « رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض — إلى قوله — وإذِ آعتزلتموهم». وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لاعقول لكم، وأنا لاأعجل بكم بل أستأنِى فآذهبوا إلى منازلكم ودبِّروا رأيكم وآرجعوا إلى أمرى، وضرب لهم فى ذلك أجلا، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتيـة فى الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفا فى جبل كذا ، كان أبى يُدخل فيه غنمه فلنذهب فلْنَختَفِ فيـه حتى يفتح الله لنـا؛ فخرجوا فيما روى يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئـلا يشعر الناس بهم . وروى أنهـم كانوا مُثقَّفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا فى جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصَّوْلجان حتى خَلَصوا بذلك . وروى وهب بن منبّه أن أول أمرهم إنما كان حوارىّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام فى أعماله بركة عظيمة ،

فألق إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، وآشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام وَلَدُ الملك بآمرأة أراد الخَلْوة بها، فنهاه ذلك الحوارِيُّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه فى دخول الحمام مع البَغِيّ، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فآتُّهِم ذلك الحوارىّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف. وقيل فى خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروى أنه كان كلبَ صيد لهم، وروى أنهم وجدوا فى طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعى على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند فى معرفتها واه. والذى ذكره الطبرى هى هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلتينا ويمليخا، وهو الذى مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش ودينموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانيـة — هذه الآية صريحة فى الفرار بالدِّين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس فى الغار حسبما تقدم فى سورة «النحل»[(1)]. وقد نص الله تعالى على ذلك فى «براءة» وقد تقدم[(2)]. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هى سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضّلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ».

(١) راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء. (٢) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ وما بعدها.

قال العلماء. الاعتزال عن الناس يكون مرّة فى الجبال والشّعاب، ومرة فى السواحل والرِّباط، ومرة فى البيوت؛ وقد جاء فى الخبر: "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك". ولم يخصّ موضعا من موضع. وقد جعلت طائفة من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشر وأهله بقلبك وعملك، إن كنت بين أظهرهم. وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا فى غير ذلك فآسكت. وروى البَغَوىّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم". وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسل الحسن وغيره. وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما النجاة يارسول الله؟ فقال: "ياعقبة أمسك عليك لسانك ولْيَسَعْكَ بيتُك وآبْك على خطيئتك". وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر يَفِرّ بدينه من الفتن". خرّجه البخارى. وذكر علىّ بن سعد عن الحسن آبن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتى العزبة والعزلة والترهّب فى رؤوس الجبال". وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دِينُه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو جُحْر (١) إلى جحر فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة". قالوا: يارسول الله، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال: "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران". قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: "يُعيِّرونه بضيق المعيشة ويكلّفونه ما لا يُطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها".

---

(١) الجحر: الموضع. وكل ما جحرته من حائط فهو جحر.

قلت : أحوال الناس فى هـذا الباب تختلف ، فرُبَّ رجلٍ تكون له قوة على سكنى الكهوف والغِيران فى الجبال ، وهى أرفع الأحوال لأنها الحالة التى آختارها الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، ونص عليها فى كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وإذِ آعتزلتموهم وما يعبـدون إلّا الله فأْوُوا إلى الكهف » . ورُبَّ رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورُبَّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . وذكر ابن المبارك حدّثنا وُهَيب بن الوَرْد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبِّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدّثت نفسى ألا أخالطهم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهـم أصمَّ سميعا ، أعمَى بصيراً ، سَكوتاً نَطُوقاً . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معنى الجبال والشِّعاب ؛ مثل الآعتكاف فى المساجد ، ولزوم السواحل للرّباط والذكر ، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب فى المواضع التى يُعتزل فيها ؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معناه ؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يَعْجَب (١) ربُّك من راعى غنم فى رأس شَظِيَّة (٢) الجبل يؤذّن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة". خرجه النَّسائىّ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَـا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لمـا فَرُّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعـالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى مغفرة ورزقا . « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَـدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار فى سلامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبه (٣) أمر فَزِع إلى الصلاة .

(١) يعجب : كيسمع ؛ أى يرضى منه ويثيبه . (٢) الشظية ( بفتح الشين وكسر الظاء ) : قطعة مرتفعة فى رأس الجبل . (٣) أى إذا نزل به مُهِمّ أو أصابه غم . وفى الأصول : « إذا أحزنه » والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

عبارة عن إلقاء الله تعـالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التى أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثـله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « فضربنا على آذانهم » أى فاستجبنا دعاءهم ، وصرفنا عنهم شرّ قومهم ، وأنمناهم . والمعنى كلّه متقارب . وقال قُطْرُب : هـذا كقول العـرب ضرب الأمير على يد الرعيّـة إذا منعهم الفساد ، وضرب السـيد على يد عبـده المأذون له فى التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضريرا :

ومن الحوادث لا أَبالك أننى * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأسدادِ (١)

وأما تخصيص الاذان بالذكر فلانهـا الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلّمـا ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعطُّل السمع . ومن ذِكْر الأذن فى النوم قوله صلى الله عليه وسلم : "ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه" خرّجه الصحيح . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليـل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليـل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف . والعدّ المصدر ، والعـدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط . وقال أبو عبيدة : «عددا» نصب على المصدر . ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى من بعـد نومهم . ويقال لمن أُحْيِىَ أو أُقِيم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف .

---

(١) واحد الأسداد : سدّ ، وهو ذهاب البصر ؛ يقول : سدّت علىّ الطريق ؛ أى عميت علىّ مذاهبى .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لنعلم » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقــد كان الله تعــالى علم أىّ الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزُّهْرِىّ « ليعلم » باليــاء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليــلا . والحزب الثانى أهــل المدينة الذين بُعث الفِتْية على عهدهم ، حين كان عنــدهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين، آختلفا فى مدّة أصحاب الكهف . وقيــل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك ممــا لا يرتبط بألفاظ الآية . و « أحصى » فعل ماض . و « أمدا » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفــرّاء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أىّ الحــزبين أحصى للبثهم فى الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهــد : « أمدا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : « أمدا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير مُتّجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختــلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ ، و « أحصى » فعل رباعى . وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل فى الرباعى قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمــال وآتاه للخير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وســلم : " ماؤه أبيض من اللبن " . وقال عمر بن الخطاب : فهو لمــا سواها أَضْيع .

قوله تعــالى : نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

قوله تعــالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ لمــا اقتضى قوله تعــالى « لنعلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع فى أمد الفِتْية ، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى « إنّهم فِتْيَةٌ » أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوّة الإيمان . وقال الجُنيد : الفتوّة بذل النَّدَى وكفّ الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفُتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يسّرناهم للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد فى الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدِّى : زادهم هُدًى بكلب الراعى حين طردوه ورجموه مخافة أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّهَ بهم ؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فأنطقه الله ، فقال : ياقوم ! لِمَ تطردوننى ، لم ترجموننى ! لم تضربوننى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة عزمٍ وقُوّة صبرٍ ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدى الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السمواتِ والأرض لن نَدْعُوَ مِنْ دونِه إلٰهًا لقد قلنا إذًا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلال حَسُن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يُشْبِه الربط ؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش، إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أمّ موسى . وقولُه تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ » وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إذ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدى الملك الكافر — كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا فى ذات الله هيبته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد ؛ فقال أسَنُّهم : إنى أجد فى نفسى أن ربّى ربُّ السموات والأرض ؛ فقالوا ونحن كذلك نجد فى أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا ربُّ السموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلٰها لقد قلنا إذًا شَطَطًا » .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى لئن دعَوْنا إلٰها غيره فقد قلنا إذا جَوْراً ومحالا . والمعنى الثالث — أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة النـاس؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجدّ .

الثانيـة — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » .

قلت : وهذا تعلّق غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروا لما أولاهم من نِعَمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم؛ وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هـذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام! وخاصّةً فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان؛ هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هـذا حرام عنـد جماعة العلماء ، على ما يأتى بيـانه فى سـورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقـدّم فى « سبحان » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا »(١) ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطَّرَسُوسِىّ وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السّامرىّ؛ لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه و يتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبّاد العجل ، على ما يأتى .

قوله تعالى : هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ﴿ لَوْلَا ﴾ أى هلّا . ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة؛ أى هلا أقاموا بيّنةً على الأصنام فى كونها آلهة؛ فقولهم «لولا» تحضيض بمعنى التعجيز، و إذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلتفت إلى دعواهم .

(١) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : هو من قول الله لهم . أى وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم يمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغَزْنَوِىّ : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون . ثم استثنى وقال ﴿ إِلَّا اللهَ ﴾ أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فر أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله ، ولا علم لهم به ؛ وإنما يعتقدون الأصنام فى ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه فى العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع فى كل ما يعبد الكفار إلا فى جهة الله . وفى مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هذا تفسيرها .

قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ عن عطاء الخُراسانِىّ فى قوله تعالى « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » قال : كان فِتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادةَ الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون « إلا » بمنزلة غير ، و « ما » من قوله « وما يعبدون إلا الله » فى موضع نصب ، عطفا على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » . ومُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقْنا الكفارَ وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتكلْ على الله ؛ فانه سيبسط لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مِرْفَقًا . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن على ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة ، واسم الكهف حيوم . ﴿ مِرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها ، وهو ما يُرتفق به . وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه ؛ ومنهم من يجعل « المَرْفق » بفتح الميم الموضع كالمسجد ، وهما لغتان .

قوله تعالى : وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى ترى أيّها المخاطَب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أن المخاطَب رآهم على التحقيق . و « تزاور » تتنحّى وتميل ؛ من الازورار . والزَّوَر الميَل . والأزور فى العين المائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل فى غير العين ؛ كما قال ابن أبى رَبيعة :

* وجَنْبِى خِيفَةَ القوم أَزْوَرُ (١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فازوَرّ من وَقْع القَنا بلبَانه (٢) *

وفى حديث غَزْوة مُؤْتة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « تَزّاور » بإدْغام التاء فى الزاى ، والأصل « تتزاور » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تزاور » مخففة الزاى .

---

(١) والبيت بتمامه كما فى ديوانه :

وخفّض عنى الصوت أقبلت مِشْية الـ * ـحُباب وشخصى خشية الحى أزور

والحباب ( بالضم ) : الحية . وقبل هذا البيت :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح وشبت بالعشاء وأنْوُر
وغاب قُمَير كنت أهوى غيوبه * وروّح رُعيان ونوّم سُمّر

(٢) وتمامه : * وشكا إلى بعبرة وتحمحم *

واللبان ( بالفتح ) : الصدر . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

وقرأ ابن عامر « تَزْوَرّ » مثل تحمر . وحكى الفراء « تزوارّ » مثل تحمار ؛ كلها بمعنًى واحد .
﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : تدعهم . النحاس : وهذا معروف فى اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامةً لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، و إذا غربت تمر بهم ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم فى ابتداء النهار ولا فى آخر النهار . وكان كهفهم مستقبل بنات نَعْش فى أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها ، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِي ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدَّبور وهم فى زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس . وقيل : «وإذا غربت تقرضهم» أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة ، أى تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان فى مسّها لهم بالعَشِىّ إصلاح لأجسادهم . وعلى الجملة فالآية فى ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذّون فيه بانبساط الشمس عليهم فى معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّى بحر أو برد . ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى من الكهف . والفَجْوَة المتّسع ، وجمعها فَجَوات وفِجَاء ؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة * رجالا وخيلا غيرَ ميل ولا عُزْل

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوّى قول الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائى يحسبهم أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ فى مضجعه . و ﴿ أيقاظا ﴾

جمع يقظ و يقظان، وهو المنتبـه . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود ؛ فوصف الجمع بالمصدر . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سنين مرة . وقالت فـرقة : إنمـا قُلبوا فى التسع الأواخر، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، و يجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قال عمرو بن دينار : إن ممـا أخذ على العقـرب ألا تضر أحدا [ قال ][(1)] فى ليله أو فى نهاره : صلى[(2)] الله على نوح . و إن ممـا أخذ على الكلب ألا يضر من حَمَل عليه [ إذا قال ] : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه، على ماقال مقاتل . وآختُلف فى لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبي . تحصيله : أىّ لون ذكرتَ أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء . واختلف أيضا فى اسمه؛ فعن علىّ : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعى : مشير . عبد الله بن سَلَام : بسيط . كعب : صهيا . وهب : نقيا . وقيل قطمير؛ ذكره الثعلبي . وكان اقتناء الكلب جائزا فى وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز فى شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا، وكانوا سـبعة فمرّوا براع معه كلب فآتبعهم على دينهم . وقال كعب : مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقـام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعى، فنطق فقال : لا تخافوا منى ! أنا أحِبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانيــة ــ ورد فى الصحيح عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلبا إلا كلبَ صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " . وروى الصحيح أيضا عن

(1) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (2) فى حياة الحيوان : « سلام على نوح » .

أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آتخذ كلبا إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع آنتُقِص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهري : وذُكر لآبن عمر قولُ أبي هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحبَ زرع . فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص في أجر من آقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على مايراه الشافعي ، أو لآقتحام النهي عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال في إحدى الروايتين "قيراطان" وفي الأخرى " قيراط" . وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذًى من الآخر، كالأسود الذي أمر عليه السلام بقتله ، ولم يُدخله في الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر؛ أخرجه الصحيح . وقال: "عليكم بالأسود البَهيم ذي النقطتين فإنه شيطان". ويحتمل أن يكون ذلك لآختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص؛ كالفرس والهِرّة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها ، لا الذي يحفظها في الدار من السرّاق . وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدّم في «المائدة»(١) من أحكام الكلاب مافيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحدّثني أبي رضي الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٥

المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأُنْس للمؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خيرآل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقِينا رجل عند سُدّة المسجد فقال : يارسول الله ، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددتَ لهـا " قال : فكأنّ الرجل آستكان، ثم قال : يارسـول الله ، ما أعددتُ لهـا كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحِبّ الله ورسوله . قال : " فأنت مع من أحببت " . فى رواية قال أنس بن مالك : فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحا أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأنت مع من أحببت " . قال أنس : فأنا أحب الله ورسـوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذى نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غيرمستأهلين، كلبٌ أحب قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، « ولقد كَرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خَلَقنا تفضيلا » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة، وإنما كان أحدَهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم؛ (١) ... كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له : كلب الجبّار (٢) . قال ابن عطية : فسُمّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أمّا إنّ هـذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها فى العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب " . وقد حكى أبو عمر المطرّز فى كتاب اليواقيت

(١) فى بعض نسخ الأصل بعد قوله « طليعة لهم » : « قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع » . ونراها غير لازمة . والذى فى حياة الحيوان للدميرى فى اسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم؛ فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا لأنه منها كالكلب من الإنسان، وهذا القول يضعفه ... » الخ . (٢) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « وكالبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هى هيئة الريبة المستخفى بنفسه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ « وكالبهم » يعنى صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضىّ ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدّة . وقيل : نام الكلب ، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفِناء ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير ؛ أى فناء الكهف ، والجمع وصائد ووُصُد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصيدُها * علىّ ومعروفى بها غير منكر

وقد تقدّم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقد أوصدت الباب وآصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول ، فهو مشترك ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعمش ويحيى بن وثّاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو أشرفت عليهم لهربت منهم . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى لما حفهم الله تعالى من الرُّعب واكتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوَحْش (١) فى الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهم بالرعب ، لا يجسُر أحد منهم على الدنوّ إليهم . وقيل : الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم ؛ ذكره المهدوىّ والنحاس والزجاج والقشيرى . وهذا بعيد ؛ لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودلّ هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها ؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح فى أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خالٍ .

آية ، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغيَّر صفة، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت فى نفسه حالة ينكرها لكانت عليـه أهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهـل مكة والمدينة «لَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أى مُلِئت ثم مائت . وقرأ الباقون « لملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر فى اللغة . وقد جاء التثقيل فى قول المُخَبَّل السـعدىّ :

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْـرِمًا * فمُلِّئَ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور « رُعْباً » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فرارا » نصب على الحال و « رعبا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُـمْ ﴾ البعث : التحريك عن سـكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضا؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم فى ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر :

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعَثْتُ بسُحْرَةٍ * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونَشْوانِ (١)

أى أيقظت . واللام فى قوله «ليتساءلوا» لام الصيرورة وهى لام العاقبة؛ كقوله « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

(١) البيت لأمرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر . وقيل أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر الى طلوع الفجر .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهـم دخلوه غُدوةً وبعثهم الله فى آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدّة .

قوله تعالى : ﴿ فَٱبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قال ابن عبـاس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبَع (١) ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كَثير ونافع وابن عامر والكسائىّ وحفص عن عاصم « بورِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمـزة وأبو بكر عن عاصم « بورْقكم » بسكون الراء، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهمـا لغتان . وقرأ الزجاج « بوِرْقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جياعا، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم؛ فيما ذكر الغزنوىّ . والمدينـة : أُفْسُوس ويقال هى طَرسوس، وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس ؛ فلمـا جاء الاسلام سمّوها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهمُ عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحةً ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على آسم الصنم ، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانَهم . ابن عباس : كان عامّتهم مجوسا . وقيـل « أزكى طعاما » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشترى ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة؛ ولهـذا قيل ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زبيبا . وقيـل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيـل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْـهُ ﴾ أى بقُوت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يخبرنّ . وقيـل : إن ظُهِر عليـه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل. وقيل: يرموكم بالسب والشتم؛ والأول أصح، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدّم فى قَصصهم . والرجم فيما سـلف هى كانت على ما ذكر قبـلَه [ عقوبة ] (٢) مخالفة دين النـاس إذ هى أشفى لجملة أهل ذلك الدّين من حيث إنهم يشتركون فيها .

---

(١) الربع (كصرد) : الفصيل ينتج فى الربيع . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

الثالثـــة — فى هذه البِعْثة بالوَرِق دليل على الوَكالة وصحتها . وقد وكّل علىّ بن أبى طالب أخاه عَقيلا عند عثمان رضى الله عنه ؛ ولا خلاف فيها فى الجملة . والوَكالة معروفة فى الجاهلية والإســلام ؛ ألا ترى إلى عبــد الرحمن بن عَوف كيف وكّل أميّــة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والتزم عبدالرحمن لأمية من حَفظ حاشيته بالمدينة مثــل ذلك مجازاةً لصنعه . روى البخارىّ عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغِيَتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كاتِبْنى بآسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ... وذكر الحديث. قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه و يأتونه ؛ وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو و يَصْغَى إذا مال ، وكلّ مائل إلى الشىء أو معه فقد صغا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعـــة — الوكالة عقدُ نيابةٍ ، أَذِن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك ، إذ ليس كل أحد يقدر على تنــاول أموره إلا بمعونة من غيره أو يترفّه فيستنيب من يريحه .

وقد استدل علمــاؤنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هــذه الآية ، وقولُه تعالى : « والعاملين عليهــا » وقوله « آذْهَبُوا بقَمِيصِى هــذا » . وأما من الســنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارِقىّ ، وقد تقــدّم فى آخر الأنعام [(١)] . روى جابر بن عبــد الله قال أردت الخروج إلى خَيْبَر فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنى أردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : "إذا أتيتَ وكيلى فخذ منه خمسة عشر وَسْقًا فإن آبتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوَته" [(٢)] خرجه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى هذه المعنى ، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامســـة — الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيــابة فيه ، فلو وكل الغاصبُ لم يجــز ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادســـة — فى هذه الآية نُكْتة بديعة ، وهى أن الوكالة إنما كانت مع التَّقِيّة خوف أن يشــعر بهم أحد لمــا كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العــذر متفق

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

عليه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها . وقال أبو حنيفة وسُحْنون : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأن سُحنونَ تلقفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافا منهم وإذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هذا حسن ؛ فأما أهل الدين والفضل فلهم أن يوكّلوا وإن كانوا حاضرين أصحّاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوْفَيْتَني أوْفَى الله لك . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنُكم قضاء" . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التي كانت عليه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يرد قول أبي حنيفة وسُحنون في قولهما : انه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولهما .

السابعة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بَعثوا من وكّلوه بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، وإن كان بعضهم أكثرَ أكْلًا من الآخر؛ ومثله قوله تعالى : « وإن تُخالطوهم فإخوانكم » حسبما تقدم بيانه في «البقرة»(١) . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وكّل من اشترى له أُضْحية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قد أعطاه منفردا فلا يكون فيه اشتراك . ولا مُعَوَّل في هذه المسئلة

(١) راجع ج ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مَرّ بقوم يأكلون تمرا فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه . الثانى — حديث أبى عبيدة فى جيش الخَبَط (١) . وهـذا دون الأول فى الظهور؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيـدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى : «وإن تخالطوهم فإخوانكُم» وقوله « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أَشْتَاتًا (٢) » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أطلعنا عليهم وأظهرناهم . و « أَعْثَر » تعدية عثر بالهمزة، وأصل العِثار فى القدم . ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهلَ تلك الدار رجلٌ صالح، فٱختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنمـا تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا؛ فكبُر ذلك على الملك وبقى حيران لايدرى كيف يتبيّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرّع إلى الله تعـالى فى حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ فيقال : إنهم لمـا بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها ٱسْتُنْكِر شخصه وٱسْتُنْكِرت دراهمـه لبعد العهد، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه، فلما

(١) سموا جيش الخبط لانهـم خرجوا فى سرية الى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط؛ فسموا به .
(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنِيهم ، وسأل الفتى فأخبره ، فسُرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دَنَوْا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يَرْعَبُوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمّةُ إسلام ، فرُوِى أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق ، على ما يأتى . ورجع من كان شكّ فى بَعْث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى «أعثرنا عليهم» . «لِيعلموا أن وعد اللهِ حق» أى ليعلم الملك و رعيته أن القيامة حق والبعث حق «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» . وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بنيانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبنى بِيعة أو مضيفا ، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذن عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين . وروى عن عبد الله بن عمر(١) أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم ، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَمًا لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم فى صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم فى المنام فقال : أردتَ ان تجعلنا فى صندوق من ذهب فلا تفعل ؛ فإنا من التراب خُلقنا و إليه نعود ، فدَعْنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة ؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها ، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز ؛ لما روى أبو داود والترمذىّ عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذىّ : وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أولئك إذا كان فيهم

---

(١) فى بعض الأصول : « عن عبيد بن عمير » .

الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعالى يوم القيامة" . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهذا يحرم على المسلمين أن يتّخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" لفظ مسلم . أى لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيها كما كان السبب فى عبادة الأصنام . فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسَدَّ الذرائعَ المؤدّية إلى ذلك فقال : "اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ(1) بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك(2) : "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذّر(3) ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرّجه أبو داود والترمذى أيضا عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُجَصَّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبْنَى عليها وأن توطأ . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبى الهيّاج الأسدى قال قال لى علىّ بن أبى طالب : ألّا(4) أبعثُك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألّا تَدَعَ تمثالا إلا طَمَسته ولا قبرا مُشْرِفا إلا سوّيته — فى رواية — ولا صورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذىّ . قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبرِ صاحبيه رضى الله عنهما — على ما ذكر مالك فى الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الدارقطنىّ

(1) قوله «إذا اغتم» أى تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر. (2) أى فى حالة الطرح والكشف.

(3) أى يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنيع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم . (4) قوله « ألا » بتشديد اللام للتحضيض . وقيل بفتحها للتنبيه .

من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا فى أوّل منازل الآخرة، وتشبّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها . وباعتبار هـذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال : هو حرام . والتسنيم فى القبر : ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سَـنام البعير . ويُرَشّ عليه بالمـاء لئلا ينتثر بالريح . وقال الشافعيّ لا بأس أن يطيّن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بنـاء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لمـا رواه أبو بكر الأثرم قال : حدّثنا مُسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغْلِب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن فى التـابوت؛ وهو جائز لا سيما فى الأرض الرّخْوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان فى تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى فى رَكِيّة(١) مخافة أن يُعبد، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم أجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه فى حظيرة إسحاق عليه السلام . وفى الصحيح عن سعد ابن أبى وقّاص أنه قال فى مرضه الذى هلك فيه : اتخذوا لى لَحْدًا وآنصبوا علىّ اللّبِن نَصْبًا؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وسـلم . اللحد : هو أن يشـقّ فى الأرض ثم يُحفر قبر آخر فى جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبِن . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذى اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللحد . وقال الشافعى : الشق . ويكره الآجُرّ فى اللحد . وقال الشافعى : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبِلَى ، فلا يليق به الإحكام . وعلى هـذا يسوّى بين الحجر والآجر . وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا ؛ فعلى هـذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللّبِن والقَصَب لمـا روى أنه وضع على قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم حُزْمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

(١) الركية : البئر .

أبي بكر محمد بن الفضل الحنفيّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت في بلادهم لرخاوة الأرض . وقال : لو اتُّخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطيّن الطبقة العليا مما يلي الميت ، ويُجعل اللَّبِن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

قلت : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سَبِخة (١) ، قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر . قال أبو عيسى الترمذي : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في « سيقولون » يراد به أهل التوراة ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبيّ صلى الله عليه وسلم من نَجْران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبيّة : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقالت النَّسْطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم . وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف . والواو في قوله « وثامنهم كلبهم » طريق النحو بين أنها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم ، وتدلّ على أن هذا غاية ماقيل ، ولو سقطت لصح الكلام . وقالت فرقة منها ابن خالَوَيْه : هي واو الثمانية . وحكى الثعلبيّ عن أبي بكر بن عيّاش أن قريشا كانت تقول في عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتُدخل الواو في الثمانية . وحكى نحوه القفّال ، فقال :

(١) أرض سبخة : ذات ملح ونَزّ .

إن قوما قالوا العدد ينتهى عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله «التائبون العابدون – ثم قال – والناهون عن المنكر والحافظون» . يدل عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم «حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها» بلا واو، ولما ذكر الجنة قال : «وفتحت أبوابها» بالواو . وقال «خيرا منكن مسلمات» ثم قال «وأبكارا» فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا . قال القشيرى أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين السبعة نهاية عندهم! ثم هو منقوض بقوله تعالى : «هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر» ولم يذكر الاسم الثامن بالواو . وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة : إنما ذكر الواو فى قوله «سبعة وثامنهم» لينبه على أن هذا العدد هو الحق، وأنه مباين للأعداد الأخر التى قال فيها أهل الكتاب ؛ ولهذا قال تعالى فى الجملتين المتقدمتين «رجما بالغيب» ولم يذكره فى الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشىء، فكأنه قال لنبيه هم سبعة وثامنهم كلبهم . والرجم : القول بالظن، يقال لكل ما يخرص : رجم فيه ومرجوم ومرجم، كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم (١)

قلت : قد ذكر الماوردى والغزنوى : وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية، وجعلا قوله تعالى «وثامنهم كلبهم» أى صاحب كلبهم . وهذا مما يقوى طريق النحويين فى الواو، وأنها كما قالوا . وقال القشيرى : لم يذكر الواو فى قوله : رابعهم سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزا، فطلب الحكمة والعلة فى مثل هذه الواو تكلف بعيد، وهو كقوله فى موضع آخر «وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم» (٢) . وفى موضع آخر : «إلا لها منذرون . ذكرى» (٣) .

قوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ أمر الله تعالى نبيه عليه السلام فى هذه الآية أن يرد علم عدتهم إليه عز وجل . ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل . والمراد به قوم من

(١) البيت من معلقة زهير . (٢) آية ٤ سورة الحجر . (٣) آية ٢٠٨ سورة الشعراء .

أهـل الكتاب ، فى قول عطاء . وكان آبن عباس يقول : أنا من ذلك القليل ، كانوا سـبعة وثامنهم كلبهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب آسمه قطمير كلب أنمر ، فوق القَلَطى(١) ودون الكردى . وقال محمد بن سـعيد بن المُسَيَّب : هو كلب صينى . والصحيح أنه زبيرى . وقال : ما بقى بنيسابور محدّث إلا كتب عنى هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيرى عنى .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجادل فى أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك ، وهو ردّ علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هـذا ، ولا تحتج على أمر مقـدّر فى ذلك . وفى هـذا دليل على أن الله تعالى لم يبيّن لأحد عددَهم فلهذا قال « إلا مِراءً ظاهرا » أى ذاهبا ، كما قال :

* وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها(٢) *

ولم يبح له فى هذه الآية أن يمارى ، ولكن قوله « إلَّا مِراءً » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مِراء ثم قيـد بأنه ظـاهر ؛ ففارق المراء الحقيق المذموم . والضمير فى قوله « فيهم » عائد على أهل الكهف . وفى قوله « منهم » عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : «فلا تمار فيهم» يعنى فى عِدتهم ، وحذفت العدّة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نجْران عنهم فنُهِى عن السؤال . وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

قوله تعـالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَـدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَـآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(١) القلطى (كعربى) : القصير من الناس والسنانير والكلاب . قال الدميرى : « والقلطى : كلب صينى » .
(٢) هذا عجز بيت لأبى ذؤيب . وصدره :

* وعيّرها الواشون أنى أحبها *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم؛ ولم يستثن فى ذلك . فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شقّ ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا، إلّا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقا لحكم الخبر؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا، و إذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقا للخبر عنه . واللام فى قوله « لشىء » بمنزلة فى، أو كأنه قال لأجل شىء .

الثانيــة — قال ابن عطية : وتكلّم الناس فى هذه الآية فى الاستثناء فى اليمين، والآية ليست فى الأيمان و إنما هى فى سُنّة الاستثناء فى غير اليمين . وقوله « إلا أن يشاء الله » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذى نُهى عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطيــة وارتضاه هو قول الكسائىّ والفَرّاء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولنّ » . قال : وهـذا قول حكاه الطبرى ورُدّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكى . وقد تقدّم القول فى الاستثناء فى اليمين وحكمه فى « المائدة »(1) .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان — واختلف فى الذكر المأمور به؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن يهدين ربى لأقربَ من هـذا رَشَدًا » . قال محمد الكوفى المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل

(1) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

من لم يَستثن ، و إنها كفارة لنسيان الاستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هـذا التخصيص . وقيل : هو قوله «إن شاء الله» الذى كان نَسِيَه عند يمينه . حُكى عن ابن عباس أنه إن نسى الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيـل بن إسحاق ذلك عن أبى العاليـة فى قوله تعالى « واذكر ربك إذا نسيت » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام فى مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين؛ ذكره الغزنوىّ قال : فيحمل على تدارك التـبرك بالاستثناء للتخلّص عن الإثم . فأما الاستثناء المفيـد حكما فلا يصح إلا متصلا . السُّدّى : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها . وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى . وقيل : اذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئا فاذكره يُذَكِّرْكَه . وقيل : اذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقـة الذكر . وهـذه الآية مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسـلم، وهى استفتاح كلام على الأصح، وليست من الاستثناء فى اليمين بشىء، وهى بعدُ تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردّد فى الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعـالى : وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾

هذا خبر من الله تعـالى عن مدّة لَبثهم . وفى قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبرى : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيَّه أن هـذه المدّة فى كونهم نياما، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأول يريد فى نوم الكهف ، و « لبثوا » الثانى يريد بعـد الإعثار إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لمـا قال « وازدادوا تسعا » لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هـذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعـد عيسى

بيسير وقد بقيت من الحوار بين بقية . وقيل غير هذا على ما يأتى . قال القشيرى : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول : عندى مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم . وقال أبو على « وازدادوا تسعا » أى ازدادوا لبث تسع؛ فحذف. وقال الضحاك : لما نزلت « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة » قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل « سنين » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبى العربى ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوى . أى باختلاف سنى الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون فى ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثلثمائةٍ سنينَ » بتنوين مائة ونصب سنين، على التقديم والتأخير؛ أى سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل: على التفسير والتمييز . و « سنين » فى موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو على: هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع . وفى مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تَسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا فى كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيرهم بالبِلَى؛ على ما تقدم. وقيل : بما لبثوا فى الكهف، وهى المدة التى ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك «له غَيْبُ السموات والأرض» .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوَحْيِه وإرشاده هــداك وحججك والحقّ من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيّ يتولّى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير فى «لهم» على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما لهؤلاء المختلفين فى مدة لُبثهم وَلِيّ دون الله يتولى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلمَ منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إيّاهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء و رفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَرِيّ « ولا تُشرِكْ » بالتاء من فوق و إسكان الكاف على جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، و يكون قوله «ولا تشرك» عطفا على قوله «أبصر به وأسمع» . وقرأ مجاهد «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مســـئلة — اختلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم فى بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فَنُــوا وعُدِموا منــذ مدّة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ابن عم نبيّنا صلى الله عليه وسلم . وروت فرقة أن النبيّ صــلى الله عليه وســلم قال : " ليحجّنّ عيسى بن مريم ومعــه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعدُ " . ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب فى التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبــدُ الله ورسولُه ، وأنه يمــر بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِرا أو يجمع الله له ذلك فيجعــل الله حوارِيّه أصحــاب الكهف والرقيم ، فيمرّون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله فى كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .

قوله تعالى : وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبرى : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملجأ . وقيل موئلا . وأصله الميل ؛ ومَن لجأت إليه فقد مِلْت إليه . قال القُشَيْرِىّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فآنتهى إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « لو آطلعتَ عليهم لولّيْتَ منهم فِرارا » فقال : لا أنتهى حتى أعلم علمَهم ، و بعث قوما لذلك ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبي أيضا . وذكر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريَه إياهم ، فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن آبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك و يدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع علىّ ابن أبى طالب ، ثم آدع الريح الرُّخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلبُ عليهم فلما رآهم حرك رأسه و بصبص بذَنَبه وأومأ إليهم برأسه أن آدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم و رحمة الله و بركاته ؛ فردّ الله على الفِتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله و بركاته ؛ فقالوا لهم : معشرَ الفِتْية ، إن النبيّ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ، وقبلوا

دينه وأسلموا، ثم قالوا : أقرئوا محمدا رسول الله منّا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى . فيقال : إن المهدى يسلم عليهم فيُحييهم الله ثم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بما كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كيف وجدتموهم"؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهمّ لا تفرق بيني وبين أصحابي وأصهاري واغفر لمن أحبّني وأحبّ أهل بيتي وخاصّتي وأصحابي" . وقيل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبل المسيح ؛ فأخبر الله تعالى المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الفَتْرة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانوا قبل موسى عليه السلام وأن موسى ذكرهم في التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان .

قوله تعالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » في سورة « الأنعام »(١) وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسي رضى الله عنه : جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى « وٱتلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربّك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه مُلْتَحَدًا . وٱصبر

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

نفسك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يريدون وجهه — حتى بلغ — إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادِقها » . يتهدّدهم بالنار . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله قال : "الحمد لله الذى لم يُمِتْني حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المَحْيَا ومعكم الممات" . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى طاعته . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دِينار وأبو عبد الرحمن « ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ» وحجتهم أنها فى السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « ولا تعدّ[1] عينيك عنهم » أى لا تجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدى . وقيل : لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أى مستحقرا .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تتزيّن بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركتَ ليَحْبَطَنّ عَمَلُكَ »[2] . و إن كان الله أعاذه من الشرك . و « تريد » فعل مضارع فى موضع الحال؛ أى لا تعد عيناك مريدا؛ كقول آمرئ القيس :

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم؛ لأن « تَعْدُ » متعدٍّ بنفسه . قيل له : والذى وردت به التلاوة من رفع العينين يئول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو فى الحقيقة موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى :

---

(١) فى كتاب روح المعانى : « وقرأ الحسن ( ولا تعد عينيك ) بضم التاء وسكون العين وكسر الدال المخففة، من أعداه، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا ( ولا تعد عينيك ) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة، من عداه يعديه، ونصب العينين أيضا .

(٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم »[1] فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم . ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا » قال : نزلت فى أميّــة بن خلف الجُمَحِىّ ، وذلك أنه دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » يعنى من ختمنا على قلبــه عن التوحيد . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قيل هــو من التفريط الذى هــو التقصير وتقــديم العجز بترك الإيمــان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَرَ إن أسـلمنا أسلم الناس ؛ وكان هــذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قدما فى الشر ؛ من قولهم : فَرَط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أغفلنا قلبــه » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فأحمدته ؛ أى وجدته محمودا . وقال عمرو بن معدِيكَرِب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فمــا أبخلناكم ، وقاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين . وقيــل : نزلت « ولا تطع من أغفلنا قلبــه عن ذكرنا » فى عُيَينة بن حِصن الفَزَارِى ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثّورى . والله أعلم .

قوله تعــالى : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

قوله تعــالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴾ «الحقُّ» رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله

(١) آية ٥٥ سورة التوبة .

«مِن ربكم» . ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! مِن ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهُدَى والضلال ؛ يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ؛ ليس إلىّ من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويّا غنيّا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد . أى إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى أعددنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهرى : السُّرادِق واحد السُّرادِقات التى تُمَدّ فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُف[(١)] فهو سرادق . قال رؤبة[(٢)] :

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُودْ ✽ سُرادِقُ المجد عليك ممدُودْ

يقال : بيت مُسَرْدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز[(٣)] وقتله النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة :

هو المُدْخِل النعمانَ بيتًا سماؤه ✽ صُدورُ الفُيولِ بعد بَيْتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابى : « سرادقها » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة . القُتَبِىّ : السرادق الحُجْرَة التى تكون حول الفسطاط . وقاله ابن عَزِيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله تعالى فى سورة «والمرسلات» حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ»[(٤)] وقوله : «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»[(٥)] قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يَعْلَى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البحر هو جهنم — ثم تلا — نارًا أحاط بهم سُرَادقها —

---

(١) الكرسف : القطن . (٢) كذا فى الأصل واللسان ، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحِرْمازى ، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمرى . مدح الراجز أحد بنى المنذر بن الجارود العبدى ، وحَكَمٌ هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم ؛ فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به .

(٣) بفتح الواو وكسرها ، ملك من ملوك الفرس . (٤) آية ٣٠ (٥) آية ٤٣ سورة الواقعة .

ثم قال — والله لا أدخلها أبدا مادمت حيًّا ولا يصيبني منها قطرة" ذكره المـاوردي . وخرج ابن المبارك من حديث أبي سعيد الخُدْري عن النبي صلى الله عليــه وسلم قال : " لسرادق النـار أربع جُدُر كُثُف(١) كل جدار مسيرة أربعين سـنة" . وخرجه أبو عيسى الترمذي، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السرادق ما يعلو الكفار من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصف.

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِيّ(٢) الزيت . مجاهـد : القَيْح والدّم . الضحاك : ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير ، فتموج بالغليان، فذلك المهل . ونحوه عن ابن مسعود. قال سعيد بن جُبير : هو الذي قد انتهى حَرّه . وقال : المهل ضرب من القَطِران ؛ يقال : مَهلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السم . والمعنى في هذه الأقوال متقارب . وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « كالمهل » قال : " كعَكَر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَرْوة وجهه" قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْـدِين بن سعد ورِشْدين قد تُكُلِّم فيه من قبـل حفظه . وخرج عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : "ويُسْقَى مِن ماءٍ صَدِيدٍ يتجرعه" قال : "يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِيَ منه شوَى وجهه ووقعت فَروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى « وسُقُوا ماءً حَمِيًا فقطّع أمعاءهم »(٣) يقول « وإن يستغيثوا يُغاثوا بمـاء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشرابُ وساءت مُرْتَفَقًا » " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم . وكذلك نص عليها أهل اللغة . في الصحاح « المهـل » النحاس المُذاب . ابن الأعرابي : المهل المذاب من

---

(١) الكثف : جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ . (٢) الدردى (بالضم) : ما يبق في الأسفل .
(٣) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دردىّ الزيت . والمهل أيضا القيح والصديد . وفى حديث أبى بكر : ٱدفنونى فى ثوبَىّ هذين فإنهما للمهل والتراب . و ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعا، كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ٱبن عباس : منزلا . عطاء : مقرا . وقيل مهادا . وقال القُتَبِىّ : مجلسا . والمعنى متقارب؛ وأصله من المتّكأ، يقال منه : ٱرتفقت أى ٱتكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وٱرتفقتْ ألَا فتًى * يسوق بالقوم غَزالاتِ الضُّحا (١)

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذُؤيب الهُذَلِىّ :

نام الخَلِىّ وبِتُّ الليل مُرْتَفِقا (٢) * كأنّ عَيْنِىَ فيها الصّاب مَذْبُوحُ

الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للمؤمنين من الثواب . وفى الكلام إضمار، أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله مُحْبَط . و «عملا» نصب على التميز، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

---

(١) غزالة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتُضْحِى . وقيل : هو أول الضحا الى مدّ النهار الأكبر حتى يمضى من النهار نحوٌ من خمسه . (٢) رواية الديوان : « مُشْتَجِراً » والمشتجر : الذى قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنكه أو على فمه . والشَّجْر : ما بين اللحيين . ومذبوح؛ مشقوق .

« إنا لا نضيع أجر من أحسن عمـلا » كلام معترض ، والخـبر قوله « أولئـك لهم جنات عدن » و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة ، أى وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسَعتها ؛ لأن كل بُقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيـل : العَدْن الإقامة ، يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به . وعَدَنْت البـلد توطنته . وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنـه « جناتُ عَدْن » أى جنات إقامة . ومنـه سُمِّيَ المَعْدِن ( بكسر الدال ) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كلّ شيء مَعدِنه . والعادن : الناقة المقيمة فى المرعى . وعَدَن بلد؛ قاله الجوهرى . ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ تقدّم فى غير موضع (١) . ﴿يُحَـلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار . قال سعيد بن جُبَير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورِق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هـذا منصوص فى القرآن ، قال هنـا « من ذهب » وقال فى الحج (٢) وفاطر (٣) « مِنْ ذَهَبٍ ولؤلؤًا » وفى الإنسان (٤) «مِن فِضةٍ» . وقال أبو هريرة : سمعت خليلى صلّى الله عليه وسلم يقول : ”تبلغ الحِلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء“ خرّجه مسلم . وحكى الفرّاء : «يَحْلَوْن» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهى حالية إذا لبست الحَلْى . وحَلِيَ الشيء بعينى يَحْلَى؛ ذكره النحاس . والسِّوار سِوار المرأة، والجمع أسورة، وجمع الجمع أساورة . وقرئ (٥) « فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب » وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يُحَـلَّوْن فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهرى . وقال ابن عَزيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار وسُـوار، وهو الذى يلبس فى الذراع من ذهب ، فإن كان من فضـة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَـة ؛ فإن كان من قَرْن أو عاج فهى مَسَكة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرب فى واحد الأساور إسوار، وقُطْرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٣ (٣) آية ٣٣
(٤) آية ٢١ (٥) آية ٥٣ سورة الزخرف .

قلت : قد جاء فى الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لما كانت الملوك تلبس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السُّنْدُس : الرقيق النحيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائى . والإستبرق : ما ثَخُن منه — عن عكرمة — وهو الحرير . قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة * وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُها

فالإستبرق الدِيباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القُتَبِيّ : فارسى معرب . الجوهرى : وتصغيره أُبَيْرِق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر و يؤلم ، والسواد يذَم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائىّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنة ، أَخَلْقٌ يُخْلَق أم نسج ينسج؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : " ممّ تضحكون من جاهل يسأل عالما " فجلس يسيرا أو قليلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة"؟ فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال " لا بل تشقّق عنها ثمر الجنة " قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة فى وسطها شجرة تنبت الحُلَل و يأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدر والمَرْجان . ذكره يحيى بن سلام فى تفسيره وابن المبارك فى رقائقه . وقد ذكرنا إسناده فى كتاب التذكرة . وذُكر فى الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لها وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وَلِيّ الله منك ، أنا أَلِى جسده وأنت لا تلِي . ويقول الآخر : أنا أكرم على ولِيّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعـالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ « الأرائك » جمع أَرِيكة ، وهى السرر فى الحِجَال(١) . وقيـل الفرش فى الحجـال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هى الأسرّة من ذهب ، وهى مكلّلة بالدُّر والياقوت عليها الحجـال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيْلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصـل متكئين مُوْتَكِئِين ، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ ، وأصـل التُّكَأة وُكَأة ؛ ومنـه التوكّأ للتحامل على الشيء ، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يعنى الجنات ، عكس « وساءت مرتفقا » . وقد تقدّم . ولو كان « نِعْمَتْ » لجـاز لأنه آسم للجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتفقا » . وروى البَرَاء ابن عازِب أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال : إنى رجل مسلم فأخبرنى عن هـذه الآية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمـر وعثمان وعليّ فأعْلِم قومك ان هذه الآية نزلت فيهم " ذكره المـاورديّ ، وأسنده النحاس فى كتاب معانى القرآن ، قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحـاق عن البراء بن عازب قال : قام أعرابى ... ؛ فذكره . وأسنده السُّهَيْلى فى كتاب الاعلام . وقـد روَيْنا جميع ذلك بالإجازة ، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

(١) الحجال : جمع الحجلة ( بفتحتين ) كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متصل بقوله « وآصبر نفسك » . واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبي : نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيّ صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران فى سورة « الصافات » فى قوله «قال قائل منهم إنى كان لى قَرِين»(١) ، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار ، فأنفق أحدُهما مالَه فى سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ... ؛ ذكره الثعلبيّ والقُشَيرىّ . وقيل : نزلت فى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله و جميع مَن كفر . وقيل : هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخَيِّر منهما تمليخا ، والآخر قرطوش ، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم ، و بالألف الثانية ثيابا فكسا العُراة ، و بالألف الثالثة طعاما فأطعم الجُوّع ، و بنى أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشترى دواب و بقرا فاستنتجها فنَمَت له نماء مُفْرِطًا ، وآتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ ، فأراد أن يستخدم نفسه فى جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكى وصاحبي فسألته أن يستخدمنى فى بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بى ، فجاءه فلم يَكَد يصل إليه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعتَ بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أئنك

---

(١) آية ٥١

لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان ، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمـالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال ، وذلك أنى كَسَبْت وسفهت أنت ، اخرج عنى . ثم كان من قصة هـذا الغنىّ ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بثـره وذهابها أصلا بمـا أرسل عليها من السماء من الحُسْبان . وقـد ذكر الثعلبىّ هـذه القصة بلفظ آخر ، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار . وقيل : ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فآقتسماها، فآشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار و إنى آشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدقَ بها ، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار و إنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها ، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج آمرأة بألف دينار و إنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار . ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، و إنى أشترى منك خَدَمًا ومتاعا من الجنـة بألف دينار ، فتصدَّق بألف دينـار . ثم أصابته حاجة شـديدة فقال : لعلّ صاحبي ينالُني معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك ؟ فأخبره قصته فقال : و إنك لمن المصدّقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا ! ثم قال له : أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما؛ فقال صاحبه : والله لأعِظَنّه ، فوعظه وذكّره وخوّفه . فقال : سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق ؛ فقال له : يا أخى ! إن الدنيـا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أوعقابا لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فآبتلاهما الله ، فجعـل الكافرُ يرمى شبكته ويسمّى بآسم صنمه ، فتطلع متدفّقة سمكا . وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلُع له فيهـا شىء؛ فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك فى الدنيـا نصيبا ومنزلة ونَفَرًا، كذلك أكون أفضلَ منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا . قال : فضَجّ المَلَك المـوكّل بهما ، فأمر الله تعـالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازل المؤمن فيهـا ، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزّتك لا يضرّه ما ناله من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا ؛ وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال : وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى توفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده ، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون ، فقال : « إنى كان لى قرينٌ . يقول أئنّك لمن المصدِّقين » الآية ؛ فنادى منادٍ : يأهل الجنة! هل أنتم مطّلعون فاّطلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم ؛ فنزلت « واضرب لهم مَثَلًا » .

بيّن الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة ، وبين حالها فى الآخرة فى سورة « الصافات » فى قوله « إنى كان لى قرين (١) . يقول أئنك لمن المصدقين — إلى قوله — لمثل هذا فليعمل العاملون » . قال ابن عطية : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البلاد أن بحيرة تِنّيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيّره الآخر ، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة ، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة ، وليس بخبر عن حال متقدمة ، لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجرا وإنذارا ؛ ذكره الماوردى . وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحِفاف الجانب ، وجمعه أحِفّة ؛ ويقال : حَفَّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا ، أى طافوا به ؛ ومنه «حافّين مِن حَوْلِ العرش» (٢) . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أى جعلنا حول الأعناب النخل ، ووسط الأعناب الزرع . ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى كلّ واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تامّا ، ولذلك لم يقل آتتا . واختُلف فى لفظ « كِلتا وكِلَا » هل هو مفرد أو مثنّى ؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد ؛ لأن كِلا وكِلتا فى توكيد الاثنين نظير «كُلّ» فى المجموع ، وهو اسم مفرد غير مثنى ؛ فإذا ولِى اسما (٣) ظاهرا كان فى الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة ، تقول : رأيت كِلا الرجلين وجاءنى كِلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين ؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء فى موضع الجر والنصب ، تقول :

---

(١) آية ٥١ وما بعدها .　(٢) آخر سورة الزمر .　(٣) كذا فى الأصول والصحاح للجوهرى وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فاذا وليه اسم ظاهر ... » .

رأيت كلَيْهما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما . وقال الفراء : هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ خففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وكذلك كلتا للؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل : كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان . واحتج بقول الشاعر :

في كِلْتِ رِجْليها سُلَامَى(١) واحدَهْ * كِلتاهما مَقْـرونةٌ بزائـدهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد . وهـذا القول ضعيف عنـد أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى اوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخـالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدل على شئ مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنمـا حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة، فثبت أنه اسم مفـرد كمِعَى، إلا أنه وُضـع ليدل على التثنية، كما أن قولهم «نحن» اسم مفرد يدل على اثنين فمـا فوقهما، يدل على ذلك قول جرير :

كِلَا يَوْمَىْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ(٢) * وإن لم نأتهـا إلا لِمـامَا

فأخبر عن «كلا» بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما . واختلف أيضا في ألف «كلتا»؛ فقال سيبويه : ألف «كلتا» للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علمَ التأنيث، والألف «في كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث . وقال أبو عمر الجَرْمي : التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده : فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري . قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتـا . وأجاز الفـراء : كلتـا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل

---

(١) السلامى (كحبارى) : عظام الأصابع في اليد والقدم. (٢) كذا في الأصول واللسان مادة «كلا». وفي ديوانه المطبوع : «يوم صدق» . والبيت من قصيدة مطلعها :

ألا حي المنـازل والخيـاما * وسكنا طـال فيهـا ما أقاما

الجنتين . قال : وفى قراءة عبد الله « كلّ الجنتين آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شىء من الجنتين آتى أكله . والأُكُل ( بضم الهمزة ) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أُكُل ؛ ومنه قوله تعالى : «أُكُلُهَا دَائِمٌ» (١) وقد تقدم . ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أى لم تنقص .

قوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر . ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم و يعقوب وابن أبى إسحاق « ثَمَر » بفتح الثاء والميم ، وكذلك قوله « وأحيط بثَمَره » جمع ثمرة . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، و جمع الثمر ثمار ؛ مثل جبل وجبال . قال الفراء : و جمع الثمار ثُمُر ؛ مثل كتاب وكتب ، و جمع الثمر أثمار ؛ مثل أعناق وعنق . والثمر أيضا المال المُثَمَّر ؛ يخفف ويثقل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثُمْر » بضم الثاء و إسكان الميم ، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمها فى الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى فى « الأنعام » (٢) نحو هذا مبيّنا . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرنى عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثنى أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه ؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ! ولا نُعْمَةَ عينٍ (٣) . فكان يقرأ « ثُمُر » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار ، ثم جمع ثمار على ثمر ؛ وهو حسن فى العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم ؛ لأن قوله « كلتا الجنتين آتت أكلها » يدل على أن له ثمرا .

قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى يراجعه فى الكلام ويجاوبه . والمحاورة المجاوبة ، والتحاورُ التجاوب . و يقال : كلمته فما أحار إلىّ جوابا ، وما رجع إلىّ حَويرا ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حِوارا ؛ أى ما ردّ جوابا . ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد ، حسبما تقدّم بيانه .

---

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤　　(٢) راجع ج ٧ ص ٤٩　　(٣) فى هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة : نَعَمَ عَيْنٍ ونَعْمَةَ ونَعَامَ ونَعِيمَ ( بفتحهن ) ونُعمَى ونُعامَى ونُعامَ ونُعْمَ ونُعْمَةَ ( بضمهن ) ونِعْمَةَ ونِعامَ ( بكسرها ) . وتنصب الكل بإضمار الفعل ؛ أى أفعل ذلك إنعاما لعينك و إكراما .

قوله تعـالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إيّاها . ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى بكفره، وهو جملة فى موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفســه . ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰــذِهِ أَبَدًا ﴾ أنكر فناء الدار . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَــةً ﴾ أى لا أحسب البعث كائنــا . ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِى ﴾ أى وإن كان بعثٌ فكما أعطانى هــذه النعم فى الدنيا فسيعطينى أفضل منه لكرامتى عليه؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ وإنما قال ذلك لمـا دعاه أخوه إلى الإيمـان بالحشر والنشر . وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعـالى : قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا، على الخلاف فى آسمــه . ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ وعظه و بيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التى لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سوّاك رجلا » أى جعلك معتــدل القامة والخَــلْق، صحيحَ الأعضاء ذكرا . ﴿ لٰكِنَّا هُوَ اللّٰهُ رَبِّى ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمى وأبو العالية . وروى عن الكسائى « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى ، فأضمر اسمها فيهـا . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائى : فيــه تقديم وتأخير،

تقديره: لكن الله هو ربى أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى وحـذفت ألف « أنا » فى الوصـل وأثبتت فى الوقف . وقال النحاس : مذهب الكسائى والفرّاء والمـازِنِىّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنا وهى ألف أنا لبيـان الحركة . وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائى :

لَهِنَّكِ من عَبْسِيَّة لَوَسِيمَــةٌ * على هَنَوَاتٍ كاذب من يقولها

أراد : لله إنك، فأسـقط إحدى اللامين من « لله » وحذف الألف من إنك . وقال آخر فجـاء به على الأصل :

وترميننى بالطَّرْف أى أنت مذنب * وتَقْــلِينَنِى لـكنّ إيّاكِ لَا أَقْــلِى

أى لكن أنا . وقال أبو حاتم : وروَوْا عن عاصم « لكنا هو الله ربى » وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج . قال الزجاج : إثبات الألف فى « لكنا هو الله ربى» فى الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عِوضا . قال : وفى قراءة أُبَىّ « لكن أنا هو الله ربى » . وقرأ ابن عامر والمَسِيلِىّ (١) عن نافع ورُوَيس عن يعقوب « لكنا » فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف . وقال الشاعر :

أنا سيف العشيرة فاعرفونى * حُمَيْدًا قــد تَذَرَّيْتُ السَّناما

وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوافى * بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف . ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ « هو » ضمـير القصة والشأن والأمر ؛ كقوله « فإذا هِىَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الذين كفروا (٢) » وقوله « قل هو الله أحد » . ﴿ وَلَا أُشْرِكُ

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد . وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالمغرب .

(٢) آية ٩٧ سورة الأنبياء .

بِرَبِّى أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الاخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يُسْلُب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه؛ وهو الذى آتانى الفقر . ويحتمل أنه أراد بجحودك البعث مصيرُه إلى أن الله تعالى لايقدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه، إذ قال « مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَدًا » و « ما » فى موضع رفع، تقديره : هذه الجنة هى ماشاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر، أى ماشاء الله كان ، ومالا يشاء لايكون . ﴿ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى مااجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لابقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانيــة ــ قال أشهب قال مالك : ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول هذا . وقال ابن وهب قال لى حفص بن مَيْسرة : رأيت على باب وهب بن منبّه مكتوبا « ما شاء الله لاقوة إلا بالله » . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى هريرة : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ــ أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى يارسول الله، قال "لاحول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدى واستسلم" أخرجه مسلم

فى صحيحه من حديث أبى موسى. وفيه : فقال " ياأبا موسى أو ياعبد الله بن قيس ألا أدُلُّك على كلمة من كنز الجنة — فى رواية على كنز من كنوز الجنة — " قلت : ما هى يارسول الله، قال : "لاحول ولا قوة إلا بالله". وعنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى؛ فقال "لا حول ولا قوة إلابالله العلىّ العظيم". وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بآسم الله ماشاءالله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال بامم الله قال المَلَك هُديت ، و إذا قال ما شاء الله قال المَلَك كُفيت ، و إذا قال لا قوة إلا بالله قال المَلَك وُقيت . خرجه الترمذيّ من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال — يعنى إذا خرج من بيته — باسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفِيت ووُقِيت وتنحّى عنه الشيطان " هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت". وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال . "إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملَكان موكَّلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت و إذا قال لاحول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت و إذا قال توكّلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قَرِيناه فيقولان ماذاتريدان من رجل قد هُدِىَ ووُقِى وكُفِى". وقال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : سئل محمـد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه — يعنى الجنة — يدخلنى الضعفاء " مَن الضعيف ؟ قال : الذى يبرئ نفسه من الحول والقوة يعنى فى اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين " . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رَضِىَ به . وروى أن من قال أربعا أَمِنَ من أربع : من قال هـذه أمِن من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمرى إلى الله أمن من مكر الناس ، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين أمن من الغم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَـلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ « إنْ » شرط « تَرَنِ » مجزوم به ، والجواب « فعسى رَبِّى » و « أنا » فاصـلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون فى موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إن ترنِ أنا أقل منك » بالرفع ؛ يجعل « أنا » مبتدأ و «أقل» خبره، والجملة فى موضع المفعول الثانى، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، و إثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة . و ﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل ، أى فلعلّ ربى . ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِنْ جَنَّتِك ﴾ أى فى الآخرة . وقيل فى الدنيا . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك . ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أى مرامى من السماء، واحدها حُسْبانة؛ قاله الأخفش والقُتَبِى وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوِسادة ، والحسبانة الصّاعقة . وقال الجوهرى : والحسبان (بالضم) : العـذاب . وقال أبو زياد الكلابى : أصاب الأرض حسبان أى جراد . والحسبان أيضا الحساب، قال الله تعالى : « الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبَانٍ »(١) . وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب؛ أى يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك ؛فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا: سهام قصار يرمى بها فى طَلْق واحد، وكان من رَمْى الأكاسرة . والمرامى من السماء عذاب . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قـدم ، وهى أضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و « زلقا » تأكيد لوصف الصعيد؛ أى تزلّ عنهـا الأقدام لملاستها . يقال : مكان زَلَق ( بالتحريك ) أى دَحْض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رُؤْبة :

* كأنها حَقْباءُ بَلْقاءُ الزَّلَق *

والمَزْلَقة والمَزْلَقة : الموضع الذى لايثبت عليه قدم .وكذلك الزَّلَّاقة . والزَّلْق الحَلْق،زَلَق رأسَه يَزْلِقُــه زَلْقا حلقه ؛ قاله الجوهرى . والزَّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنَّقَض . وليس المراد

(١) آية ٥ سورة الرحمن .

أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر؛ قاله القشيري . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً ﴾ أى غائرا ذاهبا ، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء . والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم؛ كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوحٌ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . قال عمرو بن كُلثوم :

تَظَلّ جياده نَوْحا عليه * مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

آخر :

هَرِيق من دموعهما سجاما * ضُباع وجاوبى نوحا قياما

أى نائحات . وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر؛ فحذف المضاف؛ مثل « وَٱسْأَلِ القَرْيَةَ » ذكره النحاس . وقال الكسائى : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يَغُور غَوْرا وغُؤورا ، أى سفل فى الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تَغُور غَوْرا وغُؤورا؛ دخلت فى الرأس . وغارت تَغار لغة فيه . وقال :

* أغارتْ عينُه أم لم تَغَارَا *

وغارت الشمس تغور غِيارا، أى غربت . قال أبو ذُؤيب :

هل الدهر إلّا ليلة ونهارُها * وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أى لن تستطيع ردّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر . ويجوز أن يكون المخفوض فى موضع رفع . ومعنى « أُحيط بثمره » أى أهلك ماله كله . وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أى فأصبح الكافر يضرب إحدى

يديه على الأخرى ندما؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبّر عنه باليد، من قولهم : في يده مال ، أي في ملكه مال . ودلّ قوله « فأصبح » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وهم نائمون . فأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ »(١) ويقال : أنفقتُ في هذه الدار كذا وأنفقت عليها . ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي خالية قد سقط بعضها على بعض ؛ مأخوذ من خَوَت النجوم تخوى خَيًّا أمحلَتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُمْطر في نَوْئها . وأخْوَت مثله . وخَوَت الدار خَواء أقْوت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فتلك بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »(٢) ويقال ساقطة ؛ كما يقال فهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليه بين هلاك الثمر والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلةً على بَغْيه . ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله عليّ ، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعالى : وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ « فِئَةٌ » اسم «تكن» و «له» الخبر . « يَنْصُرُونه » في موضع الصفة ، أي فئة ناصرة . ويجوز أن يكون « ينصرونه » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أَوْلى لأنه قد تقدّم «له» . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقول الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيبويه الآخر . و « ينصرونه » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئة تنصره ؛ أي فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ أي ممتنعا ؛ قاله قتادة . وقيل : مستردًّا بدل ما ذهب منه . وقد تقدم اشتقاق الفئة في «آل عمران»(٣) . والهاء عوض من الياء التي نقصت

(١) آية ١٩ سورة ن . (٢) آية ٥٢ سورة النمل . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٤

من وسطه، أصله فِيءٌ مثلُ فِيعٍ؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئُون وفِئات، مثل شِيات ولِدات ومِئات . أي لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف فى العامل فى قوله « هنالك » وهو ظرف ؛ فقيل : العامل فيه « ولم تكن له فئة » ولا كان هنالك ؛ أى ما نُصر ولا انتصر هنالك ، أى لما أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله « منتصرا » . والعامل فى قوله « هنالك » : « الولاية » ، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقّ هنالك ، أى فى القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائى « الحقُّ » بالرفع نعتا للولاية . وقرأ أهل المدينة وحمزة « الحقِّ » بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الحقَّ » بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الوِلاية » بكسر الواو ، الباقون بفتحها ، وهما بمعنًى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الوَلاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله « اللهُ وَلِىُّ الذين آمنوا » (١) . « ذَلك بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا » (٢) . وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله « والأَمْرُ يومئذٍ لِلّهِ » (٣) أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يُرَدّ أمره إلى أحد؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّوَهّمات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجَى منه ، ولكنه أراد فى ظن الجهال؛ أى هو خير مَن يُرجى . ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى « عُقْبا » ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنًى واحد؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعُقْبُه، أى آخره .

---

(١) آية ٢٥٧ سورة البقرة . (٢) آية ١١ سورة محمد . (٣) آخر سورة الانفطار .

قوله تعالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا، أى شبهها . ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أى بالماء . ﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس »[1] مبيّناً . وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لايستقر فى موضع، كذلك الدنيا لاتبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لايقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعا مُنْبِتًا ، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ . وفى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يارسول الله، إنى أريد أن أكون من الفائزين ؛ قال : " ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منها يُطغى " . وفى صحيح مسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا وقنعه الله بما آتاه ". ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أى النبات ﴿ هَشِيمًا ﴾ أى متكسّرا من اليُبس متفتتًا، يعنى بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه . والهَشْم : كسر الشىء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشيمةُ كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحا . ورجل هَشِيم : ضعيف البدن . وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف. واهتشم

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦

ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَشَمَ الثَّرِيدَ؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سِنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعنى كسره وثَرَده، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التى أصابتهم؛ فسمِّيَ بذلك هاشما . ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أى تفرقه؛ قاله أبو عبيدة . آبن قتيبة : تنسفه . ابن كَيْسان : تذهب به وتجيء . ابن عباس : تديره؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « تذريه الريح » . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله «تُذريه» . يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و [تَذرِيه] ذَرْيا وأذرته تُذْرِيه إذْراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أى قلبته . وأنشد سيبويه والفراء :

فقلت له صَوِّبْ ولا تجهدَنَّهُ * فيُذْرِكَ(1) من أُخْرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه !

قوله تعالى : ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ويجوز « زينتا » وهو خبر الابتداء فى التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالا ونفعا، وفى البنين قوة ودفعا، فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال

---

(1) فى كتاب سيبويه : « فيذنك » وهى رواية أخرى فى البيت . وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائى . ومعنى صوب : خذ القصد فى السير وارفق بالفرس ولا تجهد . وأخرى القطاة : آخرها؛ والقطاة : مقعد الردف . (أى مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) . يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له . (راجع الشنتمرى على كتاب سيبويه) .

والبنين ؛ لأن المعنى : المـال والبنون زينـة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم . وهو رَدٌّ على عُيينـة بن حِصْن وأمثاله لمـا افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعـالى أن ما كان من زينـة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنمـا يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المـال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنهـا اليوم معـك وغدًا مع غيرك، ولا مع السـلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغـيرك . ويكفى فى هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَـا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ (١) ». وقال تعالى : « إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (٢) » .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أى ما يأتى به سَلْمان وصُهيب وفقراء المسـلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أى أفضل ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى أفضل أملا من ذى المـال والبنين دون عمل صالح، وليس فى زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا (٣) » . وقيل : خير فى التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير فى ظنّهم .

واختلف العلماء فى «الباقيات الصالحات» ؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو ابن شُرَحْبِيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أوفعل يبقى للآخرة . وقاله ابن زيد ورجّحه الطبرى . وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا. وقال علىّ رضى الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المـال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور: هى الكلمات المأثور فضـلها : سبحانَ الله والحمـد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرّجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النَّسائىّ عن أبى سعيد الخُـدْرىّ أن رسول الله

---

(١) آية ١٥ سورة التغابن . (٢) آية ١٤ سورة التغابن . (٣) آية ٢٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم قال : "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل : وما هي يارسول الله؟ قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله" . صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله. وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْناً نخرطه حتى سقط ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك و بينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات". ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال: " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة". قال: هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس، إلا أنه قد رآه ونظر إليه. وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يامحمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" قال : حديث حسن غريب، خرّجه الماوردي بمعناه ، وفيه ــ فقلت : وما غراس الجنة؟ قال : "لا حول ولا قوة إلا بالله". وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يَغْرِس غَرْسا فقال : " يا أبا هريرة ما الذي تغرس" قلت غِراسا . قال "ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة" . وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهِمّات؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع؛ قاله الحسن . وقال عُبيد ابن عُمير : هن البنات؛ يدل عليه أوائل الآية؛ قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثم قال «والباقيات الصالحات» يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثوابا،

وخير أملا فى الآخرة لمن أحسن إليهن . يدل عليه ما روته عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على امرأة مسكينة ... الحديث، وقد ذكرناه فى سورة النحل فى قوله «يتوارى من القوم» الآية (١) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لقد رأيت رجلا من أمتى أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن رب إنه كان يحسن إلينا فى الدنيا فرحمه الله بهن " .

وقال قتادة فى قوله تعالى : « فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً » قال : أبدلهما منه ابنة فتزوجها نبي فولدت له اثنى عشر غلاما كلهم أنبياء .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ قال بعض النحويين : التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال . قال النحاس : وهذا غلط من أجل الواو . وقيل : المعنى واذكر يوم نسير الجبال، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال فى آية أخرى « وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » . ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » . وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر « ويوم تُسَيَّرُ » بتاء مضمومة وفتح الياء . و «الجبالُ» رفعا على الفعل المجهول . وقرأ ابن مُحَيْصِن ومجاهد «ويوم تَسير الجبال» بفتح التاء مخففا من سار . «الجبال» رفعا . دليل قراءة أبى عمرو « وإذا الجبال سُيِّرت » . ودليل قراءة ابن محيصن « وتَسير الجبال سَيْرا » . واختار أبو عبيد القراءة الأولى « نسير » بالنون لقوله «وحشرناهم» . ومعنى ﴿ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها ، وهدم بنيانها ؛ فهى بارزة ظاهرة . وعلى هذا القول أهل التفسير . وقيل : « وترى الأرض بارزة » أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ؛ كما قال « وألقت ما فيها

(١) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء .

وتخلّت[1] » وقال « وأخرجت الأرض أثقالها[2] » وهذا قول عطاء . ﴿ وحشرناهم ﴾ أى إلى الموقف . ﴿ فلم نغادر منهم أحدا ﴾ أى لم نترك؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :

غادرته متعفّرا أوصاله * والقوم بين مجرّح ومجدّل

أى تركته . والمغادرة الترك؛ ومنه الغَدْر؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمى الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول : حشرنا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفا ﴾ « صفا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفا بعد صف كالصفوف فى الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صف واحد . وقيل جميعا؛ كقوله « ثم ائتوا صفا[3] » أى جميعا . وقيل قياما . وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْده فى كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أَحْضِروا حجتكم ويسّروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية فى البيان فى تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى يقال لهم : لقد جئتمونا حُفاة عُراة، لا مالَ معكم ولا ولدا . وقيل فرادى؛ دليله قوله « ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة[4] » . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ﴿ بل زعمتم ﴾ هذا خطاب لمنكرى

(١) آية ٤ سورة الانشقاق . (٢) آية ٢ سورة الزلزلة . (٣) آية ٦٤ سورة طه .
(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام . راجع ج ٧ ص ٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

البعث، أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراة غُرْلًا" قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : "يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" . « غُرْلًا » أى غير مختونين . وقد تقدم فى « الأنعام »(1) بيانه .

قوله تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ « الكتاب » اسم جنس، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدى العباد؛ قاله مُقاتل . الثانى — أنه وضْع الحساب؛ قاله الكلبى ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شكّ نُعيم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكعْب : وَيْحك يا كعب ! حدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قولُه تعالى « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مُشْفقين مما فيه ويقولون يا وَيْلَتنا ما لهـذا الكتابِ لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها — قال الأسدى : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيه فإذا حسناته باديات للناس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

(1) راجع جـ ٧ ص ٤٢

ذلك كلّه أنه مغفور وأنك من أهل الجنة ؛ فعند ذلك يُقبِل إلى أصحابه ثم يقول « هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »(١) ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يُلَفّ فيجعل من وراء ظهره ويُلْوَى عنقه ؛ فذلك قولُه « وأمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ »(٢) فينظر فى كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر فى حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفُضيل بن عِياض إذا قرأ هـذه الآية يقول : ياويلتاه ! ضِجُّوا إلى الله تعـالى من الصغائر قبـل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله عز وجل ؛ ذكره الثعلبي . وحكى المـاوَرْدِيّ عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن فى معصية ، فإن الضحك من المعصية رِضًا بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هـذا والله أعلم . أو يُحمَل الضحك فيما ذكر المـاوردى على التبسم ، وقد قال تعالى : «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا» . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى . وقـد مضى فى « النساء »(٣) بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء ، وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنهـا تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى « أحصاها » عدّها وأحاط بها ؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعاً . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عمـلوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بجُـرْم أحد ، ولا يأخذه بمـا لم يعمله ؛ قاله الضحاك . وقيـل : لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا فى عقابه .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

(١) آية ١٩ سورة الحاقة . (٢) آية ١٠ سورة الانشقاق . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٨

قوله تعالى : ﴿ وإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تقـدم فى « البقرة » هذا مستوفى[1]. قال أبو جعفر النحاس : وفى هـذه الآية سؤال، يقال : ما معنى « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففى هذا قولان : أحدهما — وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أُمِر فعصى، فكان سببَ الفسـق أمْرُ ربه ؛ كما تقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر — وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى : ففسق عن ردّ أمر ربه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى ﴾ وقّف عز وجل الكفرة على جهـة التوبيخ بقـوله أفتتخذونه يا بنى آدم وذرّيتـه أولياء وهم لكم عدوّ؛ أى أعداء، فهو اسم جنس . ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى بئس عبادة الشـيطان بدلا عن عبـادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبيّ : سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه فى فرج نفسه فباض خمس بيضات ؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له فى فخـذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هـذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يَخْرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين. قال القشيرى أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرّية، وأنهـم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البَرْقانِى أنه خرج فى كتابه مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لا تكن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .

أوَلَ من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ" . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذريّتَه» ظاهر اللفظ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر و يحملون على الباطل . وذكر الطبرى وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم : زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق، يضع رايته فى كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار، يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر آسم الله بصّره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه ، و إذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : و إنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول : داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبي وغيره عن مجاهد : والأبيض، وهو الذى يوسوس للأنبياء . وصخر وهو الذى اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى . والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس و يتيههم . ومنهم الغيلان . وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الدّارانِيّ : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى، يتقاضى آبن آدم فيخبر بعمل كان عمله فى السرّ منذ عشرين سنة، فيحدّث به فى العلانية . قال آبن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طوّل النقاش فى هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بى فى هذا صحيح إلا ما فى كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُنْزَب . وذكر الترمذى أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذُكر من التعيين فى الأسم فصحيح؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح فى أن له أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره .

وفى صحيح مسـلم عن عبـد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما ٱسمه يحدّث . وفى مسند البَزّار عن سلمان الفارسى قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا تكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته" . وفى مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبـد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ عن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلما ألبستُه التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته، قال : يوشِك أن يتزوّج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عَقّ، قال : يوشِك أن يَبَرّ . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شَرِب، قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى، قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل، قال : أنت أنت ! وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن إبليس يضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنـة يجىء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ما صنعتَ شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه و بين أهله قال فيُدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت" . وقد تقدّم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بثَغْر الإسكندرية يقول : إن شـيطانا يقال له البيضاوى يتمثـل للفقراء المواصلين فى الصيـام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنّون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

* * *

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الحادى عشر، وأوّله قوله تعـالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض »

# إصلاح خطأ

| جـ | ص | س | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|---|
| ١ | ٣٦٧ | ٢ | لا تنهى | لا تنـه |
| ٣ | ٥٩ | ١ | وكانهن رِباية | وكأنهن رِبابة |
| ٣ | ٩٨ | ١٢ | أوس بن حُجْر | أوس بن حَجَر |
| ٣ | ٢٨٩ | ١٧ | دير هِرَقْل | دير هِزْقِل |
| ٣ | ٣٠٧ | ١٠ | أُكْسُ بنَاتِى | أُكْسُ بُذَيَّاتِى |
| ٣ | ٣٠٧ | ١٥ | يوم نكون | يوم تكون |
| ٤ | ٦٠ | ١٣ | مع البـاء | مع اليـاء |
| ٤ | ١٢٨ | ١٣ | فلن يُقْبَلُ | فلن يُقْبَلَ |
| ٥ | ١٨٩ | ١٦ | أو ما ملكت | وما ملكت |
| ٦ | ٣٦٣ | ٢٠ | جـ ٢ ص ٤٤ | جـ ٢ ص ٢٤ |
| ٦ | ٤٠١ | ١٥ | فاذا رأوا المشركين | فإذا رأى المشركون |
| ٧ | ١ | ١٢ | جمع مَفْتَح | جمع مِفْتَح |
| ٧ | ٢ | ١٣ | وأنه سبب المـاءَ | وأنه سبب المـاءِ |
| ٧ | ١٧٢ | ١١ | فلا نرضـاك | أفلا نرضـاك |
| ٨ | م | ٢٥ | ٣٥٢ | ٢٥٢ |
| ٨ | ٢٥٥ | ٣ | أو بَيعـة | أو بِيعـة |
| ١٠ | ٢٣١ | ١٧ | فى حكم لدنيـا | فى حكم الدنيـا |
| ١٠ | ٢٢١ | ٧ | فـلم يَبْرَدْ | فـلم يَبْرُدْ |
| ١٠ | ٢٢١ | ٨ | أصدقونى | أُصْدُقونى |

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية فى الأجزاء المـاضية أثبتناها هنا للفائدة ٥١

أحمد عبد العليم البردونى

المصحح بالقسم الأدبى

بدار الكتب المصرية

* * *

كَمُلَ طبع الجزء العاشر من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٩
( ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٠ ) م محمد نديم